مكتبة

سيرة حياة نيلّي بلاي

نيكولا أتاديو

حيثُ تولَدُ الريح

فتاة أمريكية حُرة

ترجمتها عن الإيطالية أماني فوزي حبشي

المتوسط

نيلّي بلاي

حيثُ تولَدُ الريحُ

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

2021 منشورات المتوسط - إيطاليا.

t.me/soramnqraa

Dove Nasce Il Vento. Vita Di Nelle Bly *by* **"Nicola Attadio"**
© 2017 Giunti Editore S.p.A. / Bompiani, Firenze-Milano
Arabic copyright © 2021 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: نيكولا أتاديو / المترجم: أماني فوزي حبشي
عنوان الكتاب: حيثُ تُولَدُ الريحُ / الطبعة الأولى: 2021.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-67-3

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكتبة
t.me/soramnqraa

نيكولا أتاديو

حيث تولد الريح

سيرة حياة نيلّي بلاي

ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي

المتوسط

إلى ماركو

مقدِّمة المترجمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

ربَّما أوَّل ما يتبادر إلى الذهن عند رؤية كتاب باللغة الإيطالية عن صحفية أمريكية، سَبَقَ أن كتب كثيرون عنها، ويمكن العثور على ما يخصُّها على صفحات الإنترنت، والاطِّلاع على حياتها، وقراءة مقالاتها أيضاً، هو: لماذا يهتمُّ مؤلِّف إيطالي بصحفية أمريكية؟

ولكننا نعلم أن قضايا عالمية، وأيضاً شخصيات «عالمية» قادرة على تمثيل فئة معيَّنة من البشر في أيِّ مكان في العالم، ونيلِّي بلاي تُعدُّ واحدة من تلك الشَّخصيَّات. فقد استطاعت أن تمثِّل الفتاةَ الأمريكيةَ الفقيرةَ الباحثةَ عن فرص عادلة في الحياة، واستطاعت، أيضاً، تمثيل صراع المرأة في الحصول على حقوقها في أيِّ مكان في العالم، وهو، في حقيقة الأمر، صراع لم يُحسَم بعدُ في مناطق كثيرة، فما زال بعضهم يرى أن مكان المرأة الأمثل هو «المنزل»، أو أن أعمالاً تناسبها، وأخرى لا، وكلُّ هذا وغيره تحدِّياتٌ تواجه النساءَ حتَّى يومنا هذا.

وليس هذا فقط، بل إن نيلِّي نموذج للصَّحَفِيِّ كما يجب أن يكون، فهي صَحَفِيَّة تستطيع أن تخلق علاقة بينها وبين القارئ، علاقة ثقة، فلم تكن نيلِّي تهتمُّ بشيء سوى نقل ما تراه إلى القارئ كما هو، تلك الصحافة القائمة على الاستقصاء، ومحاولة نقل الحقيقة، وفضح المساوئ، في محاولة صادقة لإصلاح شيء ما في المجتمع، وكما عبَّرت هي، نقل

الحقيقة بلا «مرشِّحات ولا فلاتر». وتحيلنا قصصها، والصراعات التي تتسبَّب فيها للجريدة، إلى يومنا هذا، حيثُ ما زالت الصحافة في بقع كثيرة من العالم تُواجَهُ بشراسة، من رأس المال والسِّياسيِّيْن.

ولكن ما وجدتُهُ مختلفاً في هذه السيرة، هو تلك الحوارات التي يحاول المؤلِّف من خلالها الغوص في أعماق البطلة، في محاولة لتخيُّل مشاعرها في فترات معيَّنة من حياتها، في محاولة لتخمين صراعاتها الدَّاخليَّة بناءً على ما يعرفه من سيرتها، وما كتبتْهُ هي نفسها. تلك الرغبة في رَبْط طفولتها ومعاناتها السابقة بتصرُّفاتها وردود فعلها، كأنه طبيب نَفْسيٌّ يحلِّل نَفْسيَّة مريضه، ويحاول الوصول إلى تفسيرات لردود أفعاله. في نَقْد الرواية، لم يعجب هذا الأسلوب بعض الناس، ولكنَّ بعضاً آخر رأى أنه يمنح سيرتها عمقاً روائياً وصبغةً إنسانيةً، جعلتْنا نقترب أكثر من نيلِّي، ومن معاناتها التي هي، في نهاية الأمر، تشبه، إلى حدٍّ كبير، معاناة كثيرين.

في نهاية الأمر، نحن أمام سيرة روائية عن حياة، تدور في فترة زمنية، ربَّما لا نعرف عنها كثيراً، ولكنها الفترة التي بدأت فيها المرأةُ النضالَ من أجل حقوقها، الحقوق التي عبَّرت عنها بلاي، سواءٌ الحصول على عمل مناسب، والحصول على التقدير والمساواة في المعاملة المهنية، وأيضاً الحصول على الحقوق في الانتخاب والاشتراك في العمل العامِّ.

وضعتُ أسماء الأعلام (المُدُن والشَّخصيَّات) بالحروف اللَّاتينيَّة في الهوامش مع بعض التعريفات المختصرة للشَّخصيَّات التي لم يُعرِّفها المؤلِّف في المَتْن، واستخدمتُ الأسماء المُعرَّبة للصُّحُف، حسب ما رأيتُه أكثر رواجاً على صفحات الإنترنت المختلفة.

ماذا سنفعل بفتياتنا؟ لا أتحدَّث عن الجميلات ولا الوريثات، لا أتحدَّث عن هؤلاء، ولكنني أتحدَّث عمَّنْ هنَّ بلا موهبة، بلا جمال، بلا نقود. ماذا سنفعل بهنَّ؟

معضلة الفتاة، «جريدة أنباء بيتسبرغ»،
بقلم فتاة يتيمة، 25 يناير 1885.

بينك Pink

تجلسين على حافَّة الفراش. ذلك السُّعال، ذلك السُّعال اللعين الذي لا يتركُكَ لحظة. أحضرتْ لكِ إحدى الصديقاتِ الصَّحيفةَ، ولكنكِ في هذا الصباح لا تشعرين بأيِّ رغبة في القراءة، لقد حاولتِ أن تنهضي، وأن تسيري خطوَتَيْن، ربَّما تستطيعين الوصول إلى النافذة الكبيرة التي تطلُّ على الحديقة. تحبِّين النظر إلى الخارج، حيثُ شجرة البَلُّوط الضخمة. كم تحبِّين تلك الصورة! إنها ذِكْراكِ الأولى. بجانب تلك الشجرة، في كلِّ صباح، كنتِ تنظرين إلى رجل يشاهد الحقول. لم يكن يعرف أنكِ تراقبينه. كنتِ تتسلَّلين في صمت خارج الفراش، وتعبرين الممرَّ الطويل للمنزل الكبير الذي يحتلُّ الوادي. تنزلين بخفَّةٍ على السلالم، وتفتحين بهدوءٍ الباب، وبينما تُدفِئُ الشمسُ وجهَكِ، تبحثين بنظرك عن الرجل الذي وَهَبَ اسمه للقرية بأكملها، الرجل الذي ينظر إليه العُمَّال باحترام، وبشيءٍ من الخوف، تبحثين عن أبيكِ. كم كنتِ تحبِّين مراقبته بينما يسند يَدَهُ إلى جِذْع الشجرة وهو يُحدِّق في نقطة غير محدَّدة! كثيراً ما سألتِ نفسَكِ: إلامَ ينظرُ؟ آلاف المرَّات ذَهَبَتِ إلى هناك بجواره، وحاولتِ أن تفعلي مثله، ولكنْ، لم تري شيئاً. كنتِ تدرسين كلَّ حركة يتحرَّكها، ثمَّ كانت نظراتُكُما تلتقي وتقطع بابتسامة سِحْرِكِ. لأن السِّحْرَ كان يكمن كلُّه هناك: في التفتيش عنه في الخفاء، وفَهْم تلك الإيماءات البسيطة التي يفعلها الكبار عندما يظنُّون

أنهم بمفردهم. كانت تلك لعبتكِ المفضَّلة: أن تري كيف يكون الآخرون بلا أقنعة، وربَّما يكون ذلك الفضول القديم هو ما دفعكِ عندما كبرتِ إلى أن تتنكَّري، كي تنزعي القناع عن الآخرين. أجل، لا بدَّ أن الأمر كان كذلك، تفكِّرين في هذا اليوم، وبينما يلتفُّ وشاحكِ حولكِ، وأنتِ ما زلتِ تحدِّقين في الشجرة البعيدة هناك، تشعرين من جديد بالتعب. تهزُّ سعلة قوية عظامكِ. تفكِّرين كم من الوقت مضى. عالم بأكمله قد تغيَّر. فعلتِ ما بوسعكِ لتحكي عنه لأُناسٍ بسطاء، كما كنتِ في طفولتكِ، قبل أن يسقط العالم، عالمكِ، فجأةً، كأنه قَصْر من الورق. كم مرَّةً فكَّرتِ، وأصابتْكِ رعشة! في ذلك الصباح الذي اكتشفتِ فيه أنه رحل إلى الأبد! إلَّا أنكِ لم تنفصلي عنه قطُّ. نزعتْهُ عنكِ قوَّة أكبر منكِ، وهي، في ذلك الزمن، غامضة، اختفى كأنه حُلم في الصباح. لا، لن تريه مرَّةً أخرى، لن يبقى منه إلَّا ذكرى ذلك المزارع المستند إلى الشجرة، ومن هذا الغياب البريء ستبدأ قصَّتكِ.

في مقاطعة أرمسترونغ في بنسلفانيا نهرٌ يعبر من الشَّمال إلى الجنوب، اسمه جدول كروكد(*)، يقطع مسار المياه بلدة بوريل(**) الصغيرة إلى نصفَيْن، مشكِّلاً خُلجاناً ناعمة، وخَلْف واحدة من تلك الخُلجان وُلدَت قريةٌ حول طاحونةٍ تعمل بالمياه، يسكنها عُمَّال باليومية، يعملون في حقول الحبوب، والجويدار، والشوفان. الطاحونة مِلْكُ تاجر ثريٍّ، يُدعى مايكل كوكران(***). كان عائدُ الطاحونة كبيراً، ولكن السَّيِّد

Crooked Creek (*

Burrell (**

Michael Cochran (***

كوكران لم يكتفِ بذلك النجاح، قرَّر أن يُوسِّع نشاطه، وأن يبنيَ متجراً كبيراً، وحتَّى هذا، اتَّضح على الفور أنه فكرة ممتازة، وصارت الأعمال من نجاح إلى آخر، كان غنيّاً، ويُقدِّره الجميع، حتَّى إنه سيُنتخَب قاضياً شَرَفِيّاً بضعةَ أعوام. في الحقيقة لم يكن يعلم أيَّ شيء عن القانون، ولكن حكمته واحترام المجتمع كانا كافيَيْن في بينسلفانيا في منتصف القرن التاسع عشر لحَسْم بعض النزاعات، ومن ثمَّ لمَدِّ يد العون إلى قاضي المقاطعة.

وبالقرب من المطحنة، في خليج صغير كثير الرياح، تتلوَّن حقول الذُّرَة فيه بالأزرق والأصفر في فصل الربيع، وفي منزلٍ كبيرٍ من طابقَيْن، تحيط به أشجار البَلُّوط الضخمة، يعيش القاضي، كما يطلق عليه الجميع في البلدة، مع زوجته الثانية ماري جين. ماتت زوجته الأولى كاثرين، التي تزوَّجها عام 1837، في سنٍّ أقلّ من أربعين عاماً، تاركةً إيَّاه مع أبنائهما العشرة، والرجال معروفون، بعد أقلّ من عام من موت كاثرين، وفي عام 1858، كان القاضي وهو يرتدي زِيَّ المناسبات الكبيرة، يَعِدُ ماري جين كامينجز(*) بالحُبِّ والإخلاص الأبديِّ، وهي أرملةٌ شابَّة بلا أبناء. وانضمَّ إلى ذُرِّيَّته الكبيرة بالفعل، خمسةُ أبناء، جاءت بهم إلى العالم ماري جين: ألبرت، تشارلز، إليزابيث، كيت وهاري. لدى القاضي نقطة ضعف تجاه إليزابيث، ربَّما لأنها وُلِدت بعد شهر من وفاة ابنه ويليم وورث(**)، الذي سَقَطَ صريعاً في أثناء الحرب الأهلية في معركة بليماوث. كانت علامةً على أنه، في نهاية الأمر، لكلِّ شيءٍ في الحياة سبب. في المنزل أطلقوا عليها اسم بينك، ربَّما بسبب عادة الأُمِّ في أن تُلبِسَها اللون الوردي منذُ

*) Mary Jane Cummings

**) William Worth

يوم معموديتها. وبينك تعشق ذلك الرجل الحنون حنان الجَدِّ. كانت تلك هي الأعوام الخالية من الهموم. دوَّامة من المشاعر تدور حول تلك الصغيرة المدلَّلة. لها ثلاثة عشر أخاً، بعضهم لديه أبناء أكبر منها، يقولون لها يا "عمَّة". تحيط بها المحبَّة والفرح، الحُرِّيَّة والرخاء. في ذلك المنزل الكبير في شيري ران(*)، تشكِّل السعادة جزءاً من المنظر الطَّبيعيِّ، مثل أشجار البَلُّوط والنهر، ورود الذُّرة الزرقاء والمطحنة. تمرُّ الأيَّام في سلام، وخصوصاً عندما يحلُّ الموسم الجميل، في أيَّام الشمس تلك، والسماء تبدو قريبة جدّاً وزرقاء، فتشعر كأن بإمكانكَ أن تغطس فيها بقفزة. تستيقظ بينك مبكِّراً جدّاً، لتذهب للتَّجسُّس على أبيها بينما يحتسي القهوة مستنداً إلى البَلُّوطة، ثمَّ تُقنعُهُ بأن يأخذها إلى المتجر حيثُ تعذِّب الصِّبْيَة العاملين خلف المائدة الخشبية الكبيرة، أو تتأرجح بقوَّة أكبر على الأرجوحة المعلَّقة على الفرع المتين للبَلُّوطة التي تحتلُّ الساحة الخلفية للمنزل، بينما تبحث عنها ماري جين في كلِّ مكان، لتُعيدها إلى الفراش. كانت واحة صغيرة من السلام، فالحرب الأهلية قد انتهت، والقاضي، مثل كلِّ الأُمَّة، ضحَّى بابنٍ، ولكنْ، مضى وقت الحِدَاد، واستعادت الحياة نفسها بصورة أقوى. تتغيَّر أيضاً كوكران ميلز، مثل الوطن كلِّه، وتكبر بإيقاع سريع، يُفتتح فيها مدرسة، ويتضاعف عدد الكنائس، وتُحفَر الأرض، لأن الوطن لا يزال يشعر بالجوع للحديد والفحم. في الواقع بدأ أحدهم الحفر للحصول أيضاً على شيء آخر، سائل كثيف، يميل لونه إلى الأخضر، ورائحته تثير الغثيان، البترول. قبل الحرب الأهلية، وعلى بُعد نحو عشرة أميال من الشَّمال الغربي لبوريل، في مقاطعة كراوفورد(**)، في بنسلفانيا أيضاً، في بلدة صغيرة

(*) Cherry Run

(**) Crawford

تُدعى تيتوسفيل[*]، أصرَّ مجموعة من رجال الأعمال، بالفعل، على أن يستخرجوا من بطن الأرض ذلك السائل الكريه الرائحة الذي كثيراً ما ظَهَرَ في بعض الآثار في نهر آليغيني[**]، أكبر تفرُّعات نهر أوهايو[***] الذي يجري بالقرب منه. إلى حَدٍّ أن كيميائيّاً من يال[****]، عام 1855، جمع كلَّ ما هو ضروري، ليتمكَّن من أن يدرس خصائصه، ووَصَلَ إلى خلاصة أنه بمجرَّد خضوع ذلك البترول إلى عملية تعدين، يمكن أن يصبح وقوداً ممتازاً. عهدت المجموعة بهذا المشروع إلى شابٍّ من منطقة إدوين دريك[*****]، رجل مارس ألف مهنة بحثاً عن الثروة، تحمَّس دريك جدّاً للمشروع، وبدأ التنقيب عن البترول مستخدِماً الآبار الارتوازية، واستمرَّ فترة طويلة بلا نجاح، ثمَّ في أحد أيَّام نهاية الصيف الحارَّة، عندما اتَّهم الجميعُ دريك بأنه مجنون ومُخادع، بدأ البترول يندفع من إحدى الآبار، وكان يخرج كأنه المياه. ومنذُ أكثر من مئة وخمسين عاماً، خطَّت أجيال من الطَّلَبَة ذلك التاريخ: 29 أغسطس 1859، ولكنْ، لم يكن لهذا اليوم أن ينتهيَ في كُتُب التاريخ لو لم يكن قد وَصَلَ إلى كليفلاند شابٌّ سمع ذلك الحديث عن البترول، وكان متأكِّداً أن ذلك المورد سيكون أكثر قيمة من ذهب كاليفورنيا الأسطوري.

كان سنُّه ستَّة عشر عاماً فقط عندما قرَّر أن يستثمر كلَّ ما يملكه في مشروع، لا يعلم أحد جيِّداً ما هو، معمل تكرير، لأن البترول، في

(*) Titusville

(**) Alleheny

(***) Ohio

(****) Yale

(*****) Edwin Drake

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورته الخام، غير صالح للاستخدام، يستلزم الأمر عناية الأيدي والعقول الفاهمة القادرة على تحويله إلى وقود، يمكنه أن يحلَّ محلَّ الفحم. لا، ليس سِحْراً، ولكنها كيمياء تطبيقية، وذلك الشَّابُّ المجهول، المهذَّب، صنع من اللَّا شيء في تيتوسفيل ذلك الكيان الذي سيصبح في غضون بضعة أعوام أكبر شركة لاحتكار البترول في التاريخ: Standard Oil.

مَنْ يدري إذا كان مايكل كوكران، القاضي الشَّرَفيُّ لقرية بوريل الصغيرة، قد سمع اسم ذلك الصبيِّ العبقري: جون دافيسون روكفيلر(*)، يمكننا أن نفترض أن هذا حَدَثَ، وربَّما عبَّر أيضاً عن إعجابه بالمشروع، بالمنهجية وبالقدرة على النظر إلى بعيد، ربَّما شعر بأنه مثل ذلك الصَّبيِّ. فقد بنى هو إمبراطوريَّته الصغيرة، بالتأكيد إن ما لديه هو استثمارات عقارية، ولكنَّ الروح واحدة، إنها روح البلدة، التي في أعقاب الحرب الأهلية، تتحرَّك مرَّةً أخرى في حسم، يدفعها قلق أكثر قدرة من بترول دريك، شيءٌ مُلِحٌّ على أن يكون جزءاً من تحوُّل عظيم. ويا لبؤس مصير مَنْ سيقاوم خوفاً أن يفقد ما سَبَقَ ورَبِحَهُ! بالنسبة إليه، بالنسبة إليهم كما الحال فيما بعد أيضاً، بالنسبة إلى إليزابيث، كان *الأرق* هو الكلمة المفتاحية، إنه *الأرق* نفسه الذي دفع في أحد الأيَّام القاضي إلى أنْ يترك شيري ران، ليذهب ويعيش في أبولُّو، بلدته الأصلية. هناك أراد أن يستمرَّ في الثراء، وأن يشيخ، وفعل ما قاله.

عام 1869 ودَّعت *بينك* بَلُّوطَتَها الضخمة، لتنتقل إلى المنزل الضخم ذي الأعمدة البيضاء التي كانت تبدو كأنها سيقان عملاق بالنسبة إليها، وهي لم يصل طولها بعدُ إلى مترٍ. ولكنْ، لن يتمكَّن القاضي كوكران من

---

*) John Davison Rockefeller

أن يشيخَ أبداً في ذلك المنزل: أُصيب بشَلَل مُفاجِئ -نُطلق عليه اليوم جلطة - وأصبح الرجل المستند إلى البَلُّوطة أمام الأُفق مجرَّد ذكرى شاحبة، ليختفيَ بعدها تماماً. في البداية أغلقت بينك عينَيْها، ورأت من جديد جَسَدَ أبيها المسجَّى على الفراش. الأصابع البيضاء، الخالية من الحياة، متشابكة بعضها في بعض. لن تتمكَّن أيٌّ من تلك اليَدَيْن من التربيت عليها فيما بعد، ولن يخرج من هذا الفم بعد الآن صوته. كلُّ شيء، فجأةً، انتهى بلا عودة. شرح لها الكبار أن القاضي لن يهملَها أبداً، وأنه من مكان ما غير محدَّد، سيسهر عليها. إلَّا أن بينك لم تفهم هذا. كان الأمر كالبَتْر، فمعه ذَهَبَ جزءٌ منها أيضاً، ثمَّ أصابها الخوف، ماذا سيحدث لعائلتها؟ في البداية كانت قوية، ثمَّ لم يعد الأمر كذلك. العالم، عالمها الصغير، تهاوَى كأنه قَصْر من الورق. حَكَتْ لها جودي، صديقة اللعب الدائمة، على الفور بعد الجنازة، عمَّا حَدَثَ بعد أن تُوفيِّ جَدُّها: بعد ذلك ببضعة أيَّام أتى رجل يرتدي اللون القاتم، ومعه خطابٌ غريبٌ تركه الجَدُّ، ونُظِّمَ كلُّ شيء. عندئذٍ جرت بينك مُطمئِنَةً أُمَّها، واثقةً بأن القاضي أيضاً لا بدَّ أن يكون فعل الشيء نفسه. قالت لها ماري جين والدموع في عينَيْها بأنه لا خطاب، نظرت إليها بينك غير مصدِّقة: ولكنْ، كيف يمكن ألا تكونا قد فكَّرتُما في هذا أنتِ وأبي؟

ظلَّت ماري جين صامتة، بينما أدركت بينك، للمرَّة الأولى، كيف أن الأسئلة التي نطرحها أهمُّ بكثير من الإجابات التي نتلقَّاها.

سَقَطَ موت القاضي على عائلة كوكران كضربةِ فأس مسنَّنةٍ على شجرة شابَّة، تظلُّ واقفة، على الرغم من الريح والعواصف، ولكنْ، أمام الهزَّة التالية تسقط سقوطاً مدوِّياً. في البداية، كان عليهم أن يتعاملوا

مع موت أبٍ وزوج ومحبٍّ، ولكنْ، سرعان ما ظَهَرَتْ، بشكل عَبَثِيٍّ، مشكلة تقسيم الميراث بين الأبناء التسعة من الزواج الأوَّل للقاضي، وبين الزوجة الثانية وأبنائها الخمسة. لم يترك كوكران، كما فهمت بينك بالفعل، أيَّ وصية، ولم يعثر قاضي المقاطعة على حلٍّ سوى أن يبيع كلَّ شيء، ويُوزِّع على كلٍّ منهم الجزء المخصَّص له من الميراث. وكانت النتيجة أن الأرملة وأبناءها الخمسة بدؤوا في طريق منحدر، شهِد على فقرهم عاماً بعد الآخر. ومن المنزل الضخم في أبولُّو انتقلوا إلى حلولٍ أكثر تواضعاً، وفقدت بينك الاتِّجاه، تلك الحياة الخالية من الهموم، التي لوَّنت أعوام حياتها الأولى، تركت مكانها لغضب خفيف، كثيراً ما كان ينفجر مع بداية أعوامها المدرسية، فيما سيُسَجَّلُ على أنه تصرُّفات همجية لمَنْ عرفها في تلك الفترة، أصبحت علاقتها بأُمِّها أكثر قوَّة، وفي انقلاب بطيء للأدوار، كلَّما كبرت إليزابيث، أخذت تعتني بماري جين وأختها كيت وأخيها هاري، بينما ترك ألبرت وتشارلز بسرعة منزل الأُمِّ.

لم تعد الألعاب المعتادة تهمُّها، حتَّى مطاردة الضفادع الآن أصبحت تصيبها بالمَلَل. من حين إلى آخر، كان يبدو لها أنها تسمع من جديد صوت أبيها، كانت تلتفت بسرعة، ولكنها لم تكن ترى أحداً. واقتنعت بأنه شَبَحُهُ، ولكنْ، كان هذا يطمئنها بدلاً من أن يخيفها، كانت روح القاضي المسنِّ، في تلك اللحظة، هي الشيء الوحيد الثابت لديها. في الوقت نفسه بدأت حياتها المدرسية، واتَّضح على الفور أنها ستصبح فتاة نموذجية: نحيفة بعض الشيء، مرحة، تهوى النقاش، ومُزحتها حاضرة، كان الجميع يدعونها ليزي، وهو اسمٌ بالنسبة إليها دَمِثٌ أكثر ممَّا ينبغي، ومنذُ تلك الفترة ستكرهه دائماً. من جهتها، لم تستطع أُمُّها، ماري جين، أن تقاوم بمفردها سوى ثلاثة أعوام تقريباً، ثمَّ قرَّرت أن تتزوَّج

للمرَّة الثالثة، ستتزوَّج رفيقها الجديد، جون جاكسون فورد، المحارب السابق في الحرب الأهلية. وعندما كان يرغب في العمل، كان يعمل في صناعة البراميل، لم يكن ما يمكن أن يقال عنه زواجٌ جيِّد. ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي سنِّ الثالثة والأربعين مع وجود مسؤولية مكوَّنة من خمسة أبناء كان من الصعب أن تعثر على ما هو أفضل من ذلك في منطقة بنسلفانيا. لم يمرّ وقت طويل قبل أن تدرك ماري جين بأنه لم يكن بإمكانها العثور على مَنْ هو أسوأ. لم يكن فورد يشبه القاضي كوكران في أيِّ شيء، لم يكن يعرف أيَّ شيء عن المحبَّة الزَّوجيَّة، ولا عن الاحترام، ولا عن رعاية الأطفال. وفي المنزل أخذت تتتابع، على فترات متقاربة، حوادث من العنف، وبين أعوامها التاسع والرابع عشر، اكتشفت بينك الجانب المتوحِّش من عالم ذُكُوري معيَّن، فالرجل ثمِلٌ معظم الوقت، يصفع ماري جين، ويهدِّد الجميع بمسدَّسه، بعد أن فقدت أباها، وبعد الانحدار الاقتصادي، شعرت بالخجل من زوج أمٍّ بائس وعنيف.

صمدت ماري جين لمدَّة خمسة أعوام، ثمَّ في عشية عيد القدِّيس سيلفسترو عام 1877، تجاوز فورد حدوده، كانت بينك مع أُمِّها وأخوتها في الصالة المستأجرة من الكنيسة المعمدانية للاحتفال بالعام الجديد، فجأة ظَهَرَ رجل، كان من الواضح أنه ثمِلٌ، وكان يتحدَّث مع نفسه. في البداية لم ينتبه إليه أيٌّ من الحضور، وبرأسه المترنح اتَّجه نحو ماري جين، التي شحبت بعد أن تعرَّفت على زوجها. بينما ساد الصمت حولها، أخرج فورد المسدَّس، وصوَّبه نحو رأسها. كانت فُوَّهَة المسدَّس على بُعد بضعة سنتيمترات من جبهة ماري جين، تحجَّرت بينك، فُورد مشتعلٌ غضباً، كان قد قال لها ألَّا تخرج من المنزل، وألَّا تذهب إلى

الحفل، ولكنها لم تُطِعْهُ، والآن يريدها أن تدفع الثمن. من الواضح أنه في حالة مضطربة، ترتعش يده التي تمسك بالمسدَّس أكثر، يتبادل ألبرت، أخو بينك الأكبر، بضع نظرات مع رجلَيْن بجواره، وبقفزةٍ يصبحون فوق فورد، طرحوه أرضاً، قيَّدوا حركته، ونزعوا سلاحه. تهرب ماري جين، بعد أن أصابتْها حالة هستيرية، ويجري خلفها الأبناء. يحاول الزوجان التصالح مرَّةً أخرى، ولكن فُورد لا يتغيَّر. وعندما يُشهر الرجل مرَّةً أخرى، بعد بضعة أشهر، مسدَّسه في وجه زوجته والأولاد، لم يعد لدي ماري جين أيّ شكوك، وتطلب الطلاق. وعلى الرغم من أن ولاية بنسلفانيا تمنح الزوجات الحقَّ في رَفْع قضايا الطلاق، فإن قليلاتٍ يلجأن إلى هذه الصَّلاحيَّة. تقدَّمت ماري جين للمحاكمة، وقد أثارت كثيراً من اللَّغَط في أثناء الجلسات العَلَنِيَّة التي قدَّمت فيها شهادات حول أساليب فورد الوحشية، وأصبحت قصَّتها موضوع حوارات عائلات أبولُّو. حكاية أرملة كوكران، وتدهور وَضْع زوجة القاضي، وعنف الزوج الثالث. كلُّ هذا يتردَّد في المجتمع الصغير، ليس هذا فقط، وافقت بينك بشجاعة أن تشهد أمام القاضي، أصبح سنُّها أربعة عشر عاماً، وتريد أن يعلم الجميع حقيقة الأمر. في أثناء المحاكمة، بفخرٍ ودون أن تخفض نظرها لحظة، قصَّت الحقيقة كما تراها: ليس ذَنْب أُمِّي إذا كان فُورد ثملاً طَوَالَ الوقت، ولا يوفر احتياجاتنا الضَّروريَّة، ليس ذَنْب أُمِّي أنه معتادٌ السبَّ واللعن في كلِّ يوم يرسله الله إلى الأرض، ليس ذَنْب أُمِّي أنه كان يهدِّدها بفُوَّهَة المسدَّس مصوَّبةً نحو رأسها، وأن يضعَهُ مَحشوّاً أسفل وسادته، ليس ذَنْب أُمِّي أن التسلية الوحيدة المفضَّلة لدى فُورد هي أن يركل أثاث المنزل، أو إذا كان كلُّ ما يستطيع عمله هو إفزاعنا جميعاً.

بمجرَّد أن عادت إلى مكانها، شدَّت على يد أُمِّها، وعندئذٍ، فقط

عندئذٍ، نزلت دمعة واحدة ببطء على وجنتها. كانت تعلم جيِّداً، كما يعلم الجميع، أن ماري جين لم يكن لديها بدائل، إلَّا أن الطلاق يُعدُّ دائماً فشلاً للمرأة. تلك الأصوات وتلك الوجوه طاردت *بينك*، في سنِّ المراهقة، كأنها الأشباح. كان غضبٌ، وكان ضيقٌ، وذكرى حياة كان يمكن أن تكون مختلفة. ذكرى ذلك الفردوس المفقود ما زالت تُشعرها بألم أكثر. كان من الأفضل أن تعرف رجالاً مثل فُورد فقط، على الأقلّ هكذا – فكَّرت - لن يحدث التَّمزُّق في المقارنة بين حالتها فيما قبل وحالتها فيما بعد. ردَّدت على نفسها: «لن يحدث ذلك أبداً، لن أعيش أبداً معتمدةً على آخرين». لن تقايض أبداً كرامتها بأيِّ نوع من أنواع الأمان، لا يجب أن تعتمد أبداً في حياتها على رجل، لن يحدث هذا أبداً.

اليتيمة الصغيرة الوحيدة

يتيمة، يتيمة، يتيمة. اليتيمة الصغيرة. كيف يمكن للطفل أن يشعر بالحرمان من الأب؟ كيف يمكنه أن يكبر في غيابه؟ لقد سألتِ نفسكِ هذا السؤال مرَّات عديدة. إنه لحظٌّ سعيد أن يكون لكِ أب مثل أبيك. ولكن الأمر استمرَّ فترة وجيزة. ثمَّ أتى ذلك الآخَر. لم تشعر بالثقة قطُّ تجاهه. يمكن لطفل صغير أيضاً أن يفهم عندما يكون أمامه شخص سيِّئ. وأنتِ عندما شاهدتِهِ يصل إلى منزلكم كنتِ أكبر من طفلة. أمَّا أُمُّكِ، فلم ترَ هذا. قلتِ لها: اتركيه، اتركيه. ولكنها لم تعد ترغب في البقاء بمفردها. هكذا يجب أن تسير الأمور، وهذا ما حَدَثَ. كم من المرَّات فكَّرتِ: طوبى لكلِّ مَنْ عَرَفَ أباً مثل أبي! تلك المقارنة تمزِّقكِ يوماً بعد الآخر. كان الرعب الأعظم هو أن تنتهيَ أنتِ أيضاً بين ذراعَي شخص كهذا. كان يستحوذ عليكِ ذلك المصير. حاولتِ بكلِّ قواكِ طريقاً للهروب. أقسمتِ، بعد إهانة ذلك الطلاق، ألَّا تفعلي مثل أمِّكِ: ثلاث زيجات، لأن المرأة لا تستطيع أن تعيش بمفردها. ولكنْ، ينبغي لكِ أن تفعلي هذا، هي الآن بمفردها من جديد، زوجان تحت الثرى وواحد، حمداً للسماء، هرب بعيداً. وإن كانت صرخاته، وتهديداته، وإزعاجه ما زالت تتردَّد في ذهنكِ، ولا تمنحكِ أيَّ هدنة، مثل صخب عميق، مثل هفيف الرياح بين أوراق البَلُّوط، إنه هناك، لا تفهمي على الفور من أين يأتي وأين يأخذكِ، ولكنه هناك يصحبكِ خلال يومكِ. وتلك

الريح الخفيفة تصبح في الليل عاصفة تنزع عنكِ نومكِ. فجأة يظهر فورد بضحكته البلهاء تلك، والمسدَّس المرتعش مصوَّبٌ إلى وجه أُمِّكِ الشَّمعيِّ، التي كانت تبتسم، ثمَّ اختفت الابتسامة. يصبح وجهها جادّاً فجأة، ويتقلَّص في تعبير رعب، كأنه خشب متعفِّن. يسقط جِلْدُها، كفخَّار متشقِّق. يرتعش فورد خوفاً من ذلك المشهد الرهيب. يبتعد، يستدير مشمئزّاً وهو يصوِّب المسدَّس نحوكِ، وأنتِ تضعين يَدَيْكِ على عينَيْكِ وتنظرين من بين أصابعكِ إلى أُمِّكِ وهي تتحلَّل، تصرخين صرخة متوحِّشة، ويضغط هو فَزِعاً الزنادَ، وتنطلق رصاصة جافَّة، إلَّا أنكِ لا تسمعينها، فأنتِ في فراشكِ، تهاجمكِ الحُمَّى، تجلسين وتبحثين بيدكِ في الظلام عن الكوب فوق الكومودينو، انتهى الكابوس، كما انتهى أيضاً الوقت، ولكنْ، لم ينتهِ ذلك الألم، ذلك الألم ظلَّ كأنه شظيَّة في القلب، في قلبكِ كيتيمة، يتيمة صغيرة ووحيدة.

"لا يمكننا أن نعيش كلُّنا في المُدُن، ولكنْ، يبدو أن جميعنا مُصرٌّ على ذلك: الماء البارد والساخن، الخبز من الفرَّان، المسرح والترام اللذان يشيران إلى الذوق الحديث." يقول هذا مدير جريدة "التريبون" لنيويورك هوراس جريلي(*)، أحد رُوَّاد الصحافة الأمريكية. كان محرِّكاً لسياسة القضاء على العنصرية في الحزب الجمهوري، الذي يُقال إنه وثَّق اسمه بعد الانفجار الدَّاخليِّ الذي حَدَثَ لحزب اليمين Whig الذي انقسم حول مسألة العبيد.

جريلي، محرِّر الصُّحُف اليومية الدؤوب، أحد أهمِّ الأبطال في

(*) Horace Greeley

عصر البيني برس penny press، الشكل الأوَّل للصحافة الشَّعبيَّة والجماهيرية. ولكن صُحُفه، وخصوصاً "التريبون"، اختلفت عن كلِّ الصُّحُف الأخرى. جريلي مَنَحَ مساحة وجيزة لتفاصيل الحوادث السوداء، وفي المقابل ركَّز على الموضوعات الاجتماعية والسِّياسيَّة. الخلاصة أن الأمر تعلَّق بمنتج أكثر إعداداً، ويطمح أن يزوِّد القارئ بالمعلومات اللَّازمة حول جدل اللحظة الآنية. كان جريلي أيضاً هو رجل أسطورة الحدود كفرصة: "اذهبْ إلى الغرب، أيُّها الفتى، واكبرْ مع بلدكَ"، وكان هذا هو شعاره. في الواقع، في الربع الأخير من القرن بدأت عملية خروج فعلية وحقيقية من الريف تجاه المراكز المدنية، وكانت النتيجة أنه في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً أصبح نصف الأمريكيِّيْن يعيشون في المُدُن الكبيرة مثل نيويورك، شيكاغو، فلاديلفيا، ديترويت وبيتسبرغ. يظنُّ الجميع أن هناك فرصَ عملٍ أكثر، وحُرِّيَّة ورخاءً. بالنسبة إلى كثيرين كَشَفَ هذا الحُلْم عن حقيقته ككابوس، منازل متداعية، إن لم تكن مجرَّد أكواخ فعلية، العمل الخالي من الإنسانية في المصانع، الفقر في الريف الذي ينعكس في بؤس المدينة. إنه مولد البروليتاريا المدنية الأمريكية. طبقة عاملة لن تضع أبداً في جدول أعمالها إمكانية الثورة، لأنه بالنسبة إلى معظم أولئك الرجال، فإن المرتَّب الجيِّد واليقين بوجود ماء ساخن في المنزل أهمُّ بكثير من الوصول إلى السلطة. وأصبحت المدينة جبهة جديدة أيضاً بالنسبة إلى النساء، تقدِّم لهنَّ فرصاً جديدة، فرص عمل جديدة، وإمكانية الاستقلال. تماماً كما أرادات بينك أن تفعل، سيترك عديدٌ من الفتيات الريفَ بحثاً عن حياة جديدة في المراكز الحَضَرِيَّة الكبيرة، معظمهنَّ ينتهي بهنَّ الأمر إلى العمل في المصانع، أو في المتاجر التي كانت تتضاعف لتُرضيَ استهلاك مَنْ يعيش في الأحياء المزدحمة

بالسُّكَّان، وفي أوقات يحدِّدها إيقاع دوريات العمل. فتيات أخريات سيزحمنَ المكاتب: سكرتيرات، وعاملات سنترال، وعاملات اختزال. ثمَّ هناك أيضاً مَنْ يحلم بالمدرسة: ظلَّ العمل في التدريس عملاً طموحاً، مُقدَّراً ومربِحاً. وكان التدريس بالتحديد هو ما فكَّرتْ فيه بينك، وهي أكبر بقليل من أعوامها الخمسة عشر، عندما كانت تحلم بمستقبلها كامرأة حُرَّة. خطَّتها بسيطة جدّاً: جزء من ميراث أبيها مخصَّص لها، ويمكن أن يكون نافعاً لهذا الهدف. ولكنْ، لا بدَّ أن تتحدَّث في ذلك مع الوَصيِّ الذي دُعيَ ليُديرَ تلك الأموال حتَّى تصل إلى سنِّ الرشد. وكان الوصيُّ صامويل جاكسون، مصرفيّ المقاطعة المحترم والمقتدر، طلبت الصَّبِيَّة ميعاداً معه، وحَصَلَتْ عليه. في أثناء اللقاء، شرحت بينك ما يدور في ذهنها: "لا يمكن أن تستمرَّ أُمِّي بمفردها فترة طويلة. ولكنْ، أنا ليس لديَّ أيُّ رغبة في أن أتزوَّج قريباً. لقد رأيتُ ما يمكن أن يفعلَهُ الرجال، وفكرة الزواج لا تجذبني كثيراً".

عند سماعه لتلك العبارة رَفَعَ جاكسون عينَيْه عن الوثائق المجموعة على المكتب، ونظر إلى بينك نظرة استفهامية، وأخذ حاجبه الأيسر يرتعش دون أن يشعر، لم يكن هذا بسبب الإحباط، ولكنْ، كان الأمر بالنسبة إليه مفاجأة. فلم يحدث له قطُّ أن تحدَّثتْ معه صَبِيَّةٌ في سنِّ الخامسة عشرة بهذه الطريقة.

استأنفت بينك، دون أن تعبأ بدهشته، حديثَها الذي تمرَّنت عليه مرَّات كثيرة أمام المرآة. "الحلُّ سهل: أن أبحث عن عمل مناسب. على سبيل المثال، أن أعمل مدرِّسة". ثمَّ، بعد وقفة وجيزة، سألتْهُ مباشرة: "أين يمكنني أن أتعلَّم، كي أصبح معلِّمةً جيِّدة؟"

جاكسون، كأنه أحد تلاميذها، أجاب على الفور: "في مدرسة إنديانا لإعداد المعلمات".

- "تماماً"، استعادت بينك الحديث، "وهنا نأتي إلى هدف لقائنا. هل يكفي نصيبي في الميراث تغطية مصروفات ثلاثة أعوام من الدراسة؟".

- بالتأكيد، يا آنسة كوكران، توجد النقود لهذا.

عندئذٍ اتَّفق الاثنان على ما يجب عمله: سيكون واجب المصرفيِّ أن يحوِّل إلى المعهد المبالغ الضَّروريَّة للمصروفات. وفي سبتمبر عام 1879 التحقت إليزابيث بحماس شديد بمدرسة إنديانا، كان أمامها مستقبل مطمئنٌّ في مدرسة جادة، وشهادة ستضمن لها عملاً محترماً، مقدَّراً اجتماعيّاً، وذا دخل جيِّد، والأهمُّ - وهو الشيء الذي كان يهمُّها أكثر - الضمان بأنها لن تحتاج إلى الاعتماد على أيِّ رجل. أي إنه بعد نحو عشر سنوات من موت الأب، وإخفاق زواج أُمِّها بذلك المختلِّ فورد، وطلاقها منه، يمكن أن تتنفَّس بينك هواءً جديداً، يمكنها أخيراً أن تنظر إلى الماضي ببعض الارتياح، وإلى المستقبل القريب ببعض الثقة. في الخريف تردَّدت على فصول الرِّياضيَّات والنَّحْو والتصميم، وشعرت بالشَّغَف بالقراءة بصفةٍ خاصَّة، وكانت تقضي أُمسيَّات طويلة في مكتبة المدرسة. التهمت، حَرْفِيّاً، "حول العالم في ثمانين يوماً"، وهي تقضي الساعات تحلم بالسفن البخارية والقوافل البرِّيَّة والقطارات. لم تتخيَّل بعدُ - وكيف يمكن أن يكون؟! - ما خبَّأه القَدَر لها خلال عشر سنوات.

"لقد بدأتُ في قراءة "نساء صغيرات" وأدركتُ، أنه في الأعوام

العشرة الأخيرة لم نحتفل بأيٍّ من أعياد الميلاد المجيدة باحترام". أفضتْ إلى إحدى زميلاتها في الفصل الدِّراسيِّ، ناظرةً إليها دون أن تفهم. "ألا تتذكَّرين؟ «عيد الميلاد المجيد ليس عيداً يُعامَل باحترام بلا هدايا»، قالت جو تلك العبارة في بداية الكتاب، ولكنْ، هذا العام سأتبع شعارها، وأقسم أننا سنحتفل بالميلاد بشكل جادٍّ".

ولكنْ، في شهر ديسمبر، وَصَلَهَا استدعاءٌ غير متوقَّع من السَّيِّد جاكسون في البنك، بينما تتَّجه نحو مكتبه، أصبحت إليزابيث - أصبح بينك الآن اسماً لا يتناسب مع سنِّها - فريسةً لعاصفة من الأفكار. كان ألفُ سؤالٍ يدور في رأسها: ماذا يمكن أن تكون قد ارتكبت؟ هل اشتكت المدرسة للوَصيِّ عليها؟ استعادت في ذهنها الأشهر التي قضتْها في مدرسة إنديانا، ولكنْ، لم يبدُ لها أن هناك شيئاً يبرِّر هذا الاستدعاء. ودخلت إلى مكتب جاكسون وهي منفعلة، وقرأتْ على وجهه تعبيراً أكثر أسفاً من الموجود على وجهها. جلست وانتظرتْ أن يتحدَّث هو. بدأ الرجل، الذي بدا محرجاً بوضوح بأن يخبرها بأنها لم يعد لديها أيُّ نقود: "لقد أخطأتُ في حساباتي، يا آنسة كوكران. للأسف لا بدَّ أن تتركي مدرسة إنديانا".

لم تفهم إليزابيث، وطالبتْهُ بمزيدٍ من التفسير، ولكن الحقيقة هي ما أخبرها به جاكسون، ولا شيء يمكنها تغييره. وتحوَّل عيد الميلاد الذي كان لا بدَّ أن يكون أكثر الأعياد بهجة، إلى أكثرها حزناً، وقضتْهُ في الندم على الفرصة المهدَرة.

وبنسيان الخبرة الوجيزة جدّاً في مدرسة إنديانا، وفي شهر فبراير 1880 انتقلت العائلة كلُّها إلى إحدى ضواحي بيتسبرغ، على أمل

أن تكون فرص العثور على عمل أسهل. كانت أشهرٌ مظلِمة، قضتْها إليزابيث وهي تبحث عن وظيفة كعاملة أو سكرتيرة، لكنْ، بلا أيِّ نجاح. ربمَّا في هذه الفترة جاءتْها فكرة أن "تُصلح" ماضيَها، أن تضيف إلى سيرتها الذَّاتيَّة خبرة مدرسية، لم تحصل عليها أبداً في الحقيقة. وهكذا ظَهَر تردُّدٌ، غير محدَّد، على مدرسة إنديانا لإعداد المعلمات، ومسيرة تكوين ذاتية بفضل مدرسة عائلية تخيُّليَّة، الحقيقة مختلفة تماماً. وفي سنِّ السادسة عشرة، ومع أُمِّها، وأخيها الأكبر ألبرت وتشارلز، وأختها كيت ذات الأعوام الأربعة عشر، وهاري الصغير البالغ من العُمُر عشرة أعوام، سكنت في منزل متواضع في مدينة آليغيني. سرعان ما عثر كلٌّ من ألبرت وتشارلز على عمل، وفي غضون بضعة أشهر تزوَّجا. وبعد هذا بقليل، تزوَّجت كيت أيضاً، ولكن ذلك الزواج لن يستمرَّ طويلاً. ولكنْ، لم تكن لدى إليزابيث أيُّ نِيَّة للزواج. كانت ترغب في أن تعمل. ولكنْ، وجدت نفسها تعيش بنفسها الصعوبات التي تقابلها النساء عندما تُصرُّ على أن تكسب معيشتها بمفردها. عانت بنفسها ما يعني أن تخرج عن المعيار الذي مَنَحَهُ المجتمع الأبوي القاسي للصورة النِّسائيَّة. كان حقيقيّاً أننا الآن على عتبات عالم نسائي جديد، وبعد قليل سيبدأ الحديث عن "المرأة الجديدة New woman". لكن ذلك الذي، ربمَّا، يصلح للفتيات المتعلِّمات أو المتيسِّرات، بنات البرجوازية الثَّريَّة، يصلح قليلاً، أو الأفضل أن نقول، لا يصلح على الإطلاق لمَنْ ينتمين إلى الطبقات الأكثر فقراً في المجتمع الأمريكي. ذلك الاحتياج المُلِحُّ إلى عمل، يُجبرُهنَّ، كثيراً، على قبول معاملة، أقلّ ما يمكن أن يقال عنها إنها عنصرية. ربمَّا تنجح إحداهنَّ بصعوبة شديدة في الحصول على عمل كبائعة أو سكرتيرة، ولكن التنافس بلا رحمة، وقَدَر أغلبية أولئك النساء هو بين الجدران الأربعة لمصنع ما.

إلَّا أن إنجازاً يليه إنجاز، خطوةً صغيرة وراء أخرى، هو ما أدَّى إلى تحوُّل حقيقي وفعلي في دَوْر النساء، البيضاوات بالطبع، لأنه بالنسبة إلى سود البشرة (نساء أو رجال، لا فارق هنا) لا بدَّ أن ينتظروا لمدَّة قرن آخر. كانت ثورة مُنهكَة، مُنهكَة إلى أقصى درجة. ولكنها ثورة على الرغم من ذلك. وداخل ريح التغيير هذه، صَبِيَّةٌ في سنِّ السادسة عشرة تقريباً، تبحث عن طريقها. إليزابيث لا تستسلم، لا تريد أن تُصدِّق أن نهاية مصيرها يمكن أن تكون مع أيِّ زوج، مع عدد لا يعلمه أحد من الأطفال، وأُمّها أيضاً. لا، إن حياتها ثمينة، ولا تريد أن تلقي بها هَبَاءً. في صمت، وفي خفية عن الأرقام والإحصائيات، في خفية عن المؤرِّخين، كانت تقاوم. لم تذهب لتعمل في مصنع، ولم تتزوَّج، في عصر تفعل مَنْ هنَّ في سنِّها هذا الشيء أو ذاك، أو ربَّما كلَيْهما. فمن المؤلم أن تكون امرأة وفقيرة. ولكن المؤلم أكثر أنه لا بدَّ لها من الاعتراف أنه من المستحيل الوصول إلى شيء بلا رجل.

يمكن لإليزابيث أن تتخلَّى عن كلِّ شيء، إلَّا عن تصفُّح جريدة "أنباء بيتسبرغ"، وهي إحدى أقدم الصُّحُف اليومية في المدينة، ينشرونها منذُ نحو أربعين عاماً، وكانت هي تقريباً تقرؤها منذُ الأزل. تلك الجريدة، ذات الاتِّجاه الجمهوري، تهتمُّ بكلِّ شيء: أحداث محلِّيَّة، سياسة وطنية، وشأن دُوَلِيّ. فهي عينُ إليزابيث على العالم، ذلك القريب والآخر البعيد. من تلك الصفحات قرأت أن في مدينتها نواة فيدرالية النِّقابات الأمريكية على وشك أن تُولَد على يد صمويل جومبرس، زعيم العُمَّال الحاسم، وعلمت منها عن زيارة مارك تواين الذي تأثَّر بالدخان والنيران الصادرة من المداخن العالية التي تشغل المدينة من بدايتها إلى نهايتها. الخلاصة، الأمر يستحقُّ أن تصرف ثلاثة سنتات، ليصبح العالم في جيبها.

إليزابيث قارئة نَهِمَة، اكتشفت في إحدى المكتبات القريبة من المنزل أعداداً قديمة من مجلَّة "أتلانتيك الشَّهريَّة"، داخل إحداها كانت قصَّة كتبتْها امرأة (ريبكا هاردينغ) قبل ولادة إليزابيث، تلك القصَّة: الحياة في الورش، التي وقعت بين يَدَيْها كأنها علامة من علامات القَدَر، قرأتها ثمَّ أعادت قراءتها مرَّات عديدة. والمدينة التي تتناولها تشبه كثيراً مدينتها بيتسبرغ.

> يوم تغطِّيه الغيوم: هل تعرفون ماذا يعني هذا في مدينة من الورش؟ تختفي السماء قبل الفجر، تصبح باهتة، مُسطَّحة وساكنة. الهواء سميك ورطب، مُشبَع بأنفاس جمع غفير من الآدميِّيْن، أشعر بالاختناق، أفتح النافذة، وبينما أنظر إلى الخارج، أنجح بالكاد في أن أرى، عبر الأمطار، المتجر الواقع أمامي، حيثُ تقف حشود الأيرلنديِّيْن السُّكارى وهم يدخِّنون دخان لينشبرغ(*) بالغليون. [...]. المَلْمَحُ المُميَّز لهذه المدينة هو الدخان، يتدفَّق قاتماً في عدسات لولبية من المداخن الضخمة للمصاهر، ويستقرُّ في آبار سوداء لزجة على الطُّرُقات المُوحِلَة، دخان فوق الموائد، دخان على المراكب الشاحبة، وعلى النهر الأصفر، دخان متماسك كأنه طبقة من السُّخَام الجيلاتيني، على واجهات المنازل، وعلى الأشجار القليلة الذابلة، وعلى وجوه المارَّة.

وكم من الرجال والنساء رأتْهم إليزابيث يمرُّون أسفل نافذتها، لا يختلفون مطلقاً عن تلك:

(*) Lynchburg: مدينة في فيرجينيا، الولايات المتَّحدة.

> وجوه ثمِلَة منحنية إلى الأرض، يُنعشها هنا وهناك الألم أو الخبث، الجِلْد والعضلات والشَّحْم لطَّخها الدخان والسماد، تنحني مرَّةً أخرى طَوَالَ الليل فوق أوانٍ من المعدن المغلي، وفي الصباح تدخل في جحور الثُّمَالَة والخزي، تتنفَّس من المولد حتَّى الممات هواءً مُشبَعاً بالضَّبَاب، والشَّحْم والسُّخَام، إهانة للنَّفْس والجسد.

تقرأ قصَّة هوغ وولف(*) المسكين، الذي يعمل في الأفران، وفي الخفاء يُنمِّي هوايته: من موادِّ نفايات الحديد ورغوته يصنع تماثيل لنساء قادرات على طَرْح الأسئلة والتأثير في قلب مَنْ ينظر إليها. قرأت إليزابيث وبكت هوغ سجين دوَّامة جحيم طبقته الاجتماعية. كانت موهبته تعمل فقط على إحياء مأساته، على إماتة كرامته كإنسان. لا أحد من المنتمين إلى الطبقات العليا يهتمُّ بأمثال هوغ، حتَّى عندما يُثبتون أنهم يمتلكون يداً موهوبة مثل يده. ترتعش إليزابيث عندما تقرأ كلمات كيربي، الشَّابِّ الغني، ابن أحد مُلَّاك الأفران العليا، حيثُ كان هوغ يعمل، وحيث استُنزف:

> أنا بريء من كلِّ المشكلات الاجتماعية: العبودية والتمييز، مشكلة البيض والسود. إن واجبي تجاه موظَّفيَّ له حَدٌّ واضح: لحظة القبض في يوم السبت مساء. بعيداً عن هذا، إذا قطعوا الحديد أو إذا قطع أحدهم عنق الآخر (الأمر الذي يعدُّه بعضُهم وسيلةً منتشرةً لتمضية الوقت) فهذه ليست مسؤوليَّتي.

(* Hug Wolfe

بالنسبة إلى إليزابيث ليس الأمر هكذا، ولن يصبح هكذا أبداً. أرادت أن تفعل شيئاً ما لتغيير ذلك المصير، فهي تعرف أن لديها موهبة ما، ولكنها لا تعرفها بالتحديد، ولكنها تعرف أن لها قيمة ما، قيمة كشخص وقيمة كامرأة، تريد فرصة لنفسها ولِمَنْ هنَّ مثلها، ولكنْ، لا أحد يبدو مستعداً لتقديمها، لا تريد أن تُلقي بنفسها بعيداً، ولا أن تنتهيَ نهاية هوغ، الذي مِن يأسه، بدلاً من أن ينزع نفسه بعيداً عن تلك النيران، اتَّخذ الطريق الخطأ، وقبِلَ النقودَ التي سرقتْها صديقته ديب له، وهكذا تحوَّل من شخص مُستغِلٍّ إلى لصٍّ، وانحدر إلى جحيمٍ أسوأ من الجحيم الأوَّل. تشعر إليزابيث بالفزع من أن تلقى مصير هوغ، ولكنْ هناك تطلُّعٌ ما، اشتياقٌ ما لا يدعها تستسلم أبداً، ولا حتَّى في أكثر اللحظات صعوبة. تشبه إليزابيث إحدى تلك الصور التي صَنَعَهَا هوغ من رغاوي الحديد. "لا تشعر بالجوع للطعام .. بل ربَّما لشيء ما يُحييها". كم مرَّةٍ ردَّدت بينها وبين نفسها تلك العبارة التي قرأتْها في قصَّة ريبيكا هاردينغ، إنها هي، فإليزابيث تشعر بالجوع لشيء ما يحثُّها على الحياة، ذلك الجوع يُقوِّيها، يدفعها لأن تبحث بإصرار عن طريقها، طريق يصعُب جدّاً العثور عليه في زمن، تلتهم فيه أمريكا العُمَّالَ دون أن تهتمَّ بأن تُميِّز حسب الجنس والسِّنِّ ولون الجِلْد. تستنفدهم كأنهم فحم أو بترول، وتنسى أنهم آدميون. بيتسبرغ، مدينة *الصلب*، تشارك بدورها: تطلق رائحة الكبريت الكريهة، وتطحن الفحم الذي يصبح بدوره طاقة، لِيَثنيَ ويُشكِّلَ حديدَ السكك الحديدية، وللمصانع التي تُنتج موادَّ استهلاكية على أوسع نطاق، وللشركات التي تخطِّط المحطَّات، وتبني جسوراً عملاقة، تنمو المدينة بلا مقياس، سوداء ومتَّسخة وكئيبة، بل قال أحدهم إنها المدينة الأمريكية الأسود والأقذر والأكثر كآبة. هناك بَحَثَتْ عائلة كوكران

عن البداية مرَّةً أخرى، من بين أبناء ماري جين الخمسة، استقرَّ ثلاثة، ومَنَحَ ذلك العائلةَ بعض التوازن، أصبح المنزل الآن أجمل، وفي حَيٍّ أرقى، أصبحت سنُّ إليزابيث تقريباً عشرين، ولم تحصل على أيِّ عمل ثابت، وليس لديها أيُّ نِيَّة للزواج، وبسبب تقاليد تلك الفترة، فقد وَصَلَتْ إلى سنٍّ، إذا تجاوزتْها، فستصبح اختيارات الزواج أقلَّ عملية، ولكنْ، ليس هذا ما يُقلِقها، تحاول اعتياد فكرة أن حقَّ السعادة ليس سوى كذبة كبرى، بل الكذبة أكبر إذا كان الأمر يتعلَّق بامرأة ليس لديها سوى بضعة دولارات في جيبها، استطاع أخواها، الأقلّ تعليماً منها، وهما في مثل سنِّها أن يُؤسِّسا نشاطاً يُزوِّد السَّيَّارات البخارية بقِطَع الغيار. إليزابيث، التي تلقَّت تعليماً أساسيّاً جيِّداً، ولديها ذخيرة من القراءات، ليس في سيرتها الذَّاتيَّة سوى قائمة بالأعمال الصغيرة: جليسة أطفال، عاملة نظافة، مدرِّسة خصوصية. وكان هذا شيئاً يُعذِّبها، تفكِّر فيه كلّ يوم. ترجو أن يحدث شيء ما يُثبت لها أن الاختلاف الجنسيَّ لا يهمُّ. ولكن تلك هي الأعوام التي تُضيِّعها هَبَاءً في الانتظار، مات الأب، فقدت العائلة كلَّ ثروتها، زواج أُمِّها الفاشل بفورد، الطلاق المهين، الانقطاع المخجل عن المدرسة لنقص الأموال، خلف كلِّ هذا يوجد دائماً رجلٌ يقرِّر مصير امرأة. ترغب في أن تكون حُرَّة، أن تُثبت للجميع بأن المرأة وحدها، بإمكانياتها الشَّخصيَّة يمكنها أن تنجح. مثلما فعلت بيسي برامبل(*)، التي تلتهم إليزابيث مقالاتها، وبيسي برامبل هو الاسم المستعار لإليزابيث ويلكنسون وايد(**)، ربمَّا الصَّحَفِيَّة الوحيدة في بيتسبرغ، وبالتأكيد الوحيدة في "أنباء بيتسبرغ"، الصحيفة اليومية التي

Bessie Bramble (*

Elizabeth Wilkinson Wade (**

تتعاون معها منذُ بضعة أعوام. فهي زوجة مصرفيٍّ، السَّيِّد تشارلز إيزيك وايد، لها ابنان، ويمكنها أن تعيش حياة مرفَّهة وهادئة، معتمدة على زوجها، إلَّا أنها لم تفعل هذا، قرَّرت إليزابيث ويلكنسون وايد أن تعمل: فهي مُدرِّسة، ومديرة مدرسة، وفي الوقت نفسه تكتب مقالات في الصُّحُف. بدأت بالمقالات الموسيقية، ولكن السخرية الحادَّة، والشجاعة والحساسية دفعتْها لتهتمَّ بالمشكلات الاجتماعية المحلِّيَّة والقومية: مرتَّب المرأة، عنف الأزواج، الرؤساء العاجزون، متسلِّحة بالسخرية ومعنى العدالة تحكي عن العالم النِّسائيِّ، عن الصعوبات والفرص التي يدَّخرها ذلك العالم الجديد للمرأة. تتردَّد بسهولة على المجال الذُّكُوريِّ، وتعيش حياتها تكتب، بل يبدو أنها كانت أوَّل امرأة شريكة في نادي صحافة بيتسبرغ، وأحياناً يكون دورها أن تكتب في صحيفة "الأنباء" مقالات تشرح للقُرَّاء من الرجال كم أن المجال النِّسائيَّ أكبر بكثير من محيط المنزل الذي تعيش فيه النساء كبنات، وزوجات أو أُمَّهات، بل إن بيسي هي الصوت الوحيد للنساء اللَّاتي بدأنَ يشعرنَ بالتعب من تلك التصنيفات التي تقيِّدهنَّ في أدوار داخل محيطهنَّ العائلي، فمن حقِّ الفتيات في أيِّ مكان اختيار أن يكون لهنَّ دَوْر في المجتمع، ومن بين الاحتمالات الكثيرة أيضاً ذلك الحقُّ الخاصُّ بالعثور على عمل بدلاً من العثور على زوج، ولهذا كانت مقالاتها تعجب إليزابيث الشَّابَّة كثيراً.

الآن نحن في يناير عام 1885، وكان على بيسي أن تتصرَّف حيال المقال الأخير لأحد المعلِّقين المهمِّين جدّاً لـ "الأنباء"، إيرازموس ويلسون(*). يكتب ويلسون عموداً في الجريدة تحت عنوان "ملحوظات هادئة"، يحقِّق نجاحاً كبيراً. وَصَلَ منذُ نحو ستَّة أشهر، وازدادت المبيعات بفضل مقالاته.

(*) Erasmus Wilson

غالباً ما يتجادل بيسي وويلسون، لأنها لا تعجبها أبداً رؤية العالم الفيكتوري التي يتبنَّاها إيرازموس.

تجلس بيسي أمام مكتبها، وتقرأ المقال الأخير لويلسون، الذي يُعبِّر عنه عنوانه بما يكفي: *محيط المرأة*. وهذا ما يمكن تعريفه بموضوعه الكلاسيكي، فمحيط المرأة هو المنزل. مكانها الصحيح، (ومن ثمَّ الوحيد) ويجب أن يكون جُلُّ ما تتطلَّع إليه هو أن تتجسَّد ملاكاً في المنزل، تقرأ بيسي، وتشعر بالإهانة، تضرب بيدها على صفحات "الأنباء"، لا يجب ملاحظة العالم النِّسائيِّ، والحُكْم عليه، من خلال نظرة زمن ولَّى بالفعل. فالنساءُ لهنَّ الحقُّ في الاشتراك بنشاط في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسِّياسيَّة للبلاد. يزيد ويلسون الجرعة بمقال آخر بعنوان "ما فائدة الفتيات؟". والإجابة بالنسبة إليه بسيطة: واجبهنَّ الوحيد هو الطَّهْي والكيِّ، الحفاظ على نظام المنزل، والعمل بائعاتٍ، أو سكرتيراتٍ. مقال أقلُّ ما يُقال عنه إنه بشعٌ، وقَسَمَ الموضوعُ القُرَّاءَ، ووَصَلَتْ إلى الجريدة خطاباتُ الآباء القلقين على مصير بناتهم، وخطابات الفتيات اللَّاتي تعانينَ القوانين العائلية القديمة. قرأت إليزابيث الشَّابَّة مقالات ويلسون ومقالات برامبل، إنه موضوع يمسُّ حياتها، غضبت من كلمات ويلسون، وأسعدتْها قراءة ما تكتبه برامبل، عندما قرأت كلمة "بشاعة" تُشير إلى البحث عن عمل، امتلأت عيناها بالدموع، وقرَّرت أن تكتب هي أيضاً للصحيفة، كانت تريد أن تشرح لويلسون كم هو مخطئ، وكم أن وجهة نظره بعيدة تماماً عن الواقع، ليس من البشاعة أن يطمح المرء إلى عمل وفي استقلال اقتصاديٍّ، ولكن البشاعة هي وضع النساء اللَّاتي لم يتمكَّنَّ من الحصول على التعليم، ويبحثنَ عن عمل، ولا يجدنَ سوى ألف عائق. إذا كانت المرأة شابَّة وفقيرة، فليس أمامها كثير من الآمال، وهذا تعرفه إليزابيث جيِّداً، لأنها تعيشه بنفسها، لا شيء سوى

الغضب والألم والمرارة، تلك هي حياتها، تبكي وتكتب دون أن تتوقَّف، لا يتعلَّق الأمر بضمان فرص العمل للشَّابَّات سليلات البرجوازية الأمريكية، بل يتعلَّق بالدفاع عن كرامة المرأة المنتمية إلى الطبقات الأقلِّ حظّاً. ووقَّعَتْ: فتاة وحيدة يتيمة Lonely Orphan Girl .

وَصَلَ الخطاب إلى مكتب ويلسون، كان قد تلقَّى عديداً من الخطابات، ولم تكن لديه الرغبة في قراءة هذا أيضاً، لم يكن يتوقَّع أنه سيُفجِّر كلَّ هذا الغضب لمجرَّد أنه يؤيِّد بعض المبادئ الواضحة من أخلاقيَّات الزمن الفيكتوري، أيضاً السَّيِّدة وايد (التي كانت بالنسبة إلى القُرَّاء بيسي برامبل) لم تستقبل المقالة بشكل جيِّد، يصعب لويلسون فَهْم كلِّ هذا الانفعال، الذي هو دليل على زمن على وشك التَّغيُّر، أمسك من جديد بالخطاب بين يَدَيْه، وألقى عليه بنظرة سريعة، بالنسبة إليه يمكنه أن يُلقَى به في سلَّة المهملات، ولكنْ هذه المرَّة شيءٌ ما منعه، وأقنعه أنه يجب أن يُطلع المديرَ الشَّابَّ جورج مادين عليه، ليقرِّرا معاً إن كانا سيُلقيانِ به. ربَّما كان السبب ذلك التوقيع غير المعتاد: فتاة وحيدة يتيمة. قرأ مادين الخطاب بحرص، نظر إليه ويلسون، وقال له: يبدو لي أن فيه بعض الأخطاء النَّحْوِيَّة ...

رفع مادين عينَيْه، وهمس: ولكنها موهوبة، ربَّما بعض الأخطاء الإملائية هنا وهناك، ولكنْ، فيما عدا ذلك، كلُّ شيء واضح، وجذَّاب، وإذا تركْنا هذا جانباً يا إيرازموس، فهو يردُّ نقطةً بنقطة على نظريَّتكَ، وبكلِّ الوقائع، كما يجب أن يفعل الصَّحَفِيُّ الماهر.

لم يجد ويلسون ما يقوله.

أصرَّ المدير: لا بدَّ أن نتَّصل بهذه الفتاة، ما اسمها؟

أجاب ويلسون: اقرأ التوقيع في النهاية.

- فتاة وحيدة يتيمة. ولكنْ، أيُّ نوع من الأسماء هذا؟ على كلِّ حال يعجبني. هذه الصَّبِيَّة الشبح تعجبني.

وقرَّرا إذاً أن ينشرا في "الأنباء"، ليس الخطاب، ولكن إعلاناً، وفي 17 يناير عام 1885 ظَهَرتِ الرسالة التالية:

الفتاة الوحيدة اليتيمة

إن كنتِ أنتِ كاتبة الرسالة الموقَّعة بالفتاة الوحيدة اليتيمة، فأرسلي إلى هذا المكتب اسمكِ وعنوانكِ ببساطةٍ ضماناً لحسن النِّيَّة، وسيتعلَّق الأمر بمكافأةٍ، وستتلقَّين المعلومات التي ترجينها.

كانت الافتراضات حول هُوِيَّة كاتبة الخطاب هي الأكثر تنوُّعاً، شكَّ مادين أن الأمر يتعلَّق بمراسل شابٍّ طموح، لا مبادئ له، وعلى الرغم من أن لديه فرصة عمل، فإنه تظاهر بكونه فتاة فقيرة ويتيمة، ولكنه غيَّر رأيه عندما قدَّم له ساعٍ في الصحيفة إليزابيث كوكراني، التي قرَّرت أن تضيف حرفَ "ي" أخيراً إلى لقبها، لتجعله أكثر أناقةً، وخصوصاً لتربطه باسم إحدى أهمِّ العائلات في أبولُّو، ترتدي الفتاة ثوباً حريريّاً أسود ونوعاً من القُبَّعات، ما زالت تلهث من الانفعال، ومن صعودها أربعة طوابق على قَدَمَيْها، اعترفت لمادين بابتسامة مُضيئة ومُلطَّفة: "كنتُ أتوقَّع أن أجد أمامي شخصاً في منتصف العُمُر بلحية"، وبالتفكير في أن المدير كان يتوقَّع رجلاً، ولكنه، بالطبع، فضَّل ألَّا يقول هذا، اقترح عليها مادين أن تكتب مقالاً فعليّاً، وأنها ستتلقَّى على هذا مقابلاً ماديّاً منتظماً، جحظت

عينا إليزابيث، هل سمعت جيِّداً؟ "مقابلاً مادِّيّاً"؟ الخلاصة هي أمام إمكانية عمل، وأيُّ عمل! كان الموضوع الذي اقترحه المدير هو "النساء ومجالاتهنَّ"، سيراجعه هو، وبالمعنى الدارج، سيُحرِّره هو شخصيّاً منظّماً الأخطاء الأسلوبية هنا وهناك، وأيّ أخطاء نَحْويَّة. وبعد نحو أسبوع، في 25 يناير 1885، ظَهَرَ المقال على صفحات "الأنباء" بعنوان: "*معضلة الفتيات*". وصرَّحت إليزابيث على الفور أن الفتيات اللَّاتي ترغب في التَّحدُّث عنهنَّ هنَّ الفتيات الـ "بدون". بدون موهبة محدَّدة، بدون جمال، بدون مال، فهنَّ الضحايا الحقيقيات والأساسيات للتمييز، أمَّا النساء الأخريات، الغنيات منهنَّ والمتعلِّمات، مَنْ يستطعنَ العناية بمظهرهنَّ، فعندما يتناقشنَ في التمييز النِّسائيِّ، لا يعرفنَ في الواقع عمَّ يتحدَّثنَ.

> أولئك اللواتي تَوَافَرَ لهنَّ كلُّ شيء في الحياة، هل يستطعن حقّاً أن يفهمنَ ماذا يعني أن تكون المرأة عاملة فقيرة، تعيش في حجرة أو اثنتَيْن فارغَتَيْن، بلا تدفئة، وبقليلٍ جدّاً من الطعام الذي تتخلَّى عنه لإطعام أطفالها؟ هل يعرفنَ ماذا يعني لتلك المرأة ألَّا يكون لديها أحد بجانبها، لتحكيَ له ما بها أو ليُواسيَها؟

لا، لا يعرفنَ، ولن يعرفنَ أنه بطريقة منتظَمة في حياة تلك المرأة، يظهر رجل ما

> يُخبرها ألَّا تخاف، وأنَّ ديونها ستُسدَّد، وأنها حتَّى لا تضطرَّ لتَرْك أبنائها فريسة للبرد والجوع، تتنازل وتبيع نفسها، هل يمكننا أن ندينها من أجل هذا؟ هل هذا الاختيار هو

مسؤوليَّتها بالفعل؟ وهل يحقُّ لامرأة تعيش في أمان، مع زوج يحبُّها، أن تُرمَى بأوَّل حجر(*)؟

بالنسبة إلى إليزابيث، بدلاً من الإدانة، لا بدَّ من أن نجتهد لنعثرَ على حلول ملموسة، تسمح للنساء الأكثر فقراً بالهروب من ذلك المصير، إنه أمر واقع أن يتمكَّن الصِّبْيةُ الأكثر ذكاءً من اتِّخاذ أيِّ الطُّرُق واستثمار مواهبهم.

إذا وضعنا صِبْيَة مكان الصبايا، يمكن القول دون مشكلات كبيرة: هيَّا، لنبدأ حيثُ نريد. إذا تحلَّوا بالطموح يمكنهم أن يكتسبوا اسماً ومنصباً في المجتمع، كثيرون هم الرجال الأثرياء والمُهمُّون الذين انطلقوا من "لا شيء"، ولكنْ، أين النساء من هذا؟ اترك الصَّبيَّ يبدأ ورشة صغيرة، سينطلق في طريقه، ويصبح شخصاً ما، الفتيات يتمتَّعنَ بدورهنَّ بالذكاء، ويتعلَّمنَ أسرع بكثير، لماذا إذاً لا يستطعنَ فعلَ الشيء ذاته؟

يكفي النظر حولنا، ففرص العمل موجودة، وليس فقط في المصانع.

إذا كانت كلُّ الأعمال التي نعدُّها مناسبة للنساء مشغولة بالفعل، لماذا لا نحاول أن نخترع لهنَّ أعمالاً جديدة؟ بدلاً من أن نضع الفتيات في المصانع، فلنسمح لهنَّ أن يصبحنَ موظَّفات، كبائعات أو سكرتيرات [...] فأصحاب المتاجر

---

*) 20 - التشبيه مقتبَس من حادثة في الإنجيل عندما أتى الناس بالمرأة الزانية للمسيح، والتي قال فيها العبارة الشهيرة "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر". إنجيل يُوحنَّا، إصحاح 8.

> يقولون إن أفضل الباعة هنَّ النساء. لماذا لا نُوظِّفهنَّ أيضاً كمندوباتٍ تجاريَّات؟ فهنَّ أيضاً لديهنَّ القدرة على التَّحدُّث، تماماً مثل الرجال، بل إن الرجال يؤكِّدون منذُ زمن أن النساء يتحدَّثنَ كثيراً وبسرعة أكبر منهم، وإذا كانت مواهبهنَّ تصلح في المنزل، فلنتخيَّلهنَّ خارجه، ستصبح حياتهنَّ رائعة أكثر، وصحَّتهنَّ أفضل، ومحافظهنَّ ممتلئة أكثر، بشرط ألَّا يستمرَّ أصحاب الأعمال، كما يفعلون الآن، بإعطائهنَّ نصف المرتَّب فقط، لأنهنَّ نساء. [...] أعرف فتاة كانت تعمل في مكان يعطي الذُّكُور خمسة دولارات في اليوم، صاحب العمل كان يقول إنه لا أحد أجاد العمل مثلها من قبلُ، من حيثُ العناية والسرعة. ولكنْ، لأنها فتاة كان يعطيها دولارَيْن فقط في الأسبوع، ولديكم الشجاعة لتسمية هذا بالمساواة!

ثمَّ تصل إلى الضربة القاضية إلى مَنْ يُسمِّينَ أنفسهنَّ النساء الجدد، اللَّاتي يستهلكنَ أنفسهنَّ في جدل مُنهِكٍ، وتبادُل مراسلات، أنهار من المقالات في مجلَّات يقرؤها دائماً الأشخاص أنفسهم. تُطلِق عليهم إليزابيث لعنتها الشَّخصيَّة: *اعملنَ أكثرَ، وتحدَّثنَ أقلَّ* *more work and less talk*. والوصفة بالنسبة إليها سهلة:

> لنأخذ صبايا موهوبات، نمنحهنَّ فرصة، لنساعدهنَّ على البداية في مكان ما، وإذا فعلْنا ذلك، فسنحصل على نتيجة تساوي أكثر بكثير من أعوام في الثرثرة، بدلاً من أن تجمعوا الشباب الأذكياء، اجمعوا الفتيات الماهرات بالفعل،

اِنْتَشِلُوْهُنَّ من المستنقعات، لنمنحهنَّ دفعة جيِّدة على سُلَّم الحياة، وسنحصد نجاحهنَّ في المقابل.

لَفَتَ المقال الموقَّع باسم الفتاة اليتيمة الانتباه على الفور، حتَّى إن مادين قرَّر أن يُعيد نَشْره في طبعة يوم الأحد. أدرك شيئاً: إليزابيث تفصل الأوراق، فهي تدافع عن النساء، ولكنها تنتقد النساء الجدد، وتردُّ بالتفصيل على مقالة ويلسون بحسٍّ جيِّد، وموضوعات ملموسة. تلك الفتاة هي المَنُّ النازل من السماء، ما يحتاج إليه ليُعيد انطلاق الصحيفة، فهي تتحدَّث مع قارئ جديد، ربَّما يكون أقلَّ ثقافة، ولكنه يمثِّل الأغلبية، إنها التعبير عن عالم يتغيَّر بسرعة، وطريقتها في حَكْيِ ذلك التغيير هو التجديد الذي لا يمكن لـ "الأنباء" أن تُضيِّعه. في مقالها الأوَّل تجلب إليزابيث إلى مركز المشهد الحياة الملموسة للغالبية العظمى من فتيات بيتسبرغ، لا تفعل ذلك بأن تُدِينَهُنَّ من أعلى، انطلاقاً من أخلاقيَّات العصر الفيكتوري، ولا من وجهة نظر البرجوازية المثقَّفة المستنيرة، لأنها هي نفسها واحدة منهنَّ، فهي أيضاً فتاة "بدون"، بدون آراء مسبَّقة، بدون نزعة ذُكُوريَّة، بدون دولار في جيبها. مادين أدرك أنه أمام فرصة، لا يجب إفلاتها، وطلب منها أن تفكِّر على الفور في مقال آخر، في النهاية يقرِّران "الطلاق" كموضوع لمقالها الثاني، كان شيئاً متوقَّعاً، فهو جرح آخر مفتوح. يقرأ مادين المقال، ويجده أقوى وأكثر استفزازاً من الأوَّل، ينشره متحمِّساً بعنوان *"زيجات عَبَثِيَّة"*.

في هذه المرَّة أيضاً تعالج إليزابيث الموضوع مباشرة: من العَبَث أن يتمَّ الزواج، لأن رجلاً يحتاج إلى شخص يهتمُّ بالمنزل وبالأطفال، ولأن امرأة ما، لا تجد عملاً، تحتاج إلى شخص يمكنه أن يعولها اقتصاديّاً،

وكيف أن البحث عن زوج بدلاً من البحث عن عمل هو أمر بالغ الضَّرَر بالنساء، بدلاً من أن تنطق الـ "نَعَم" الحَتْمِيَّة، يجب عليها أوَّلاً أن تعرف نفسها جيِّداً. الخلاصة أن الزواج لا يمكن أن يكون حلاًّ لمشكلة الاحتياج الاقتصادي للمرأة، وهي تعرف ذلك جيِّداً، فأُمُّها تزوَّجت فورد، لأنها كانت تظُنُّ أنها لن تتمكَّن من أن تعول أسرتها بمفردها، وانتهى الأمر كما انتهى، وأختها تزوَّجت في سنِّ السادسة عشرة للسبب نفسه، وطُلِّقَت بعد ذلك بفترة. يجب أن يعود الاستقلال الاقتصادي للفتيات كموضوعٍ رئيس.

أَغرَقَت الخطاباتُ الصَّحَيفةَ، سواءٌ من المؤيِّدين أو من الرافضين، وكان توقُّع مادين صائباً، إليزابيث هي ما يلزم الصحيفة الآن، قرَّر عندئذٍ أن يُعيِّنها، وستكون هي المرأة الأولى بوظيفة ثابتة في "النبأ": خمسة دولارات أسبوعيّاً، شيء أكثر بقليل من مرتَّب عاملة، وشعرت إليزابيث أنها في السماء السابعة، لكنْ، بقيت تفصيلة صغيرة يجب تنظيمها، كانت قواعد العمل الصَّحَفِيِّ لتلك الفترة تتطلَّب ألَّا تُوقِّع النساء بأسمائهنَّ الحقيقية، ولكنْ، باسمٍ مستعار، لا يمكن أن يليقَ توقيع "فتاة يتيمة" بمحرِّرة في "النبأ"، لا بدَّ إذاً العثور على اسم أكثر كفاءة، فكَّر مادين في الأمر، ولكنْ، لم يخطر شيء بباله، ثمَّ اقترح عليه أحد المحرِّرين القدامى: نيلِّي بلاي، مثل أُغنيَّة فوستر القديمة.

كرَّر مادين: نيلِّي بلاي .. نيلِّي بلاي .. قصير، مؤثِّر، ولا يمكن نسيانه.

وهكذا تدين إليزابيث باسمها الجديد لأُغنيَّة أمريكية قديمة، كَتَبَهَا سيتفن فوستر، أبو الموسيقى الشَّعبيَّة، وهو أيضاً من بيتسبرغ، مؤلِّف أُغنيَّاتٍ ما زالت تُغنَّى في أمريكا من ساحل إلى الآخر، مثل "أوه

سوزانا!"[*]. في العام نفسه الذي وُلدت فيه إليزابيث، مات فوستر وهو في سنِّ السابعة والثلاثين فقط، وفي جيبه أقلُّ من دولار. تقول أُغنيَّته: نيلِّي بلاي لها قلب دافئ مثل فنجان القهوة، وأكبر من البطاطا الحلوة في تينسي. قلب إليزابيث أيضاً كبير ودافئ. وفي سنِّ العشرين، لم تكن تعرف بعدُ إلى أين سيأخذها ذلك القلب، وذلك الاسم الجديد، لكنها تعرف شيئاً واحداً حقيقيّاً: هذه المرَّة تغيَّرت حياتها بالفعل.

(* Oh Susanna!

أنا فتاة أمريكية حُرَّة

تجلسين في ظلِّ البَلُّوطة الضخمة، مضت فترة طويلة، تنظرين حولكِ، أنتِ أيضاً مثل أبيكِ، تجلسين هناك لتحدِّقي في نقطة غير محدَّدة، خلفكِ منزلٌ كان يوماً منزلكِ، عدتِ لتأخذي ما يخصُّكِ، هكذا تكرِّرين لنفسكِ وأنتِ في رحلتكِ، تفكِّرين في السبب الذي لأجله رفعتِ قضية ضدَّ جاكسون هذا، غير الكفء، بتهمة أنه أدار بطريقة سيِّئة القليل الذي تركه لكِ أبوكِ. الآن لستِ مجرَّد صَبِيَّة صغيرة ترغب في أن تكون مدرِّسة. خلفكِ الآن منزل أحمر ضخم، وأمام عينَيْكِ امتداد لحقول العنبر الزرقاء، لقد أمسكتِ مستقبلكِ بيَدَيْكِ، ذلك الخطاب، وذلك الغضب، تلك الرغبة في التعويض غيَّرتْ حياتَكِ، بقوَّة الكلمات فقط استطعتِ أن تُحوِّلي مسار وجودكِ، أدهشتِ الجميع، لأنكِ رغبتِ في أن تقرِّري مصيركِ بنفسكِ، وفعلتِ ذلك بالفعل، لم تتراجعي، على الرغم من أن العالم كلَّه كان يصرخ بسبب الفضيحة. الآن لا بدَّ أن تفعلي ذلك مرَّةً أخرى. تنظرين إلى النهر وهو يجري، تسمعين صخب المياه، ويبدو لكِ بأنكِ تسمعين من جديد صوتكِ وأنتِ طفلة، بينما تلعبين وتُغنِّين بلا هموم. ترين مرَّةً أخرى كلَّ وجوه قبيلة كوكران - بلا حرف الـ "ي" الذي أضفتِهِ، لتمنحي الاسم نغمة ما. في ذلك العالم كان لكِ مكان. كان كلُّ شيء في مكانه. حتَّى الفرحة نفسها كان يبدو أن لها مكاناً، هناك أسفل شجرة البَلُّوط. فجأة فَقَدْتِ كلَّ شيء: أباكِ،

مكانكِ، وسعادتكِ. هِمْتِ مستمرَّةً في البحث دون أن تستمعي إلى النداءات التي كانت تهمس لكِ بالتَّوقُّف: مكان المرأة وسعادتها بجوار رجل ما. هكذا كانت تهمس لكِ.

قلتِ أنتِ: لا، مكاني هو حيثُ أقرِّر أنا أن أكون. سواءٌ أأعجبكم هذا أم لم يعجبكم، فأنا فتاة أمريكية حُرَّة. كَتَبْتِهِ أيضاً في أحد مقالاتكِ، ولكنْ، للحُرِّيَّة أيضاً ثِقْلها. عندما يقول ذلك الآخرون يبدو شيئاً تافهاً أو طريقة ما لإخافتكِ، لوَقْفكِ، أو لإقناعكِ بأن تسيري في الطريق الممهَّد لكِ بالفعل، ولكن الحقيقة أن ذلك الثِّقَل يمكنه أن يمنع عنكِ كلَّ حركة أخرى.

قالوا لكِ: لقد استطعتِ أن تستعيدي مكانتكِ، الآن عليكِ التَّوقُّف.

أجبتِ: ليست سوى الخطوة الأولى.

لا ينزع هذا الخوف عنكِ لتخطي خطوة أخرى، إلَّا أنكِ أتيتِ إلى شيري ران، لهذا السبب نهضتِ ووضعتِ يَدَكِ ببطء على البَلُّوطة، بَلُّوطتكِ.

الآن أخيراً اتَّضح كلُّ شيء: لتذهبْ إلى الجحيم، يا جاكسون! لقد عدتِ، لتستعيدي مرَّةً واحدة ونهائيَّة الشيء الوحيد الذي تملكينه منذُ الأزل: حياتكِ.

بيتسبرغ هي مدينة الصلب steel city، وربَّما لم يكن في الإمكان أن تكون ما هي عليه الآن إذا لم يحضر إلى هنا صبيٌّ عُمُرُهُ ثلاثة عشر

عاماً، هاجر من أسكتلندا مع أسرته في منتصف القرن التاسع عشر بحثاً عن الخبز والثروة. يعيش مع أسرته في أليغني(*)، الضاحية نفسها التي تعيش فيها إليزابيث، وهو، بالتأكيد، ذكي. بدأ العمل في ورشة بأجر أسبوعي قَدْره دولار وبعض السنتات. في سنِّ السابعة عشرة أصبح عامل تليغراف، ثمَّ كاتب تليغراف، وفي النهاية، أصبح سكرتير مدير الخطوط الحديدية في بنسلفانيا، أحد أقدم وأقوى شركات السكك الحديد في الولايات المتَّحدة، والنواة الأولى لأكبر خطوط حديدية في أمريكا الشَّماليَّة. ادَّخر الصَّبيُّ المَدعوُّ أندرو كارنيجي(**) بعض الدولارات، لم يرغب في أن يلعب دَوْر الصَّبيِّ المتجوِّل طَوَالَ حياته، هذا عملٌ لا يناسبه. هكذا في أحد الأيَّام، قرَّر أن يجرِّب عالم البورصة، وبفضل سلسلة من التَّوقُّعات المحظوظة، استطاع تقوية ثروته، لم يكن قد أكمل بعدُ أعوامه الثلاثين عندما أدرك شيئاً بسيطاً: جوع المستقبل المتزايد للصلب. تجنُّب الحرب الأهلية (كانت تكفيه لذلك بعض النقود البسيطة من ثروته)، واستثمر نقوده في مسبكٍ للمعادن، وهكذا، دون أن يتخيَّل ما سيحدث، منح دفعة جميلة لمستقبل بيتسبرغ، عاصمة الصلب. بعد ذلك بسبعة أعوام، عندما فَقَدَتْ إليزابيث وإخوتها كلَّ شيء، وكانوا يتجوَّلون من ضاحية لأخرى في المدينة، كان أندرو في إنجلترا يُبدي إعجابه باختراع المهندس هاري بيسمر، اختراع لم يكن يعني شيئاً لكثيرين، ولكنْ، يعني كثيراً لأندرو، كان الأمر يتعلَّق بفرن على شكل كُمَّثرى، يزيد من إنتاج الصلب بكمِّيَّة كبيرة، وأندرو يفكر بطريقة عظيمة: لماذا لا نستخدم هذه العملية المتطوِّرة في الولايات المتَّحدة؟

(*) Allegheny

(**) Andrew Carnegie

ولماذا لا نصنع نحن ذلك قبل أن يفكِّر فيه الآخرون؟ ثمَّ إذا كانت الحكومة تساعدكَ بالفعل وتُطبِّق ضرائب ثقيلة جدّاً على الصلب الأجنبي، فسيكون من الغباء الشديد ألَّا نُجرِّب هذا. وفعل ما قاله. وَصَلَ فرن بيسمر إلى بيتسبرغ في مصنعِ مَن كان صَبِيّاً فقيراً، ذلك الذي أصبح الآن أحد أكبر أثرياء أمريكا.

وهكذا تحدَّد مصير بيتسبرغ، وفي غضون بضعة أعوام، تحوَّلت إلى مدينة صناعية بكلِّ المقاييس. هنا لا يُنتَج الصلب فقط، ولكنْ، أيضاً الزجاج والحديد والبترول. كانت المداخن ترسم المناظر المدنية، وكانت المصانع الضخمة تبتلع كلَّ يوم، في كلِّ دورية، الصفوفَ الطويلة من العُمَّال والعاملات. وإليزابيث أيضاً كانت قد تغيَّرت في تلك الفترة، أصبح اسمها نيلِّي، فتاة ذات شَعْر قاتم، نحيفة، ذات وجه مضيء متغنِّج بعض الشيء، له سِحْر ما على الرجال. بالإضافة إلى ذلك كانت متحدِّثة رائعة، وكانت لديها الإجابة حاضرة. الخلاصة: سِحْرٌ ولسانٌ سريعٌ لَبِقٌ، وكلُّها خصائصُ، لو كانت لرجل، لفُتحت أمامه الأبواب نحو مستقبل ناجح، أمَّا بالنسبة إليها هي المرأة، فكان الأمر أكثر تعقيداً. ولكن نيلِّي لم تستسلم قطُّ، استطاعت أن تحصل على مساحة ما، وتسبَّبت في اندهاش كثيرين، وفهمت أن قوَّتها تكمن في تأثير المفاجأة، سيستحوذ عليها ذلك التأثير، فهي مقتنعة أن المرأة لديها بعض الأمل في أن يكون لها مستقبل في الصحافة، إذا استطاعت أن تُفاجِئ بمشروعاتها، ليس فقط القُرَّاء، ولكنْ، زملاءها (الصَّحَفِيِّيْن) على وجه الخصوص. في البداية، ترك مادين نفسه ليقتنع، مسحوراً بتلك الفتاة التي بدت كأنها قد هبطت عليه من كوكب آخر، ولكنْ، إذا عبَّر عديدٌ من القُرَّاء عن تقديرهم لمقالات نيلِّي، فإن عديداً منهم أيضاً عبَّروا عن

استيائهم، وبدأ مادين يخشى من العواقب، الاعتراضات المستمرَّة من المواطنين المشهورين، والتهديدات من قبل بعض المستثمرين بإلغاء عقود دعايتهم. وهكذا اضطرَّ المدير الشَّابُّ أن يعيدَها مرَّةً أخرى إلى المحيط الكلاسيكيِّ للصحافة النِّسائيَّة لذلك الزمن: صفحات الموضة والمجتمع. قاومت نيلِّي بعض الوقت، ثمَّ توسَّلت إليه أن يدعها تفعل شيئاً آخر، فهي لديها طاقة عظيمة، ولا تريد أن تستهلكها في الكتابة عن الأحذية والجواهر وتصفيفات الشَّعْر حسب آخر الصيحات. كانت لعبة شطرنج تتحرَّك فيها نيلِّي، ويجد مادين نفسه مُجبَراً على الحركة المقابلة، تخترق نيلِّي المتَّفق عليه، وتنهال خطابات الاعتراض أو الإعجاب، تحصد الصحيفة النجاح، ولكنهم في التحرير يفعلون المستحيل، ليعيدوا تلك اليتيمة العنيدة إلى مكانها، لكنها لديها موهبة المحقِّق، ولم يكن قد حَدَثَ أن رأى أحدٌ امرأةً تجري التحقيقات، فالمرأة تهتمُّ بصفحات العناية بالحدائق والموسيقى والتدبير المنزلي، وأن تقدِّم بمبالغة أنماطاً عجيبة من المواطنين، ولكن نيلِّي تجاوزت العشرين بقليل، والآن لا ترغب في أن تتوقَّف. يُدرِك مادين ذلك، ويقرِّر أن يخاطر من جديد، ويوافق على اقتراحها لعمل تحقيق حول حياة العمل النِّسائيِّ في بيتسبرغ. كثيرٌ من الفتيات، مثلها، تركوا الأرياف، ليعثروا على حظِّهم في المدينة، وفكرتها هي أن تقصَّ حياتهنَّ وأحلامهنَّ، آمالهنَّ وطموحاتهنَّ. في ذلك المقال، لا تستنكر بوضوح ظروف العمل، والبيئة الملوَّثة، والغرور الذُّكُوريّ لرؤساء الأقسام. لكن هذا المشهد يظهر جَلِيّاً بفضل وصفها الدقيق. كان يهمُّها، قبل كلِّ شيء، أن تحكي عن حياة أولئك النساء اللاَّتي يشبهنَ كثيراً الشَّابَّة إليزابيث كوكران. عديداتٌ منهنَّ تركنَ خلفهنَّ العالم الرِّيفيَّ، بقواعده القديمة، حَصَلْنَ على شكل من أشكال الاستقلال، ولكنْ،

مقابل ثمن باهظ، فهنَّ إماءُ رأس المال. سيقول موظَّفٌ شابٌّ ينتمي إلى الحزب الاشتراكي في ذلك الوقت: هنَّ ضحايا السلطة الذُّكُوريَّة. تقول إحدى ناشطات حقوق المرأة مثل أوليف شانشلور(*)، وسيقُلْن هنَّ: تحرَّرْنَا من القيود العائلية القديمة. ليس لديهنَّ شيء سوى تلك الحُرِّيَّة، يخرجنَ في المساء، ويتردَّدنَ على أماكن سيِّئة السُّمْعة، حيثُ يُنفقنَ أجورهنَّ الهزيلة في الشرب والتدخين، دون الخوف من الاختلاط بالرجال. بل، يرغبنَ أيضاً في أن يأخذوهنَّ معهم إلى الفراش. لسنَ سعيدات، هذا الاختيار غير مُتوقَّع، لا يملكنَ أيَّ شيء، سوى حياتهنَّ. تعترف واحدة منهن لنيلِّي:

> السُّمعة! لا أظنُّ أنني كان لدي شيءٌ منها قطُّ، لأهتمَّ بها. أعمل بكدٍّ كلَّ اليوم، أسبوع بعد الآخر، من أجل بؤس حقيقي. أذهب إلى المنزل في المساء، وقد متُّ من التعب، وأرغب في شيء جديد، سواء كان جيِّداً أو سيِّئاً، لا يهمُّ، المهمُّ هو أن يكسرَ روتين حياتي، ليس لديَّ أيُّ شيء مُسلٍّ، ولا أيُّ كتاب لأقرأه، لا أستطيع أن أذهب إلى أماكن التسلية، لأنني لا أملك الملابس ولا النقود، ولا أحد يهمُّه ما يمكن أن يحدث لي.

تلك كانت إذاً موهبة نيلِّي: أن تميز العبارة أو الدعابة التي يمكنها أن تحكي للقارىء ما يحدث في العالم حوله. ما الذي يمكن إضافته أكثر من ذلك، حول وضع عمل المرأة؟ وبالفعل ازدادت مبيعات الصحيفة. اعترض الصُّنَّاع، واعترض المواطنون المعروفون والمشهورون. لا أحد،

(*) Olive Chanchellor هي بطلة كتاب هنري جيمس Le bostoniane.

لا أحد على الإطلاق، من زملائها الذُّكُور دُفع إلى هناك، لا أحد كان لديه شجاعتها. تسبَّب ما حَدَثَ في زلزال. هنَّأها مادين، وزاد مرتَّبها، وحصلت على ترقية (كما قيل) بأن أصبحت المسؤولة عن صفحات العناية بالحدائق والصيحات. إنها طريقة ما لنزع ألغام بلاي، هكذا كما طلب منه كثيرون، حتَّى وإن تسبَّبت مقالاتها في زيادة كبيرة في المبيعات، وفي الوقت نفسه تعلَّمت نيلِّي شيئاً جديداً: من الصعب أن يتحدَّث الناس بحُرِّيَّة مع الصَّحَفِيِّيْن. بعضهم يرغب فقط أن يتباهى بنتائجه، وبعضهم الآخر يخشى عواقب تصريحاته. في المصنع، عندما تقدِّم نفسكَ كمحرِّر، إمَّا أنهم لن يسمحوا لكَ بالدخول أو أنهم سيجعلونكَ ترى فقط الأشياء التي تسير على ما يرام، لا بدَّ أن تكون واحداً منهم، لتفهم كيف تسير الأمور بالفعل. إنه شيء يشبه ما كان يحدث في صِغَرها عندما ترغب أن تعرف كيف هو أبوها في الحقيقة، إذ كانت تراقبه، في الخفاء، بينما كان يسند ذراعه إلى شجرة البَلُّوط، لينظر إلى الأفق، ظانّاً أنه بمفرده. لا بدَّ من التَّنكُّر:

> كثيراً ما تساءلتُ إذا كانت القصص التي تحكيها العاملات تتَّفق مع الواقع فيما يخصُّ مرتَّباتهنَّ المنخفضة والمعاملة القاسية التي تقاسين منها عادة. ليس هناك إلَّا وسيلة واحدة لاكتشاف الحقيقة، وقرَّرتُ أن أُجرِّبها: أن أصبح أنا نفسي واحدة منهنَّ.

وتشاورتُ مع إيرازموس ويلسون، الذي وُلِدتْ بينها وبينه صداقةٌ ستستمرُّ مدى الحياة، بعد عاصفة المواجهة الأولى، ومعه قرَّرتْ أن تحاول أن تقوم بتحقيقات وهي متنكِّرة، أن تنتحل شخصية، يمكن أن تسمح لها بأن

تُراقبَ الواقعَ بالنظر إليه من الداخل، أن تنظر إليه بلا مُرشِّحات (أو ستكون هي المُرشِّح)، وأن تقصَّ ما تراه للقُرَّاء. هذا، وإن لم تكن هي تعرفه بعد، سيكون أحد مفاتيح نجاحها. وهكذا، وقبل أن تعود إلى صفحات الأزياء الكريهة، تتنكَّر في زِيٍّ متدرِّبة في مصنع، يُنتج أسلاكاً من النحاس للبناء، أصبح الإعداد للتحقيق وهي متخفِّية جزءاً من المقال. بهذه الطريقة، يصبح الصَّحَفِيُّ نفسه، بفضل تنكُّره، جزءاً من الخبر. ليس هذا فقط، بل إن التَّصرُّف في ذلك الوَضْع يتطلَّب شجاعة ودماً بارداً، ذاكرة تصويرية ودعابة حاضرة. اكتشفت نيلِّي أنها تتميَّز بكلِّ تلك الخصائص. وبهذه الطريقة افتتحت أسلوباً سيصبح، بعد ذلك ببضعة أعوام، ممارسة مستمرَّة فيما يُطلَق عليه: الصحافة الجديدة New Journalism. فالقارئ سيتحمَّس للقصَّة، لأنه يكتشف قبلها تفاصيل التَّنكُّر، ثمَّ الخبرة التي يقوم بها المحرِّر في المكان، ثمَّ في النهاية نتيجة التحقيق. بالنسبة إلى مادين أعجبتْهُ كثيراً الطريقة التي نفَّذت بها نيلِّي تلك الفكرة الجديدة للصحافة، ولكنْ، على المدير الشَّابِّ أن يتعامل فيما بعد مع أصحاب الملاحق، والصناعات، مع مُلَّاك القطار، أي تلك المجموعة المهمَّة من الطبقة الحاكمة التي تدعم "النبأ"، والتي تثير تلك المقالات استياءها، إلَّا أنه وجد نفسه مُرغَماً مضطَرّاً لأن "يُرقِّي" إليزابيث إلى أن تمسك صفحات الأزياء. لا توافق نيلِّي على هذا، وتطلب منه بإصرار أن يعهد إليها بمقالات، لا تتعلَّق بمعارض الزهور. يَعِدُها مادين، المهتمُّ بها وبموهبتها، أن تحاور بعض الشَّخصيَّات التي ستمرُّ على المدينة، ولكن هذا لا يكفي، تريد نيلِّي عمودَها الخاصَّ: "إذا كنتُ موهوبة كما تقول، لماذا تدفعني لأكتبَ ذلك الهُرَاءَ؟"، وأمام هذا السؤال لا يستطيع مادين أن يعثر على إجابات واضحة، حتَّى قرَّر، ربَّما بسبب الإجهاد، أن يعهد إليها بعمود خاصٍّ بها، وكان هذا في سبتمير 1885.

كان العمود، كما خشي مادين، مصدراً للشكوى. قرَّرت نيلِّي أن تهتم بالنُّزُل التي تستضيف الفتيات العاملات في المصانع. تعلَّق الأمر بمؤسَّسات مسيحية، كان عليها العناية بأولئك الآنسات الوحيدات المغتربات، اللاَّتي خُلعنَ من عالمهنَّ، وقُذفنَ في ضواحي بيتسبرغ دون أيِّ روابط اجتماعية أو شعورية مع أيٍّ من السُّكَّان الآخرين في المدينة. كانوا يُزوِّدُوهنَّ بسَكَنٍ، هذا حقيقي، ولكن هذا لم يكن كافياً. أولئك الفتيات، إذا ارتبطنَ بأيِّ مبادرات تنظيمية، سيصبحنَ أقلَّ وَحدةً وأقلَّ تعاسة وأقلَّ تعرُّضاً لخطر استهلاك فتات الحُرِّيَّة ذاك في السُّكْر أو في أخذ رجل عرفنَهُ في المساء في البار إلى الفراش. اختتمت نيلِّي، بمرارة، إن تلك المؤسَّسات لا تقدِّم سوى قليل جدّاً لمَنْ هم أضعف، أو من الأفضل أن نقول لمَنْ هنَّ أضعف. وتفجَّرت قضية أخرى. وهذه المرَّة كان مَن اشتكى هي كلُّ الكنائس المسيحية في المدينة: ضربة أخرى لمادين. ليس هذا فقط، بل إن بيسي برامبل تجادلت بشكل أبوي مع نيلِّي، وكانت النتيجة هي تعليق العمود، مرَّةً أخرى، كأنها في لعبة "السُّلَّم والثعبان" الكريهة. تعود إليزابيث إلى خانة البداية: صفحات المجتمع والموضة. لا تستطيع ولا تريد أن تتعارك مع مادين وويلسون اللَّذيْن ارتبطت بهما بعلاقة صداقة وباحترام عميق، ولكنها تتمنَّى أن تعثر على مخرج، وبسرعة.

في خريف العام نفسه، يصل إلى بيتسبرغ وفد من الحكومة المكسيكية. تستقبلهم نيلِّي كجزءٍ من عملها في لجنة الاستقبال. على الرغم من أنها لا تتحدَّث الإسبانية وهم لا يتحدَّثون الإنجليزية، فإنهم يتفاهمون بسرعة، إلى حَدِّ أنهم أصرُّوا على أن تزور المكسيك، وأنهم سيكونون سعداء بأن تزور صَحَفِيَّة شابَّة بلادهم، وتحكي عنها، لم تدعهم

نيلّي يُكرِّرون الطَّلَبَ مرَّتَيْن، ربمَّا كان هذا هو المخرج الذي تبحث عنه، والخطَّة في غاية البساطة أن تحكي لقراء "النبأ" عن المكسيك، بلد قريب، ولكنْ، على الرغم من ذلك، مجهول تماماً.

تبدأ إليزابيث التَّخيُّل، لم تكن سنُّها سوى عشرين: أوَّل امرأة من جريدة في بيتسبرغ، وربمَّا أمريكا كلّها، تصبح مراسلة من المكسيك! تقترح المشروع على مادين، الذي يجيبها بالرَّفْض على الفور، لا يمكن لامرأة أن تسافر بمفردها، وبالأحرى إلى المكسيك، فهو بلد صديق، ولكنْ، متأخِّر، مليء بالفخاخ للمحرِّر الرجل، فلنا أن نتخيَّل موقف فتاة في العشرين. وكان هذا رأي إيرازموس أيضاً، رحلة من هذا النوع ستكون خطيرة جدّاً، ثمَّ لا يمكن التفكير في شيء كهذا بمفردها. إلَّا أن نيلّي لا تستسلم، تخطِّط وتُصرُّ، وتؤكِّد أمام الرَّفْض الألْف لمادين: يمكنني أن أسافر مع أُمِّي، والسَّفَر بالقطار لن يكون بهذا التعقيد. في الواقع أصبحت هناك شبكة سكَّة حديدية قوية، افتُتحت منذُ نحو عشرة أعوام، بفضلها يمكن تنفيذ رحلة تحقيق إلى ذلك البلد الخطير، ولكن الغريب، ولذلك سيهمُّ القُرَّاء بالتأكيد. "سأستقيل من الصحيفة، وادفع لي كصَحَفيَّة بالقطعة على المقالات التي سأرسلها لكَ، وهكذا ستوفِّر جزءاً كبيراً من النقود، ولكنْ، عليكَ أن تُموِّل رحلتي".

وأمام إصرار إليزابيث، وفكرة أنه بتلك الأخبار ستزيد مبيعات النسخ بالتأكيد، رضخ مادين في النهاية، وسمح لها بالذهاب. وهكذا في فبراير عام 1886، رحلت إليزابيث مع أُمِّها إلى مدينة المكسيك. كانت نبرة المراسلات هي نبرتها المعتادة. في المقال الأوَّل، الذي قصت فيه عن مراحل رحلتها بالقطار نحو الغرب، مزَّقت فيها حَرْفِيّاً أسطورة "تفوق الرجال"، وهي تشير بعناد:

> للمرَّة الأولى رأيت السَّيِّدات يحرثنَ الأرض بينما يجلس رجالهنَّ أو سادتهنَّ على الأسوار يدخِّنون، كم تمنَّيتُ أن أعطي دفعة جيِّدة لأزعزع هؤلاء الكسالى!

عند الوصول إلى إل باسو El Paso، المدينة الواقعة على الحدود المقسومة إلى نصفَينْ بين ريو جراندي، النصف الأمريكي (إل باسو)، والنصف المكسيكي (إل باسو الشَّماليَّة)، تشرح نيلِّي للقارئ أن رحلتها ليست مجرَّد رحلة في المكان، ولكنْ، أيضاً في الزمان:

> من المستحيل العثور على تناقض أكبر من الموجود بين هاتَينْ المدينتَينْ، والواحدة بجوار الأخرى. إل باسو مدينة متطوِّرة، حيوية، أمريكية، بينما إل باسو الشَّماليَّة تنتمي إلى زمن آخر، إلى العصور الوسطى.

في سطور قليلة جدّاً تُوضح نيلِّي المسافة الشاسعة بين هذَيْن العالَمَيْن المتجاورَيْن، إنها المسافة التي تفصل بين الولايات المتَّحدة وباقي القارَّة، المكسيك بلد معقَّد، جمهورية فيدرالية شابَّة، في توازُن غريب بين السلطة المركزية وسلطة الضواحي، بين العالم الرِّيفيِّ والواقع المدني، بين الحداثة والتَّأخُّر. في تلك الأعوام نفسها كانت الولايات المتَّحدة بطلة تحوُّل رائع: فقد طوَّروا بالفعل نظاماً كفؤاً للنَّقْل، سمح بنَقْل البضائع من بداية البلاد إلى آخرها، وذلك من خلال استخدام التَّيَّار الكهربائيِّ كمصدر للطاقة في محلِّ البخار، وأصبح لديها بناء صناعي قوي الآن. أدرك قارئ "النبأ"، البعيد آلاف الأميال ذلك على الفور. كانت القراءة تجعله يجلس بجوار نيلِّي، ربَّما يمدُّ إليها يده، ليساعدَها على النزول من القطار.

عندما وَصَلَتْ إلى العاصمة، اكتشفت إليزابيث أنها ليست المراسلة الصَّحَفِيَّة الوحيدة، إذ وَجَدَت هناك ستُّ مراسلاتٍ أخريات، وهذا خبر سيِّئ، ولكنْ، هناك خبر ممتاز، وهو أنْ لا واحدة منهنَّ قد خرجت من مدينة المكسيك، وهذا، بالتحديد، ما قرَّرت نيلِّي أن تفعله، أن تذهب لتزورَ البلدة من الداخل. عندما أخبرت أُمَّها بقرارها، كان أقلّ ما شعرت به هو الرعب: إن أطول رحلة قمنا بها كانت بين مقاطعة أرمسترونغ ومقاطعة آليغيني، لقد أقنعتِني بأن أصحبَكِ إلى المكسيك، أيُّ أُمٍّ أخرى عاقلة كانت ستعترض، الآن نحن هنا، امرأتان بمفردهما، لا تتحدَّثانِ الإسبانية، في عاصمة مجهولة، وقيل لي، إنها خطيرة جدّاً، الآن تريدين أيضاً أن تذهبي إلى المقاطعات الدَّاخليَّة؟! لا، وألف لا!

- ماما، إذا لم نتحرَّك، إذا لم نذهب لرؤية الأماكن والأشخاص بأعيننا، ستصبح تلك الرحلة بلا فائدة. هل تتذكَّرين النجاح الذي حصل عليه التحقيق حول عمل فتيات بيتسبرغ؟ لم أكن لأستطيع أن أفهم بالفعل ما يحدث في أيِّ مصنع إذا كنتُ قدَّمتُ نفسي ببساطة على أنني صَحَفِيَّة. على النهج نفسه، لا يمكننا أن نفهم ونحكي عن بلد مثل المكسيك إذا مكثْنا ثابتَتَيْن في العاصمة، مكتفيتَيْن بأن ننقل الأخبار القديمة، ماما، يجب أن تثقي بي، اسمعي، سنكون في أحسن حال، لسنا بحاجة إلى أحد، تذكَّري هذا دائماً.

أُخِذَ القرار: الوصول إلى القرى الدَّاخليَّة والمُدُن الرِّيفيَّة. أرادت إليزابيث أن تصل إلى هناك حيثُ لا امرأة، اندفعت إلى هناك بنفسها، أو الأفضل أن نقول، دون أن يكون هناك رجل يصحبها. السكك الحديدية، فخر المكسيك للرئيس بورفيريو دياز، الذي يحكم المكسيك

بطريق مباشر أو غير مباشر منذُ عام 1877، والذي كان في تلك اللحظة في منتصف فترته الرِّئاسيَّة الثانية، سمح لهما بأن تسافرا مجَّاناً في جميع أنحاء البلدة. وكان ما يهمُّ نيلِّي على وجه الخصوص هم الأشخاص. كَتَبَتْ في إحدى مقالاتها الأولى: "في المكسيك، مثلما الحال في بلاد أخرى، يُهرع السائح العادي نحو الكاتدرائيات والأماكن التَّاريخيَّة، غير واعٍ تماماً بالعنصر الأكثر أهمِّيَّة في ذلك البلد: شعبه". إن الأشخاص هم مَنْ يمنحون الحياة لمراسَلاتها. في الحادي والعشرين من العُمُر، ولم تخرج قطُّ من بيتسبرغ، إلَّا أنها تتحرَّك بلا خوف، وتجتهد في أن تتناقش في الرؤى المسبَّقة التي يمكن أن تكون لدى الأمريكيِّيْن بشأن هذا البلد. المكسيكيون يتمتَّعون بالنظافة والأمانة، يعملون بكَدٍّ، وإن كانوا بطيئين قليلاً. سيكونون خدَماً ممتازين للسَّيِّدات الغنيات في بيتسبرغ. تشعر نيلِّي بالتعاطف الشديد تجاه الاحترام الكبير الذي لدى الأبناء تجاه الوالدَيْن. تتأثَّر عندما تلاحظ العجلة التي بها يغطِّي العامل بنسيج أبيض جسداً فارقتْهُ الحياة لرفيقه الذي وافتْهُ المنيَّة منذُ بضع دقائق بسبب حادث عمل. كان المطبخ هو عدوَّها الكريه، طوَالَ فترة إقامتها لم تترك فرصة إلَّا واشتكت من الطعام، كرهت الروست البارد والفلفل الأحمر والفاصوليا المحفوظة.

تمرُّ الأيَّام، وتسجِّل نيلِّي كلَّ شيء. تحكي ماذا يفعل المكسيكيون في أثناء استراحة مسرحية، وتحاول أن تشرح لقُرَّاء "النبأ" ماذا تعني مصارعة الثيران، تتأمَّل كيف أن التدخين هو وسيلة تضييع الوقت التي تجمع بين الأغنياء والفقراء، لا تنقصها الملاحظات عن الألوان، والنساء اللَّاتي يعددنَ التورتيلّاز في الشارع، وكيف يَتْفُلنَ في أيديهنَّ لإعداد العجينة بطريقة أفضل - وهو الشيء الذي يمكن أن يتسبَّب في قُشَعْرِيْرَة أمريكي

عادي - شيء لا يضايق أحداً. وأخيراً تشير في أحد المقالات كيف أن الرجال المنتمين إلى طبقات اجتماعية أكثر فقراً يعتنون بنسائهم أكثر من أولئك المنتمين إلى طبقات أغنى.

ويا لَسعادة مادين! حيثُ إن مقالاتها أصبحت موعداً ثابتاً مع قارئ "النبأ"، الذي يتابع وهو جالس مرتاح على مقعده، مراحل رحلة نيلِّي. وكما وعدت عند وصولها، انتقلت نيلِّي من مدينة المكسيك، وزارت غوادالوبه، فيراكروز، جالابا(*). هنا نزلت من القطار مع أُمِّها، وطلبت من أحد العاملين المساعدة في نَقْل حقائبها، طلب منها الصَّبيُّ ما يعادل دولاراً، اعتبرت نيلِّي الطَّلَبَ مبالغاً فيه، وبدأت تتناقش معه، خفضت الأُمُّ عينَيْها في خجل شديد، تعلم جيِّداً كيف يفكِّر الناس حولهما: سيِّدتان في رحلة بلا مرافق ذكَر، وواحدة من الاثنَتَيْن في نحو العشرين، تناقش السِّعْر بحماس مع أحد العُمَّال. كانت أعينُ المسافرين الآخرين مليئة بالإحباط، تمسَّكت نيلِّي بأن الصَّبيَّ يرغب في استغلال الموقف، لأنهما سيِّدتان بمفردهما، فلم تتنازل، بل زادت من جرعة التَّعنُّت: "هذا يعني أننا سنأخذ الحقيبة إلى الفندق بمفردنا". تسير أُمُّها الطريق كلّه دون أن تجرؤ على النظر في أعين السَّيِّدات المكسيكيات اللواتي تقابلهنَّ طَوَالَ الطريق، أمَّا نيلِّي، فلا، فالاستقلال والكرامة لهما ثمن يستحقُّ الدَّفْع، وفي المقال الذي تحكي فيه هذا الحَدَثَ تكتب: "تحمَّلتُ نظراتهنَّ، وأثبتُّ لهنَّ أن أيَّ فتاة أمريكية حُرَّة (a free American girl) يمكنها أن تتصرَّف دون مساعدة أيِّ رجل". وتصادف أنه في شهر يونيو، تماماً عندما ظَهَرَ ذلك المقال على صفحات الجريدة اليومية في بيتسبرغ، كان على نيلِّي وأُمِّها أن يتركا البلاد بسرعة، فهي مطلوبة

(*)- Guadalupe, Veracrus, Jalapa.

من السلطات المكسيكية، لأنها أدانت، في مراسلة لها نُشرت في شهر مارس على صفحات "النبأ"، حالة صحَفِيٍّ انتهى أمره في السجن في أعقاب مقال نَقْدِيٍّ تجاه الحكومة. بهذه المناسبة أشارت إليزابيث كيف أن حُرِّيَّة الصحافة في المكسيك شكلية أكثر من كونها أساسية، وَصَلَ المقال بعد عدَّة أسابيع إلى مائدة أحد معاوني الرئيس دياز. الأمر يتعلَّق بضربة قاسية لواجهته الدُّوليَّة، والأدهى أنها موجَّهة إليه من صحيفة بلد صديق، ومن هنا جاءت ضرورة الهروب العاجل للمرأتَيْن نحو الوطن، بسبب مخاطرة القبض الوشيك عليهما. تجسِّد نيلِّي مرَّةً أخرى الدَّوْر الذي يناسبها جدّاً: المدافعة عن الضعفاء، الفتاة الأمريكية الحُرَّة التي وَصَلَ بها الأمر أن تشير بإصبع الاتِّهام إلى حكومة، لا تحترم حُرِّيَّة رأي مواطنيها. وعند هذا الحَدِّ أعدَّت هي وأُمُّها راعيتُها والرقيبة عليها - هكذا كما تعلَّم قُرَّاء "النبأ" أن يعرفوها - حقائبهما على الفور.

من حسن الحظِّ استطاعت إليزابيث أن تأخذ معها كلَّ ملاحظاتها الخاصَّة بالرحلة، وهذا ما سَمَحَ لها أن تستأنف حكاياتها عن المكسيك، بارتياح، من مقرِّ التحرير في بيتسبرغ. كانت الرزق اليوميَّ لمادين ولمبيعات الصحيفة. وتسبَّب هذا الظرف في أنها أصبحت أكثر تحرُّراً في نَقْدها.

> قضيتُ خمسة أشهر في المكسيك، لم أستطع التَّحقُّق شخصيّاً من كلِّ شيء، ولكنْ، ما لم أرَهَ، أفادتْني به مصادري الموثوق بها تماماً. إن الصحافة المكسيكية لا تنشر كلمة نَقْد واحدة ضدَّ الحكومة. [...] إن المكسيك جمهورية اسماً فقط، ولكنْ، في واقع الأمر، فهي من أسوأ الأنظمة المَلَكِيَّة.
>
> توقيع نيلِّي بلاي

لم يُصدِّق مادين عينَيْه. كشفت اليتيمة الصغيرة الوحيدة في أقلِّ

من عام أنها محرِّرة صحفية شجاعة ومقدامة وعنيدة. لم تتوقَّف أمام أيٍّ عائق، لم ترضَ بالموقع الذي عهدت به إليها إدارة الجريدة الذُّكُوريَّة. الآن سيكون من الصواب مكافأتها، ولكنْ، كيف؟ إن طاقة نيلِّي تتسبَّب في زعزعة استقرار "النبأ" بشدَّة، وليس لدى مادين القدرة على توجيهها إلى مشروع مهنيٍّ، يرضي طموحاتها. الرسالة واضحة: "أنا فتاة أمريكية حُرَّة". وعلى الجريدة أن تتعامل بناء على هذا الواقع. لا ينجح المدير في التفكير في أيِّ شيء أفضل من أن يعيد إليها مرَّةً أخرى صفحات الأزياء والمجتمع. ينظر إليه إيرازموس في عينَيْه، ويقول: سنفقدها هكذا.

يجيبه مادين: هنا ليس لدينا أيُّ شيء يمكنه أن يُبقيَها.

كالمعتاد، كان مادين على صواب. في صباح أحد الأيَّام من شهر مارس عام 1887، لم تظهر إليزابيث في الإدارة. سأل إيرازموس عنها الزملاء في قلق. ولكنْ، لم يرَها أحد، ثمَّ عثر فوق مكتبها على بطاقة:

عزيزي QO(*)، ذَهَبْتُ إلى نيويورك، ستسمعهم يتحدَّثون عنِّي. بلاي.

---

*) كان QO هو اختصار «الملاحظ الهادئ» Quiet Observer المأخوذ من اسم العمود (ملاحظات هادئةQuiet Observations) الذي كان يكتبه إيرازموس ويلسون في صحيفة «النبأ». (المؤلِّف).

نيويورك

مكتبة
t.me/soramnqraa

رأسكِ مستند إلى النافذة، وعيناكِ زائغتان تنظران إلى الخارج دون أن تتوقّفا على أيِّ شيء. كعادتكِ عندما تكون لديكِ أفكار كثيرة جدّاً متزاحمة في ذهنكِ، يضغط الماضي على مستقبلكِ دافعاً إيَّاه إلى هناك، مبعِداً إيَّاه حتَّى جَعَلَهُ صورة شاحبة، خلفَكِ عملٌ وُلِدَ بالمصادفة، عملٌ لا يناسب امرأة، تهاجمكِ الأصوات والنظرات القاسية، تسمعين من جديد المناقشات في المنزل، كم مرَّةً ردَّدتِ: سأذهب في طريقي. ثمَّ أخيراً رأيتِ هذا الطريق، طريقكِ، إنه التوقيع في نهاية تلك الأعمدة المكتوبة بالحبر، وأيُّ حبر؟! لقد جعلت بعض الشَّخصيَّات المهمَّة في بيتسبرغ تقفز من فوق مقاعدها. إنها متعة التجربة، ذلك الشعور بالرضا الذي كان يبدو حِكْراً فقط على زملائكِ الرجال. لقد أبطلتِ السِّحْرَ. أثبتِّ أن المرأة أيضاً يمكنها عمل هذا، وعمله جيِّداً. يا للقُشَعْرِيْرَة! إلَّا أنكِ بعد عامَيْن من العمل في جريدة "النبأ"، وبعد ذلك التحقيق في المكسيك، يرغبون في أن يعيدوكِ مرَّةً أخرى إلى القفص، مسؤولة عن صفحات المجتمع، قال المدير هذا، وهو يرى إزاحتكِ جانباً نوعاً من أنواع الترقية، قلتِ له دون أن تفكِّري مرَّتَيْن: لا، شكراً، أُفضِّل أن أبدأ من جديد في مدينة كبيرة. الآن تكرِّرين ذهنيّاً تلك العبارات كأنها تعويذة، تقريباً تردِّدينها بإيقاع القطار نفسه الذي يأخذكِ بعيداً، إنها طريقة تشجِّعين بها نفسكِ،

أجل، تحتاجين إلى شجاعة كبيرة، ولكنْ، لديكِ منها وفرة كبيرة، في الواقع هناك أشياء أسوأ جدّاً من الخوف: الندم، والغضب، الإهانة والمَلَل، إدراك أنكِ تجيدين شيئاً ما، ثمَّ لا تستطيعين أداءه، لأنكِ، لأنكِ ... لا تجدين سبباً لهذا. كونكِ امرأة لم يعد سبباً وجيهاً، إذاً من الأفضل أن تجمعي أشياءكِ، وتكتبي بطاقة تودِّعين فيها الزملاء، الذين ربَّما لن يفهموا ما تفعلينه، وأن ترحلي. هناك مدينة كبيرة تنتظركِ، مدينة مضطربة، مدينة بدأت تبرز أخيراً على السطح، مدينة، في عمقها، تُشبهكِ، فهي تطالب بمكانتها، مدينة لا تكفي العائلات القديمة فيها، بأنظمتها وطقوسها، أن تحوي حياتها. كنتِ تعرفين دائماً أن نيويورك هي مرساك الطَّبيعيّ. كم من الأشياء هناك لتحكيَها! تفكِّرين في ذلك، وترتعشين. هناك أيضاً تُكتَب الصُّحُف، وتُدار، وينظِّمها الرجال، ولكنْ، تعتقدين أنكِ أكثر مهارة من كثيرين بينهم. ربَّما لا يهمُّ هذا. في بيتسبرغ أثبتِّ بالفعل أن ذلك لا يهمُّ. تحدِّقين في قُبَّعةِ السَّيِّدة الجالسة أمامكِ، وتشحبين من فكرة أن تجدي نفسكِ في هذه المدينة الجديدة بلا عمل، ورعشة أخرى تعبر على ظَهْرِكِ، وجَّهَتْكِ صديقةٌ إلى منزل في 96 ويست ستريت، وبالنقود التي ادَّخرتِها يمكنكِ أن تعيشي في تلك الحجرة المفروشة أكثر من ثلاثة أشهر بقليل. كانت أُمُّكِ أيضاً بمفردها، وكان عليها أن تعولَكِ أنتِ وإخوتكِ. كم من المرَّات لم تفهمي معنى هذا! الآن تعرفين. لتلهيَ نفسكِ، أو لتشجِّعيها، تتخيَّلين مشروع عمل، مثلما تقرِّرين أن تُجري تحقيقاً ما، تجمعين المعلومات، تضعين خطَّة للعمل، وتحاولين أن تتوقَّعي التَّطوُّرات، لن تستطيعي أن تعرفي أيَّ منحًى ستأخذه قصَّتكِ حتَّى تضعي توقيعكِ على نهاية مقالتكِ.

1883، أربع سنوات قبل وصول نيلّي إلى نيويورك، جلس جوزيف بوليتزر أمام مكتبه، وكان قد انتهى للتّوّ من إملاء مقالته الافتتاحية، ليقدِّم الصحيفة الجديدة: "عالم نيويورك":

> في هذه المدينة الكبيرة، التي تتوسَّع باستمرار، موقعٌ لصحيفة، ليست زهيدة الثمن فقط، ولكنْ، أيضاً رائعة، ليست رائعة فقط، بل ذات انتشار واسع، وليست ذات انتشار واسع فقط، ولكنها ديمقراطية أصيلة أيضاً.

ونَزَعَ الجريدةَ من على شفة الإخفاق من جاي غولد(*)، مستثمرٌ ومقاولٌ متهوِّر، كوَّن ثروة بفضل بناء السكك الحديدية. كان غولد بطل ما يُطلَق عليه الجُمُعة السوداء، قبل ذلك بأربعة عشر عاماً، مع المليونير جيمس فيسك(**)، في عملية المضاربة التي تسبَّبت في إسقاط بورصة نيويورك. الآن، بالنسبة إلى غولد، أصبحت الجريدة التي تبلغ ديونها أربعين ألف دولار سنويًّا، مصدراً للخسائر، ولكنها بالنسبة إلى بوليتزر كانت فرصة عظيمة. يبلغ بوليتزر من العُمُر ستَّة وثلاثين عاماً، وهو الابن المدلَّل للصحافة في ما وراء المحيط. فقد فهم ما على وشك أن تصبحه أمريكا، ذلك البلد سريع التَّحوُّل، حيثُ كلُّ شيء يحدث بسرعة الثورة الصِّناعيَّة، دولة تُغيِّر جِلْدَها، مدينة، وخصوصاً نيويورك، تُغيِّر جِلْدَها. في عام 1850، كان عدد سُكَّانها خمسمئة ألف نسمة، وبعدها بعشرين عاماً سيصل عددهم إلى ثلاثة ملايين. آلاف مؤلَّفة من الرجال والنساء والأطفال يعبرون باب أمريكا، أبناء وأُمَّهات وآباء

---

*) Jay Gould

**) James Fisk

ودَّعوا أوروبا القديمة، وأتوا إلى هنا بحثاً عن عمل، عن فرصة تسمح لهم بتغيير حيواتهم. بوليتزر نفسه كان أحد هؤلاء: أكثر شجاعة وحظّاً ممَّا لا شكَّ فيه، في سنِّ السادسة عشرة ترك المجر وعائلة ميسورة الحال، ليلتحق بالفرقة الأجنبية. ولكنَّ مشكلة ما في تأشيرة الدخول أجبرتْهُ على التَّخلِّي عن الفكرة، سيكون هذا من حسن حظِّه، لأنه في فرنسا سيقابل جاسوسة أمريكية تُقنعه بأن يلتحق بالجيش الشَّماليِّ، ولكنْ، كانت حرب الانقسام بالفعل في آخرها، وانتهت الحرب، عمليّاً، في الفترة التي كان يُبحِر فيها نحو أمريكا، ويُنظِّم نفسه، عُيِّن مراسلاً لصحيفة لغتها ألمانية، كان يَقِظاً، يكتب جيِّداً، ويتمتَّع بقدرة خطابية متميِّزة. انتُخب نائب دولة ميسوري، وأكمل دراسته القانون، وفي سنِّ الحادية والثلاثين سيبدأ ذلك الذي سيكون نشاطه طَوَالَ حياته: صناعة الأخبار. كانت في سان لويس صحيفتان: "أنباء سان لويس"، و"البريد المسائي"، قرَّر بوليتزر أن يشتريَ الجريدَتَيْنْ، ويضمَّهما تحت إدارة واحدة: "سان لويس البريد-النبأ". كان جوزيف قد تراءى له قبل الجميع احتياج المجتمع الأمريكيِّ، حيثُ يرغب آلاف من الأشخاص في معرفة مزيدٍ عن العالم المحيط بهم، ولكنْ، بطريقة بسيطة وفورية، يرغبون في معرفة ماذا يحدث، ولكنهم يرغبون أيضاً في التفكير في أشياء أخرى، وأن يهربوا من حيواتهم اليومية المملوءة عادة بالتعب والقيود والروتين. الخلاصة أنهم يرغبون في الحصول على المعلومات، ويتسلّون من خلال القراءة، آلاف الأشخاص يرغبون في التعليق على الأحداث مع الزملاء والجيران والأصدقاء، والأكثر من ذلك، يرغبون في أن يشاركوا أكثر، أن تُسمَع أصواتهم، وأن يكون هناك مَنْ يرفع باسمهم المشكلات التي يرغبون في تقديمها إلى بلدية مدينتهم، إلى مجموعة

القائمين على الصناعة المَعنيِّينْ، إلى نائب البرلمان. يحتاجون إلى شخص يقولون له: أصبتَ قولاً، يا صديقي! ولكنه احتياج ظلَّ قيد التَّمنِّي حتَّى حوَّله أحدهم إلى طلب، مُقدِّماً المنتج الحقيقي الذي يمكن أن يرضيه، وكانت الصحيفة التي يفكِّر فيها بوليتزر هي، بالتحديد، ذلك المنتج، كانت وصفته بسيطة: معلومات وافية أكثر، ولكنْ، سهلة التناول بالنسبة إلى الجميع، بداية من ثمن الصحيفة، يمكن الاختيار بين أخبار الرياضة والحوادث السوداء والحياة الحديثة. في الصفحة الأولى تُنشَر التحقيقات الكبيرة ضدَّ الفساد أو السلطة، بمجرَّد أن تقلب الصفحة ستصطدم بكآبة الحوادث، تنتقل إلى صفحة جديدة، وكالسِّحْر تجد نفسكَ منغمساً في عالم المدينة الجميل. كان بوليتزر أستاذاً في إعداد القائمة اليومية، استعاد النزعة الباهرة للصحافة الشَّعبيَّة للثَّلاثينيَّات في القرن العشرين، ولكنه استخدمها كأداة للصراع المَدَنيِّ، وهكذا وُلِدَت ما أُطلق عليه "الحروب الصَّليبيَّة"، الأمر يتعلَّق بأحد أهمِّ التحديثات في العمل الصَّحَفِيِّ لبوليتزر التي كانت بلا شكٍّ أحد مفاتيح النجاح الجماهيري لصُحُفه، يختار موضوعاً شعبيّاً، موضوعاً يُلحُّ على القُرَّاء، ويُنظِّم حَمْلَةً صَحَفِيَّة، تتميَّز بالمقالات الكبيرة التي يعلنها بالخطِّ العريض في الصفحة الأولى. كان كابوس السِّياسيِّينْ والموظَّفين المحلِّيِّينْ والشركات الصغرى أو الكبرى أن يجد أحدهم نفسه موضوعاً لإحدى تلك الحملات الصَّليبيَّة. ولكنْ، كان القُرَّاء يتابعونها، وكانوا يتابعونها بهذه الطريقة: أتعرف ماذا يعني أن يظلَّ المرء في القطار، مَهروساً، أمامه اليوم كلّه، وغاضباً لأن الأشياء لا تسير كما يريد؟ ثمَّ تفقد نفسكَ بين صفحات "جريدتكَ". هناك أخيراً مَنْ يتحدَّث باسمكَ، ولا يخاف أن يصف الأشياء على حقيقتها، على الأقلِّ هكذا يبدو لكَ الأمر.

وبين تلك الصفحات التي تُلطِّخ أصابعكَ، لا تجد السياسة فقط، ولكنْ، أيضاً أخبار الحوادث والحياة الحديثة، والرياضة، مكان الجريمة موصوف بدقَّة شديدة، إلى حَدٍّ أن يبدو لكَ أنكَ انتقلتَ إلى هناك، أو تلك الحفلة الحَصْرِيَّة منقولة لكَ بالتفصيل. يتضاعف العمل في صحيفة يومية مُقدَّمة بهذه الطريقة. بوليتزر يكتب ويدير ويحرِّر الجريدة، ويوجِّه المجتمع. يصبح الصراع السِّياسيُّ مسألة شرف. وفي سان لويس تحتدُّ الأمور، ربَّما أكثر من اللَّازم، إلى حَدٍّ أن ذراعه اليمنى جون كوكريل(*)، والمدير المستقبلي لجريدة "نيويورك وورلد World"، ومدير تحرير الصحيفة، يطلق الرصاص من مسدَّسه على الخصم السِّياسيِّ لجريدة "النبأ"، ويقتله. نحن الآن في شهر أكتوبر عام 1882، للحادث صداه الكبير في المدينة، كان الضَّحيَّة ألونزو سلايباك(**) قد وصف الجريدة بأنها ورقة مبتزِّين، ورداً عليه ينشر كوكريل خطاباً، يَصِمُ فيه سلايباك بالجُبن في أثناء الحرب الأهلية. عندئذٍ يذهب سلايباك إلى الجريدة ليُصفِّي حساباته بنفسه. يدخل إلى مكتب كوكريل، ويواجهه، يحتدُّ الموقف، وتتصاعد الصرخات والسباب، ربَّما يهجم سلايباك على كوكريل، سيقول البعض بعد ذلك بأنه كان مسلَّحاً، ولكنْ، حول صحَّة هذا الأمر عديدٌ من الشكوك، إلَّا أن كوكريل لديه مسدَّس فوق مكتبه. يُمسكُهُ ويُطلق الرصاص، يسقط سلايباك صريعاً في الحال، كوكريل يستسلم على الفور للبوليس، ولكنْ، لا يُجَرَّم، بالنسبة إلى القاضي كان دفاعاً شَرْعِيّاً عن النَّفْس، يهزُّ الحادث بوليتزر، كان جوزيف يبدو قويّاً، ولكنه يُصاب بصدمة، عمِل أكثر من اللَّازم، توتَّر أكثر من اللَّازم،

(*) John Cockerill

(**) Alonzo Slayback

وأُرهِق أكثر من اللاَّزم. يقرِّر القيام برحلة إلى أوروبَا، فهو يحتاج إلى بعض الراحة. يصل إلى نيويورك، وبدلاً من أن يستأنف رحلته، يتوقَّف في المدينة، يعلم أن هناك صحيفة عليها كثير من الديون، هي "عالم نيويورك"، ويقع في حبِّها على الفور. ينتزع بوليتزر من غولد في مقابل ثلاثمئة وأربعين ألف دولار، تلك التَّرِكَة السَّيِّئة، بِنِيَّةِ تحويلها إلى عمل عظيم. كانت العناية هي نفسها التي أولاها إلى سان لويس، عناية الصحف المتميِّزة، وبثمن الصحف الزهيدة. ولم تلبث النتائج أن ظَهَرَتْ، كانت نسبة السَّحْب على الصحف كبيرة كلّ يوم، صفوف من المعلنين مستعدُّون لشراء مساحات إعلانية، ونالت الصحيفة احترام مدينة بأكملها، احتراماً مُستحقّاً بحروب صَحَفِيَّة، مثل تلك الخاصَّة بإلغاء رَسْم عبور جسر بروكلين، الذي تحقَّق في العام نفسه عندما كَشَفَ بوليتزر عن جريدة "نيويورك وورلد". كانت معركة ذات مغزًى رمزيٍّ قويٍّ جدّاً، بالإضافة إلى ما احتوت من نتائج عملية، كان ذلك هو جسر أهل نيويورك، ينتمي إلى كلِّ المواطنين، وعملت جريدة "نيويورك وورلد" على أن تكون المتحدِّث الرَّسميَّ لنَقْل ذلك الشعور بالانتماء، وكثَّفتْهُ في مفهوم شاعريٍّ جدّاً: لا يمكن أن يدفع المرءَ ليَعْبرَ رَدْهَة منزله، وفي النهاية فازت جريدة "World" بالمعركة؛ أُلغيت الرسوم.

كان الذراع اليمنى لبوليتزر ومدير تحرير "جريدة نيويورك العالمية" أو "نيويورك وورلد" هو من جديد جون كوكريل، الرجل العصبي، وهو، بالتحديد، مَنْ فكَّرت فيه نيلي بعد ذلك بأربعة أعوام، ببعض التَّوتُّر، في أثناء رحلتها في القطار المتَّجه إلى نيويورك، كانت جريدة "نيويورك وورلد" هي مكانها الطَّبيعيَّ، كانت تعلم هذا، وتشعر به، تحقيقات رائعة، وحوارات قوية، وصفحات ملوَّنة مثيرة للإعجاب، وأعمدة نَقْدِيَّة

لاذعة، جريدة تتحدَّث لجمهور جديد، أكثر شعبية بالتأكيد، وأكثر جوعاً للأخبار، تعلم نيلِّي أيضاً أنها تستطيع أن تستثمر موهبتها في تلك الصحيفة، تعلم أن هذه، وهذه فقط، هي صحيفتها. تحدِّق في أحد التفاصيل الصغيرة للعربة، وتتخيَّل بالفعل نفسها في مكاتب التحرير. ترى نفسها وهي تدخل وتصافح الزملاء، تحصل على مكتب، وتُعيد قراءة مقال الصفحة الأولى بتوقيع نيلِّي بلاي، اسمها الجديد، اسم امرأة. هذه الفكرة تقطع فجأة أحلام اليقظة، فعليها التَّغلُّب على شكوك مَنْ يصعب عليه تخيُّل أن تكون فتاةٌ قادرةً على أن تعمل محرِّرة.

بمجرَّد أن وَصَلَتْ، تأكَّدت نيلِّي أن مخاوفها كانت في محلِّها، علمت بأن الجريدة نظَّمت رحلةً ببالون الهواء الساخن من سان لويس إلى نيويورك، المدينتَيْن اللَّتَيْن تنتمي إليهما صحيفتا بوليتزر، وكانت تبحث عن مُراسلين مستعدِّين للاشتراك في تلك الرحلة، لتحكي عنها لقُرَّاء "نيويورك وورلد". أخذت ورقة وقلماً، وكتبت إلى كوكريل، مرشِّحة نفسها للمشروع. ومثل كلِّ شابٍّ محترم، شرحت مَنْ تكون، وماذا فعلت حتَّى تلك اللحظة، وماذا تتمنَّى أن تفعل في المستقبل، عرضت خبرتها في "النبأ"، والتحقيقات التي أرعبت أعيان بيتسبرغ، والتحقيق الصَّحَفِيَّ في المكسيك. الخلاصة، أنها عرضت كلَّ الأوراق المطلوبة لترشيح نفسها لهذا العمل. في واقع الأمر، إذا كانت هذه السيرة الذَّاتيَّة لرجل، لأصبحت فرصُه ممتازة، أمَّا هي، فلا. أجابها المدير إن الأمر يتعلَّق بأمر شديد الخطورة على امرأة. سبب بسيط، وقاسٍ، لا يمكن تجاوزه. يمكن أن يكون لديكِ شجاعة وموهبة فيَّاضة، يمكنكِ أن تكوني شخصية واثقة بنفسها، ولكنْ، لا يمكنكِ إنكار ما أنتِ عليه: أنكِ امرأة. وإذا كنتِ امرأة، فلا يمكنكِ أن تكوني مراسلاً صَحَفِيّاً، وخصوصاً في الـ "وورلِد". الخلاصة

أنه لم يكن هناك كثيرٌ لمناقشته مع كوكريل. دَفَعَ هذا الرَّفْض نيلِّي لأن تتقدَّم للعمل لدى صُحُف أخرى، كانت بالنسبة إليها أقلّ جاذبية: مثل "هيرالد نيويورك" و"نيويورك سن". ولكنْ، كانت الإجابة دائماً واحدة: ليست مهنة مناسبة للنساء. لا يمكن تخيُّل أن يُعهَدَ بالتحقيقات المثيرة – stunt بلغة صَحَافِيِّي تلك الفترة - إلى فتاة في الثالثة والعشرين، وَصَلَتْ إلى نيويورك فقط منذُ أسابيع قليلة. لم تيأسْ نيلِّي، قرَّرتْ أن تُحوِّل بحثها عن العمل إلى تحقيق صَحَفِيٍّ. أشعلت صفحات "النبأ" في بيتسبرغ وهي تحكي عن التَّأخُّر واللَّا مبالاة، بل أيضاً الاحتقار في طريقة معاملة المديرين والصَّحَفِيِّيْن لزميلة، ينقصها في نظرهم شيء واحد: أنها ليست رجلاً. يُعرف اسمها بقَدْرٍ ما، ولكنْ، بلا نتائج ملموسة. يمرُّ الوقت، ولا تستدعيها أيُّ جريدة، وتنتهي أيضاً مُدَّخراتها. وفي الأُفق احتمال مهين أن تعود إلى بيتسبرغ، مستسلمةً، لتعتني بصفحات الأزياء والمجتمع للصحيفة القديمة. الخلاصة أنها أمام الهزيمة المُنكَرَة. وكما يحدث دائماً في لحظات اليأس، عندئذٍ عثرت نيلِّي على الشجاعة تلوي يدها، وتجرؤ على حركة لم يفكِّر فيها أحد في عصرها. قرَّرت أن تذهب بنفسها إلى مقرِّ ال "وورلد"، وأن تنتظر أمام مكتب كوكريل. كانت فكرتها ألَّا تخرج من هناك حتَّى يوافق المدير على لقائها، وأن يستمع إلى بعض اقتراحاتها عن التحقيقات الصَّحَفِيَّة. لم تكن تنقصها الجسارة، ولكنْ، كان ينقصها النقود اللَّازمة لتأخذ الترام وتصل إلى مقرِّ الصحيفة، اقترضتْها من صاحبة المنزل، وتقدَّمت إلى مقرِّ التحرير. في البداية شرحوا لها أن المدير لا يستقبل أحداً بلا موعد، ولكنها لم تتزحزح: "سأجلس هنا وأنتظر، عندما ينتهي من الجميع، يمكن أن يجد لي بعض الدقائق، أنا متأكِّدة من ذلك". في الواقع كان كوكريل يشعر بالفضول نحو تلك

الفتاة القادمة من الضواحي، تلك المُراسلة المبتدئة العنيدة. لذلك، في النهاية، يقرِّر أن يقابلها. دعوا نيلّي تدخل إلى مكتبه، نظرت حولها بخوف، أمسكت بعصبية بقفَّازَيْها بين يَدَيْها، وجلست، ظلَّ كوكريل واقفاً، وأخذ يُحدِّق فيها من أعلى إلى أسفل. تخشى نيلّي ألا تستطيع التَّفوُّه بكلمة، تطلب بعض الماء لتكسب وقتاً. بطبيعة الحال لا تعرف من أين تبدأ. يملأ لها كوكريل كوب الماء، وينتظر وهو يحدِّق فيها دون أن يفعل أيَّ شيء ليُطمئِنَها. ربَّما لأنه هو نفسه يشعر بالضيق من ذلك الموقف غير المعتاد: المبادرة والمواجهة هي في العادة خصائص أساسية لمراسل رجل، وليست لامرأة. وهناك في تلك اللحظات تلعب نيلّي أهم مباراة في حياتها. وضعت القفَّازَيْن، نزعت القُبَّعة، وبهدوء شديد جدّاً، شرحت لكوكريل ما بذهنها: تحقيقَين صَحَفِيَّيْن مثيرَيْن بالفعل، الأوَّل يتطلَّب ذهابها إلى أوروبا، والعودة إلى نيويورك بالسفينة في الدرجة الثالثة متنكِّرة بزِيٍّ مهاجرة. النِّيَّة واضحة: أن تروي قصَّة عبور آلاف الأشخاص الذين يصلون إلى المدينة من القارَّة القديمة. كم من القُرَّاء سيرون أنفسهم في تلك القصَّة! يفكِّر كوكريل بينما يستمع إليها باهتمام. تُثبت الفتاة أنها تعرف الجريدة جيِّداً، وأنها قد كوَّنت ثروة بسبب العدد الكبير من المهاجرين الذين يقرؤونها. يفكِّر بغضب في معاونيه: لم يخطر ببال أحدهم فكرة مجنونة كهذه، ولكنْ، في الوقت نفسه مثيرة جدّاً صَحَفِيّاً. تحظى نيلّي هكذا بتعاطفه، وتحصل على أوَّل نقطة في صالحها، وبعد أن طلبت مزيداً من المياه، تسأل كوكريل إذا كان سمع عن جزيرة بلاكويل. "بالتأكيد، يا صغيرة! هناك مستشفى الأمراض العقلية النِّسائيّ لنيويورك".

"بالضبط"، تجيبه نيلّي، وتعرض له تحقيقها المثير الثاني: أن تتظاهر

بأنها مريضة شابَّة، وتدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية، وتمكث هناك عشرة أيَّام، تسجل خلالها كلَّ شيء، لتخرج بعد ذلك، وتحكي كل ما يحدث بالفعل في جزيرة بلاكويل، دون الحاجة للمرور من خلال مُرشِّحات الممرِّضين والطاقم الطِّبيِّ، الخلاصة أن يرى الأمريكي المتوسِّط معنى أن ينتهي أمره في مثل هذا الجحيم. يفقد كوكريل، حَرْفِيّاً، الكلمات. إذا كان أحد المراسلين لديه قد عرض عليه التَّحقيقَيْن لن يفكِّر مرَّتَيْن. ولكنْ، أن يعهد لصَبِيَّة في الثالثة والعشرين بتحقيقَيْن صعبَيْن هكذا يبدو له أمراً خطيراً. من ناحية أخرى، لدى نيلِّي بالفعل عامَيْن من الخبرة في العمل لدى "النبأ". وبمجرَّد رؤيتها تبدو أنها على دراية تامَّة بمهنتها. والأهمُّ أن كوكريل معجَب، إلى حَدِّ الجنون، بالفكرَتَيْن. يجدهما مناسبَتَيْن لـ "وورلد" ولقُرَّائها، ولا يرغب أن تنتهيَ على صفحات المعارضة. يمكن الفتاة أن تتحدَّث عنهما مع مديري تحرير صحف يومية أخرى، وربَّما هم، من أجل إحراج صحيفته، يوافقون على ذلك. ثمَّ إذا عرف بوليتزر بهذه المقابلة، فإنه لن يسامح كوكريل أبداً.

قرَّر إذاً أن يجنيَ بعض الوقت. خَتَمَ اللقاء بأن عرض على نيلِّي خمسة وعشرين دولاراً لتتفرغَ. لا بأس إذا لم يكن عليها عمل شيء. أو الأفضل أن نقول إنها كانت بغرض ألَّا تعرض مشروعَيْها على آخرين، يخبرها بأنه يريد أن يفكِّر في الأمر، وأن يتحدَّث في ذلك مع رئيسه، لا يمكن أن يبدأ أيٌّ من التَّحقيقَيْن دون أن يوافق هو، ويتَّفقان على لقاء آخر في غضون بضعة أيَّام. تأخذ نيلِّي قُبَّعتها، وترتدي سترتها، وتخرج من الـ "وورلد" متألِّقة. وفي اليوم التالي، تقابل صاحبة المنزل مصادفة، فتُعيد إليها المبلغ الذي اقترضتْهُ، وتترك تأكيداً واثقاً: عزيزتي، لن يُزحزحني أحد، على الإطلاق، من نيويورك، ولا من الـ "وورلد".

جزيرة بلاكويل: مراسلة في الجحيم

قلبكِ يدقُّ بشدَّة. أنتِ بمفردكِ في الظلام، مستلقية على فراش في غرفة بسيطة في فندق ***Second Avenue****. ليس لديكِ أيُّ فكرة عمَّا يمكن أن يحدث في الساعات القادمة، في الأيَّام القادمة، الشيء الوحيد المؤكَّد هو البقاء مستيقظة، لأن البقاء مستيقظة جزء من الخطَّة، ليس شيئاً في غاية الصعوبة، فالإثارة قد أبعدت التعب في زاوية خفية من وعيكِ. رأسكِ مستند إلى الوسادة، عيناكِ تحدِّقان في السقف الشاحب بسبب دخان لمبة الكيروسين، تشعرين بالخوف أن يُخفق كلَّ شيء، يشلُّكِ الخوف، يمنعكِ من التَّصرُّف، إذا لم تُوقفِيه، الخوف خادع، له وجهُ مَن خدعكِ، مَنْ لم يحرِّك قطُّ إصبعاً لنجدتكِ، مَنْ لم يساعدكِ، وتجاهلَكِ. ولكنكِ تتَّحدينه، واضعةً فوق المائدة رهاناً أعلى دائماً، في هذه المرَّة لم تصدِّقي أنهم سيتركونكِ تفعلين هذا، ولكنهم خضعوا، والآن لا بدَّ أن تنجحي في ذلك بمفردكِ، كما فعلتِ دائماً في المرَّات السابقة، ولكنكِ لا تشعرين بالخوف فقط، بل بالفضول أيضاً، حيثُ ترغبين في معرفة إلى أين يمكن أن يصل حَدُّ الخداع، لا بدَّ أن يصدِّقوا أنكِ مجنونة، وذلك جزء من الخطَّة، ولكنْ، أنتِ في أعماقكِ معتادة ذلك، لقد اعتبروكِ مجنونة عندما قلتِ: لستُ بحاجة إلى رجل، اعتبروكِ مجنونة عندما كَتَبْتِ خطابكِ الأوَّل إلى "النبأ"، ثمَّ أيضاً عندما قرَّرتِ الذهاب إلى المكسيك، اعتبروكِ مجنونة عندما*

كَسَرْتِ قواعدهم، وكانوا يرغبون في تقييدكِ في تحرير الأزياء والمجتمع. اعتبروكِ مجنونة عندما قرؤوا بطاقتكِ التي قلتِ لهم فيها: أنا ذاهبة إلى نيويورك، اعتبروكِ مجنونة هنا أيضاً، في هذه المدينة المليئة بالتَّحوُّلات عندما تقدَّمتِ إلى الـ "وورلد" مراسلةً صَحَفِيَّة، الآن لا بدَّ أن تَصِلي إلى نهاية تلك القصَّة، لا بدَّ أن تحكي واقعاً يرفض عديدٌ رؤيته، لتفعلي ذلك الآن، مرَّةً أخرى، لا بدَّ أن يصدِّقوا أنكِ مجنونة؛ إن الخداع هو مفتاح الوصول إلى الحقيقة. تكرِّرين العبارة، مرَّةً ومرَّات، كأنها صلاة، وَصْفة سِحْرِيَّة، طريقة تُقنعين بها نفسكِ، قبل الجميع، يدقُّ قلبكِ بقوَّة، وهذا هو اللغز الذي لن يستطيع أيُّ خداع كَشْفَهُ.

منذُ عام 1828 تستضيف جزيرة بلاكويل، الملكية العمومية لنيويورك، مؤسَّسات إصلاحية، مستشفيات، ومستشفى الأمراض العقلية للسَّيِّدات في المدينة، منذُ فترة كان بوليتزر وكوكريل يخطِّطان لتحقيقٍ ما عن الجزيرة، فقد وَصَلَتْ إلى الجريدة خطابات وإشارات حول أوضاع المستشفى، ولكنْ، كان كلُّ شيء يلفُّهُ الغموض. وكما يحدث عادة في إدارات التحرير، هناك مشروعات متكرِّرة مُقدَّرٌ لها أن تُؤجَّل باستمرار، لأنها لم تَبدُ قطُّ عاجلةً بالدرجة الكافية بالنسبة إلى الأخبار التي تُمليها الأحداث الجارية. كانت بلاكويل، بلا شكٍّ، واحدة من تلك المشروعات، أضاف اقتحامُ إليزابيث مكتبَ كوكريل، واستعدادُها الصريح بأن تتسلَّل إلى المستشفى، بُعْداً جديداً للمسألة، إذ أدرك الاثنان أن التحقيق يمكن أن ينتهيَ على صفحات جريدة منافسة، لا بدَّ إذاً من اتِّخاذ قرار ما.

كون الأشياء على تلك الجزيرة لا تسير على ما يرام، هو شيء غاية في الوضوح، أدرك ذلك قبلها بأربعين عاماً تشارلز ديكنز في يوميات رحلته إلى أمريكا، حيثُ دوَّن:

> لا يمكنني أن أقول إنني ارتحتُ كثيراً في تلك الزيارة؛ كان لا بدَّ أن يكون الحُرَّاس أكثر نظافة وتنظيماً، ولم أرَ أيّاً من تلك الأشياء التي أعجبتْني في تلك الجهات. كلُّ شيء يبدو شاحباً، يشبه مستشفى أمراض عقلية، مؤلماً إلى حَدٍّ كبير [...] في قاعة الطعام العارية، الشاحبة، حيثُ لا تجد العين أيَّ شيء جيِّد تستريح عليه سوى الجدران الخالية، كان هناك امرأة محبوسة، فاجَؤُوها وهي تحاول أن تنتحر حسب ما قالوا لي، من المؤكَّد أن المَلَل غير المحتمل من هذا الوجود، هو أبرز ما دعَّم لديها الرغبة في أن تُنهيَ حياتها.

استدعى كوكريل نيلِّي من جديد في الثاني والعشرين من سبتمبر عام 1887، يمكنها أن تبدأ تحقيقها عن قريب، لم تستطع نيلِّي أن تتماسك، فقد فازت بالرهان، لم تعرف كيف سينتهي هذا الأمر، ولكنها كانت واثقة بأمر واحد، لن تعود منهزمة إلى بيتسبرغ وذيلها بين قَدَمَيْها، ولكنها الآن بدأت الجزء الأكثر إلزاماً، وأهمُّ شيء الخطَّة، ذَهَبَتْ نيلِّي لنُزُل خاصٍّ بالعاملات، وطَلَبَتْ مكاناً لتنام، هناك لا بدَّ أن يعتقدوا أنها مجنونة، ويستدعوا الشرطة، يأخذوها أمام القاضي الذي بدوره لا بدَّ أن يأمر بفَحْصها في المستشفى. عندئذٍ لا بدَّ أن تتجاوز فَحْص الأطبَّاء، وإذا اقتنعوا بخَلَل في قواها العقلية، عندئذٍ ستُفتَح لها أبواب مؤسَّسة الأمراض النَّفْسيَّة، ستمكث في بلاكويل عشرة أيَّام، ستراقب

وتُدوِّن كلَّ شيء، في النهاية سترسل الصحيفة أحدهم، ليأخذها إلى منزلها، وحتَّى لا تحدث مشكلات قانونية لـ "ورلد"، ستطلب التغطية أيضاً من مكتب المدَّعي العامِّ في نيويورك.

بمجرَّد أن عادت إلى المنزل، بحثت إليزابيث عن أكثر ثوب مناسب، لا بدَّ أن يكون قديم قليلاً، لم تحتجْ وقتاً كثيراً لتعثرَ على واحد في خزانتها، ثمَّ بدأت تتدرَّب أمام المرآة، تجحظ عينَيْها، تنظر بهما شَزْراً، لتحدِّق بعد ذلك بثبات في نقطة غير محدَّدة. ثمَّ تدرَّبتْ بعد ذلك على أن تُكوِّن في لحظة عبارات لا معنى لها، استمرَّت في هذا طَوَالَ اليوم حتَّى المساء، حتَّى أخلدت إلى النوم من الإنهاك. في صباح اليوم التالي، بعد فطورٍ عامر، وحمَّام مهدِّئٍ للأعصاب، تعلم أنها في الأيَّام التالية لن تسمح لنفسها بهذا، قبل أن تخرج من المنزل، تنظر إلى نفسها في المرآة للمرَّة الأخيرة. تُحيِّي إليزابيث نيلِّي بلاي، وتُرحِّب بنيلِّي براون، من الآن فصاعداً، سيكون ذلك اسمها، تسرع لتصل إلى بنسيون خيري للسَّيِّدات العاملات في 84 ساكند أفينو، تتردَّد لبضع ثوانٍ، ثمَّ بعد ذلك تدقُّ الجرس بحسم، ومن هذه اللحظة، لم يعد بالإمكان التراجع.

قالت لها السَّيِّدة ستانارد، وكيلة المسؤولة عن الاستقبال: ليس لدينا حجرات مفردة، لا بدَّ أن تتقاسمي الغرفة مع فتاة أخرى، بالنسبة إلى نيلِّي هذا هو الحلُّ الأمثل، سيكون لديها شخص لتعذِّبه في أثناء الليل، لتُقنِعَ الجميع بأنها مجنونة، تتجوَّلان في الحجرات المشتركة، وتُطلِعها المرأة على طُرُق تناوُل الغداء والعشاء.

- الحساب 30 سنتاً في اليوم، أمَّا الأكل، فتدفعينه منفصلاً. في جيب نيلِّي خمسة وسبعون سنتاً، إذاً ما يكفيها لتقضيَ ليلة واحدة

هنا، يدقُ جرس ما، ليُعلِنَ أنها ساعة العشاء. تسألها السَّيِّدة ستانارد إذا كانت ترغب في تناوُل العشاء، وتصحبها إلى الصالة، حيثُ تُستقبَل الضيفات الأخريات. يدخلنَ إلى الصالة، وتعثر نيلِّي من جديد على البؤس نفسه الذي وصفتْهُ في تحقيقها عن المنازل الخيرية في بيتسبرغ، وتفكِّر: "النزعة الخيرية لتلك المنازل فيها شيء كالكذب، فدَوْرها هو أن تمنح الطمأنينة لتلك السَّيِّدات اللَّاتي يجب أن يتركنَ خلفهنَّ عالمهنَّ ومشاعرهنَّ، من أجل الحصول على العمل، إلَّا أنها لا تمنح سوى بيئات عارية، حزينة". مع أنه كان يكفي وجود بعض التفاصيل الصغيرة لعمل ذلك، مفرش ملوَّن، بعض الورود. أي إنه كان يكفي وجود بيئة أكثر ترحيباً لمنح معنى حقيقي وملموس لكلمة "خيرية" التي تقبع على لافتات مؤسَّسات الإقامة تلك.

بانتهاء العشاء، انتقلت نيلِّي إلى مكان آخر، حيثُ التقت ببعض النساء، أغلبهنَّ يمكثنَ هناك دون فعل شيء، نظرت حولها، وقرَّرت أنها اللحظة المناسبة لأن تبدأ. أدركت السَّيِّدة ستانارد شيئاً ما، وسألتْها إذا كان كلُّ شيء على ما يرام، انتهزت نيلِّي الفرصة فوراً، وبدأت تهمس بأنها قلقة جدّاً: كلُّ النساء ينظرنَ إليَّ بطريقة مريبة، إنهنَّ مجنونات، جميعهنَّ مصابات بالجنون!

أجابتْها السَّيِّدة ستانارد: لا ينبغي أن تقلقي؛ إنهنَّ سيِّدات فاضلات، عاملات مخلصات، ولن يتسبَّبْنَ في الأذى لأيِّ شخص.

- لا أُصدِّق هذا، في المدينة كثيرٌ من جرائم القتل، ولا تنجح الشرطة مطلقاً في القبض على القَتَلَة.

أكَّدت هي. ومع مرور الساعات أظهرت نيلِّي باستمرار علامات أكثر

وضوحاً على توتُّرها، بدأت السَّيِّدات الأخريات بالشعور بالضِّيق، وأظهرنَ خوفهنَّ، رفضت رفيقة الحجرة أن تنام معها، إلَّا امرأة واحدة، بدلاً من أن تبتعد عنها، اقتربتْ منها، أخذتْ تُواسيها وتُهدِّئها وهي تُربِّت على شَعْرها بلطف، ولكن نيلِّي ازدادت عصبية، شعرت النساء بالخوف، ومن التعب انسحبنَ نحو غرفهنَّ، استمرَّ الوضع هكذا طَوَالَ الليل. في الصباح الباكر، طلبت السَّيِّدة ستانارد من نيلِّي أن تترك البنسيون، وإلَّا فستضطرّ لاستدعاء الشرطة، أصرَّت نيلِّي على أنها لا تريد أن تتحرَّك من هنا، وكرَّرت بإصرار أن إحداهنَّ قد سرقت حقيبتها. بعد ذلك بقليل وَصَلَ معاونو الشرطة، توسَّلت إليهما السَّيِّدة ستانارد أن يأخذوها بعيداً بلا فضائح، لأن هذا يمكنه أن يؤثِّر سلبيّاً في سمعة المؤسَّسة الخيرية إذا رأى الجيران إحدى الفتيات تخرج مقبوضاً عليها، في النهاية نجحوا في الوصول إلى اتِّفاق، واستطاعت المرأة أن تصطحب نيلِّي إلى مقرِّ الشرطة، ويتبعها عن قريب المعاونون.

وفي مركز الشرطة، وبعد الأسئلة المعتادة، توجَّهت المجموعة إلى مكتب القاضي، حيثُ أعادوا استجواب نيلِّي مرَّةً أخرى، يتعلَّق الأمر بالعقبة الحقيقية الأولى التي عليها اجتيازها.

- اقتربي إلى هنا، يا عزيزتي، أبعدي هذا الحجاب عن وجهكِ. أتعرفين أنه لو كانت ملكة إنجلترا هنا، لكان عليها أن تفعل الشيء نفسه؟

شعر القاضي على الفور بالتعاطف مع تلك الفتاة المرتبكة التي ذكَّرتْهُ بأُخته، حاول المستحيل ليُبعدها عن الطريق المؤدِّي مباشرة لجهنَّم جزيرة بلاكويل، تقول إليزابيث الآن إن اسمها نيلِّي مورينو، لتبدو

أكثر ارتباكاً وغربة، أُعجبت من قلبها بذلك الرجل الذي أظهر كثيراً من الرحمة لفتاة مجهولة، ولكنْ، ترتعش من فكرة أن تُرسَلَ مرَّةً أخرى إلى المنزل. من جهته، حاول القاضي بكلِّ قواه أن يُنقذَها، طلب من السَّيِّدة المسؤولة عن البنسيون الخيري أن تأخذها معها من جديد، مرعوبة من فكرة أن كلَّ شيء يمكنه أن ينتهيَ بهذا الشكل، بدأت إليزابيث الشكوى من ذلك المكان، وانتهزت السَّيِّدة ستانارد الفرصة، لتشرح للقاضي أن الحلَّ الذي يقترحه عليها حلٌّ مستحيلٌ، لأن النساء الأخريات يشعرنَ بالفزع، وسيتركنَ النُّزُل، إذا رأينَها تعود مرَّةً أخرى، تنفَّست إليزابيث ملء رئَتَيْها، خلف قناع الاضطراب الذي تضعه. لكن القاضي لا ييأس، يطلب أن تُستدعَى صحافة نيويورك، أراد أن يُكتَب مقال عن الفتاة غريبة الأطوار، على أمل أن يتعرَّف عليها أحد أقاربها، ويُنقذها من جزيرة بلاكويل، بل يأمر أيضاً، قبل أيِّ قرار فيما يخصُّ مصيرها، أن يفحَصَها طبيب، حيثُ شكَّ أن حالة الارتباك تلك ربَّما تكون بسبب تناوُل بعض العقاقير. الآن ازداد توتُّر إليزابيث إلى أقصى حَدٍّ، ستفكِّر فيما بعد في الأطبَّاء، ولكنْ، هناك ما تخافه أكثر الآن، المراسلون الصَّحَفِيُّون. ماذا إذا تعرَّف عليها أحدهم؟ سيتسبَّب ذلك في تدمير مستقبلها الصَّحَفِيِّ التَّنكُّرِيِّ منذُ ولادته. إلَّا أن نيلِّي لا تتمتَّع في نيويورك بالشهرة نفسها التي تمتَّعت بها في بيتسبرغ. ليس هذا فحسب. استطاع تمثيلها الرائع أن يخدع الصَّحَفِيِّيْن أيضاً. في الواقع، في الأيَّام التالية تحوَّلت حالة الفتاة الفاقدة الذاكرة إلى حديث الصحافة اليومية: مَنْ تلك الفتاة المجنونة؟

تساءلت جريدة "صن" بينما تحدَّثت جريدة "النيويورك تايمز" عن "اللقيطة التي تكرِّر باستمرار "لا أتذكَّر". كان الكشف الطِّبِّيُّ الأوَّل ناجحاً. نظر الطبيب إلى اللسان، سمع النبض، فحص القلب، ثمَّ فحص

باهتمام حَدَقَتَيْهَا، لاحظ أنهما متَّسعتان، واستنتج من ذلك أن الفتاة قد تناولت عقاراً منبِّهاً. في الحقيقة كانت إليزابيث قصيرة النظر بعض الشيء، ولكن هذه التفصيلة الخاصَّة بالحَدَقَتَيْن كانت كافية للوصول إلى تشخيص تناوُل عقاقير، لم يَسَعِ القاضي إلَّا أن يأمر بإدخالها إلى مستشفى بيلفيو، ليس جهنَّمَ نفسَها، ولكنْ، غرفةَ الاستقبال المؤدِّية لها.

تنقل سيارةُ إسعافٍ إليزابيث إلى مستشفى بيلفيو، تعرف أنها على الطريق الصحيح الذي سيقودها إلى مصحَّة الأمراض العقلية، ولكنْ، تعرف أيضاً أنها هنا ستقابل أطبَّاء أكثر خبرة، ويمكنهم كَشْفها. اصطحبها طبيب الإسعاف إلى القسم المخصَّص للأمراض العقلية. هناك تقابلت نيلِّي مع مريضات أخريات منتظرات. إحداهنَّ تُدعى آن ينفيل، ولم يكن لديها أيُّ اضطراب عقلي، ولكنها كانت هناك لأنها تعبت من ضغط العمل، ولأنها لم تستطع دَفْع ثمن الاستشفاء في دار للرعاية، نقلوها إلى بيلفيو. وعندما أجابت بشكل مضطرب عن أسئلة الأطبَّاء، وضعوها في قسم الأمراض النَّفْسيَّة. أصبح مصيرها الآن محدَّداً إلى الأبد، سينقلونها إلى الجزيرة، ومن هناك لن تعود أبداً إلى الوراء. فكَّرت إليزابيث:

> كانت آن، بلا شكَّ، تحتاج إلى رعاية طبِّيَّة، وكانت مهزوزة نَفْسيّاً، ولكنْ، رأت نساء كثيرات من طبقات اجتماعية دنيا، لم تُوضَع حالة صحَّتهنَّ العقلية موضع نقاش، على الرغم من أنهنَّ كنَّ أقلَّ وعياً منها.

بكلمات قليلة، يمكن أن يذهب المرء إلى مصحَّة الأمراض العقلية

لسلسلة من الظروف لا تعتمد، بالضرورة، على الصِّحَّة النَّفْسيَّة، ولكنْ، على وجود شخص مستعدٍّ للعناية به. لم تكن أجواء بيلفيو مُرحِّبة. اشتكت نيلِّي من البرد، فأعطتها إحدى الممرِّضات شالاً متآكلاً من الحشرات، وشرحت لها: لا يمكن توقُّع ما هو أكثر من ذلك من مؤسَّسة خيرية. جلس رجل يتضح أنه الطبيب بجوار إليزابيث، وبدأ في مراقبتها، ثمَّ سألها أين تعيش؟ وإذا كانت تعمل؟ ردَّت على ما سَبَقَ بينما الطبيب يفحص لسانها، ويسمع نبضها، وفي النهاية سألها إذا كانت تمارس الدعارة لتعيش، كان يمكنُها بكلِّ سرور أن تجيبه عن هذا السؤال بصفعة على وجهه، ولكنْ، كان هدفها الذهاب إلى المصحَّة، وليس إلى السجن، لذلك تظاهرت بأنها لم تفهم. وبعد عددٍ من أسئلة أخرى، توجَّه الطبيب إلى الممرِّضة، ونقل إليها تشخيصه: حالة خَرَف، حالة يأس، لا بدَّ أن تذهب إلى مكان، يمكن فيه أن تتلقَّى الرعاية والمساعدة التي تحتاج إليها. بدأت إليزابيث تفكِّر في أن مواهبها في التمثيل أعظم من إمكانيات أولئك الأطبَّاء. قضت في المستشفى عطلة نهاية الأسبوع. في صباح يوم الاثنَيْن، بعد زيارة أخرى من رئيس قسم الأمراض العقلية، قرَّروا نَقْلها إلى جزيرة بلاكويل. أخذوا إليزابيث ومعها ميس نيفيل، وتيلي مايارد، وامرأتَيْن أُخريَيْن، عرفتْهما في بيلفيو، بعربة نَقْل إلى الميناء، حيثُ الإبحار المباشر نحو الجزيرة.

كنتُ أنا ورفيقاتي في مقصورة قذرة، جالسات على أريكة صغيرة، كانت النوافذ مغلَقة، ولا يمكن تنفُّس الهواء بسبب الرائحة الكريهة، كان في نهاية المقصورة فراشٌ حالته سيِّئة إلى حَدٍّ أنني اضطررتُ أن أسدَّ أنفي عندما عبرتُ بجواره، فوقه كانت ترقد امرأة مريضة، تُكمل المجموعة امرأة مُسنَّة،

ترتدي قُبَّعة كبيرة، ومعها سلَّة داخلها قِطَع من الخبز وبواقي لحم. يحرس الباب حارسان، قاسيان وضخمان، يتفلان التبغ على الأرض [...]. أحد هذَيْن الكائنين المرعبَيْن يبدو أنه يعتمد بقَدْر كبير من قواه على نظرته إلى مرضى المصحَّة. في الواقع إذا أرادت إحدانا الاقتراب من النافذة الكبيرة للنظر خارجاً، لم يكن يقول "امكثي في مكانكِ"، ولكنْ، كان يُوقِفها بنظرة واحدة مرعبة.

بمجرَّد الوصول إلى الجزيرة، نزلت المجموعة من القارب الصغير. رأت إليزابيث المبنى عن بُعد، وفكَّرت برِضاً أنها ستكون بعد قليل داخل ذلك المكان الذي تتخيَّله منذُ أيَّام، إلَّا أنها لم تستطع أن تشعر بالفرح. وكيف لها هذا؟ فهي واثقة أنها ستعود إلى المنزل بعد بضعة أيَّام، بينما تعرف أن رفيقات الرحلة محكوم عليهنَّ بالبقاء هناك إلى الأبد. هذه الفكرة كانت تُشعِرُها بألم شديد. في ذلك الوقت، كانت سيَّارة إسعاف تنتظر على رصيف الميناء، لتقودهنَّ إلى داخل مصحَّة الأمراض النَّفْسيَّة.

كان في استقبال النساء الأربع في المدخل حارس وممرِّضة، اصطحباهم إلى حجرة، وبعض المريضات جلسنَ على الأرائك. لا بدَّ أن طبيباً سيفحصهنَّ بعد قليل، بالنسبة إلى إليزابيث هذا هو الكشف الرابع. تيلي مايارد، المصابة بشكلٍ من أشكال الخرف، تحاول أن تشرح حالتها، فهي تعاني فقط ضعفَ أعصابها قليلاً. تطلب أن تخضع على الفور لاختبار لتأكيد ما تقوله. ينظر إليها الطبيب، يبتسم ويُومِئ، ثمَّ يدعوها للجلوس من جديد، لقد تحدَّد بالفعل مصير المرأة الشَّابَّة. ثمَّ

يأتي دَوْر رفيقة أخرى من رفيقات إليزابيث، لويس سكانز، فتاة ألمانية، تتحدَّ ث قليلاً جدّاً من الإنجليزية. يطلب الطبيب من ممرِّضة أن تُترجِم، ولكنها ترفض، فهي تشعر بالخجل من جنسيَّتها الأصلية. استحالة التواصل مصيرية في حالة مدام سكانز. كلُّ تلك الأحداث تؤكِّد شيئاً واحداً لنيلِّي: مسموحٌ لقاتلٍ أن يُثبت براءته، أمَّا إذا وَصَلَتِ امرأة إلى بلاكويل، فلا سبيل لإثبات صحَّتها العقلية. إلَّا أن حبل المشنقة سيكون أفضل من حياة كاملة خلف تلك الجدران. عندما جاء دَوْر إليزابيث، طرح عليها الطبيب، بشرود، الأسئلة المعتادة، وهكذا بعد حوار وجيز، دعاها للجلوس مع النساء الأخريات. ولتستغلَّ وقت الانتظار، بدأت تعزف بعض النغمات، على استحياء، على البيانو في الغرفة. لكنْ، تُقاطَع فجأة: «امشِ من هنا!» قالت لها بنبرة عتاب إحدى الممرِّضات. حانت ساعة العشاء. يجب أن تجتمع كلُّ المريضات في صالة، وُضعت فيها مائدة كبيرة محاطة بالمصاطب. ترى إليزابيث ضحايا بلاكويل وهنَّ يصلنَ في موكب مأساوي طويل، منهنَّ التي تثرثر مع صديق تخيُّليٍّ، والتي تضحك، والتي تبكي بشدَّة، والتي تسير بنظرة مستسلمة، مدركة بأن أمرها انتهى في فخٍّ يستحيل حتَّى أن تتخيَّل طريقة للفكاك منه. فحصت إليزابيث العشاء في أثناء جلوسها أمام مائدة الطعام بجوار رفيقات بلوتها: شاي خفيف جدّاً، قطعة من الخبز المزبد، وخمس برقوقات مجفَّفة. لم يكن لديها طاقة لتشرب ذلك الشيء الذي يُسمُّونه شاياً، ولا لأن تأكل الخبز. تترك كلَّ شيء لجاراتها. يتسبَّب ذلك في إشاطة غضب الآنسة نيفيل، القادمة مع إليزابيث، والسليمة عقليّاً مثلها: لا بدَّ أن نأكل، إذا أردنا ألَّا نصبح من فاقدي العقل مثلهنَّ، للحفاظ على عقلنا سليماً، لا بدَّ أن نهتمَّ بمعدتنا.

بمجرَّد أن انتهى العشاء، فُتحت من جديد أبواب صالة الطعام، ونُقلت النساء، دائماً في صفٍّ، إلى الصالة التي فيها البيانو. وهذه المرَّة، طلبنَ جميعاً، ومعهنَّ الممرِّضات أيضاً، من نيلِّي أن تعزف شيئاً لهنَّ. وعبَّرت تيلي مايارد عن استعدادها للغناء، وفي النهاية، تقتنع نيلِّي، ومع أوَّل نغمة من نغمات Rock-a-bye-Baby يسود الصمت حولهما، يخدِّر الجميعَ صوتُ تيلي الرائع. تظلُّ البهجة ذلك الدواء الفعَّال بشكل مدهش. مكتبة سُر من قرأ

حانت ساعة الاغتسال، كان لا بدَّ أن تتعرَّى، تماماً، والتعرية الكاملة هي المبدأ الأساسي لأيِّ شكل من أشكال نَزْع الإنسانية، تحاول إليزابيث أن تُبدي بعض المقاومة، ولكن البديل هو أنها تُجبر على ذلك بالقوَّة، لا مبرِّر لأيِّ نوع من العنف، إلَّا أن العنف المجَّانيَّ يُبعد أيَّ تفسير ممكن، يتسبَّب في الرعب والخوف، ويشلُّ الوعي. هل هذا هو هدفه؟ لا تعثر إليزابيث على إجابة. الآن لا بدَّ أن تفكِّر كيف ستواجه حوض الاستحمام الممتلئ بالمياه المثلَّجة. إذا لم تدخل بخاطرها، ستُجبرها على ذلك إحدى الحارسات. تُغلق عينَيْها، وتغطس فيها. الرعشة تهزُّ جسدها حتَّى داخل عظامها. امرأة، ربَّما من المريضات القدامى، تغسل لها جسدها كلَّه وشَعْرها بالصابون دون أن تتوقَّف، ولو للحظة من التَّحدُّث مع نفسها. ثمَّ بقطعة من القماش تدعك لها جسدها بقوَّة. تُنهي ثلاثُ دلاء من المياه هذا العذابَ. بشَعْر مضموم ومبلول، ورعشة، شعور بالغربة: الآن أصبح مظهر إليزابيث مشابه تماماً لأيِّ واحدة من الألف وستُّمئة مريضة الموجودات معها في المصحَّة العقلية. بدأت تفكِّر على الفور في رفيقتها تيلي، التي دخلت إلى المستشفى، بسبب الحُمَّى وآلام الرأس، بالتأكيد قضت عليها تلك المعاملة تماماً.

في أثناء الليلة كلِّها، التي قضتْها في غرفة مخصَّصة لها، سمعت إليزابيث على فترات متقطِّعة منتظمة الصوت الجافَّ لدوران المفتاح في مقبض الباب الحديدي. إنهنَّ الممرِّضات اللَّاتي يدخلنَ للتفتيش على المريضات، بتكراره في كلِّ الحجرات بطول الممرِّ، يصبح صوتاً مستمرّاً. ولكن الشيء الذي أفزع نيلِّي بالفعل هو فكرة إمكانية اندلاع حريق ما. وفكَّرت برعب: كلُّ حجرة مغلقة بمفتاح منفصل، والنوافذ عليها قضبان حديدية ثقيلة، ومن ثمَّ يصبح الهروب مستحيلاً.

في المبنى الواحد - كما قال لها أحد الأطبَّاء - ثلاثمئة امرأة على الأقلِّ، إذا اندلعت النيران في أحد المباني، لن يفكِّر السَّجَّانون أو الممرِّضون أبداً في تحرير سجيناتهم المجنونات، لن ينجوَ من هذا سوى قليل منهنَّ، والأخريات سيُتركنَ هناك، ليحترقنَ حتَّى الموت.

عندما نجحت أخيراً في النوم، كان ذلك في الفجر. في الصباح، تجمَّعنَ في الحمَّام. تخضع المريضات لطَقْس يومي، إنها اللحظة التي فيها يُصفِّفْنَ شُعُورهنَّ. مسلَّحات بالأمشاط، تشدُّ الممرِّضات بقوَّة العقد، ويجذبنَ بشدَّة تلك الرؤوس المسكينة. تطلب تيلي مايارد، قلقاً من ألم رأسها القوي المستمرِّ، بأدب إذا كان في الإمكان أن تُصفِّف شَعْرها بنفسها، ولكنْ، بلا فائدة.

تفضي تيلي إلى إليزابيث: كانت أعصابي ضعيفة بالفعل قبل أن أحضر إلى هنا، لا أعرف إذا كنتُ قادرة على تحمُّل كلِّ هذا.

تحاول إليزابيث تشجيعها، ومن قلبها ترجو أن تستطيع إخراجها من هنا، بمجرَّد أن تُنهيَ تحقيقها المتخفِّي هذا. بمجرَّد أن ينتهي ذلك

العذاب، تُجمَع النساء أوَّلاً في صالة الأرائك، ثمَّ يُقَدْنَ إلى صالة الطعام. على الرغم من أنها كانت تشعر بالجوع الشديد، فإنها لم تنجح في تناول أيِّ طعام. كان الخبز، بلا زبد هذه المرَّة، يَستضيف عنكبوتاً، وكان طَعْمُ دقيقِ الشوفان مع المولاس سيِّئاً جدّاً. اجتهدت في شُرب بعض الشاي. بانتهاء الإفطار، عُهِدَ إلى كلٍّ منهنَّ بمهمَّة ما، مثل ترتيب الأَسِرَّة أو تنظيف الحجرات. تكتب إليزابيث ملاحظة أن النظافة وتنظيم المصحَّة عمل يقع على عاتق المريضات، وليس موظَّفي المبنى، ولكنْ، فجأة تُصادِرُ ممرِّضةٌ الدفتر والقلم. كارثة بالفعل، عديدٌ من المعلومات التي يجب تدوينها، لا يجب أن تفقد ولا تفصيلة واحدة. تجد نيلِّي نفسها مُجبَرَة على أن تطلب المساعدة من الدكتور فرانك ج. إنجرام، مساعد مدير المصحَّة، أحد القليلين الذين لديهم توجُّهات إنسانية تجاه المريضات هناك. يعدها بأنه سيهتمُّ بالأمر، وبعد ذلك بفترة وجيزة، لحسن الحظِّ، يُحَلُّ الأمر على أفضل وجه. في ذلك الوقت، أخيراً، تصل لحظة ساعة الخروج. وفي الممرِّ تتمشَّى سيِّدات بشَعْر منكوش ونظرات ضائعة في الفراغ، ولكن الذي يجذب انتباه إليزابيث هي مجموعة رَثَّة وحزينة. سألت بفضول: مَنْ هؤلاء؟

أجابتْها امرأة بالقرب منها: إنهنَّ الأكثر عنفاً في الجزيرة، محبوسات هناك، في ذلك المبنى المقابل لكِ، إنه اللودج، لا أرجو لأيِّ شخص أن ينتهي أمره هناك بالداخل.

لاحظت إليزابيث أيضاً مجموعة أخرى من النساء. في الخمسينيَّات من العُمُر تقريباً، كلٌّ منهنَّ مربوطةٌ بالأخرى بحَبْل. غائبات تماماً عن الوعي، كلُّ واحدة منهنَّ تعيش في عالمها الخاصِّ: إحداهنَّ تضحك، والأخرى تلمس ببطء شَعْرها، والأخرى تنظر إلى نقطة بعيدة.

الغداء يتكوَّن من حَساء، بطاطا مقلية باردة، وقطعة من اللحم فاسدة بعض الشيء. لا أدوات مائدة. يأكلنَ بأيديهنَّ، ومَنْ لا تتمتَّع بأسنان جيِّدة، عليها التَّصرُّف. في النهاية يصحبون النساء من جديد إلى صالة الأرائك. يظهر مدير المصحَّة الذي يسأل، شارداً، عن الأحوال، دون أن يستمع إلى أيٍّ من الردود. المكوثُ هناك، جالساتٍ في تلك الحجرة على تلك الأرائك، ساعات، من أكثر ما يمكن تخيُّلُه إنهاكاً.

لم أشعر من قبل بتعبٍ قطُّ مثل الذي شعرتُ به وأنا جالسة على تلك الأرائك. بعض المريضات يجلسنَ على قَدَمٍ واحدة أو على أحد الجانبَيْن، ليُغيِّرنَ الوضع قليلاً، ولكنْ، ينادونهنَّ، ويطلبون منهنَّ الجلوس مستقيمات. إذا تحدَّثنَ، يَنهرونَهُنَّ، ويقولون لهنَّ أن يلتزمنَ الصمت، إذا أردنَ أن يتحرَّكنَ بضعَ خطوات لتخفيف تيبُّس العضلات، يطلبون منهنَّ الجلوس مرَّةً أخرى، وأن يُطِعنَ. ماذا يمكن أن يؤدِّي إلى الجنون، بخلاف التعذيب، أسرع من تلك المعاملة؟

عادة ما تطرح إليزابيث أسئلة من هذا النوع. يستمع إليها الدكتور إنجرام، كان من بين القلَّة التي انتابها الشَّكُّ على الفور في خَرَفِهَا. وتحدَّث في ذلك مع المدير: أحياناً تُخطئ الاختبارات.

وأجابه الأخير، بجفاء: بكلِّ تأكيد، نيلِّي براون مصابة بالخَرَف.

وفي لحظة ما تعرَّضت عملية بلاكويل لخطر الإخفاق. دعت ميس جريدي، إحدى الممرِّضات، إليزابيث: براون، هناك زيارة لكِ! يريد شخص أن يقابلكِ، صَحَفِيٌّ.

عند تلك الكلمات اندهشت إليزابيث. عندما قابلتْهُ بعد ذلك في صالة الأرائك، شعرت بالرعب. بدأ قلبها يدقُّ بشدَّة. يعرفها هذا الشخص منذُ فترة طويلة. في الواقع عندما رآها وقد أصبحت في ذلك الوضع، فقد الكلمات. تستعدُّ إليزابيث بهدوء للإنكار، إذا كشف عن هُوِيَّتها. وفي السِّرِّ، وبصوت منخفض تقول له: لا تخنِّي. نظرت إلى ميس جريدي، وأكَّدت لها بأنها لا تعرف ذلك الرجل. عندئذٍ توجَّهت الممرِّضة إليه، وقالت: هل تعرف تلك المرأة؟

أجاب الرجل: لا، ليست هي الفتاة التي أبحث عنها.

- إذاً، لا يمكنكَ المكوث هنا.

اختتمت الممرِّضة كلامها، وابتعدت لتفتحَ الباب. استغلَّت إليزابيث الفرصة، واقتربت، وطَمْأَنَتْهُ:

- كلُّ شيء على ما يرام، أنا هنا من أجل تحقيق صحفي. أرجوكَ، لا تقلْ أيَّ شيء.

أومأ برأسه، واحتفظ بالسِّرِّ.

لا يمرُّ الوقت في بلاكويل أبداً. ساعات طويلة من السكون والانتظار تحدِّد أيَّام النساء المقيمات في المصحَّة. تفكِّر إليزابيث في مصيرهنَّ. يحدث لها أحياناً أن تتوقَّف أمام إحدى النوافذ المغلقة بالقضبان، وترى المدينة من بعيد على الشاطئ الآخر من الإيست ريفر. ستكون هي خلال بضعة أيَّام، حُرَّة. أمَّا هنَّ، فلن يخرجنَ أبداً. تفكِّر في أولئك

النساء، بعضهنَّ مجنون بالفعل، ولكنْ، جميعهنَّ ضحايا نظام لا يهدف إلى العلاج، بل مجرَّد العَزْل، الحَبْس، بل ربَّما أيضاً عقابُ مَنْ حُكِم عليهنَّ بالخَرَف.

> كم هو غامضٌ ذلك الجنون! رأيتُ مريضات ضُمَّت شفاههنَّ في صمت أبدي. يعشنَ، يتنفَّسنَ، يأكلنَ. الشكل الإنساني موجود، إلَّا أنه ينقص شيء ما، دونه لا يمكن أن يعيش الجسد، ولا وجود له بلا جسد. مَنْ يدري إذا كان وراء تلك الشفاه المطبقة أحلامٌ، أو ربَّما لا شيء سوى الفراغ.

تفكِّر إليزابيث في الفتيات الـ "بدون"، بطلات خطابها إلى جريدة "النبأ". كم سهل عليهنَّ الانحراف عن الطريق! ولينتهي أمرهنَّ في الجحيم تكفي كبوة، وَهنٌ عصبي، حُمَّى، كَشْف طبِّيٌّ مُتعجِّل، أو زوج غيور، مثلما حَدَثَ مع سارة فيشبوم المسكينة. ليس لهنَّ مَنْ يعتني بهنَّ. في العادة هنَّ أجنبيات، ويأتينَ من بعيد جدّاً، من ألمانيا، من فرنسا ومن بولندا، لا يتحدَّثن جيِّداً الإنجليزية، فهنَّ نساء وحيدات، حيوات مهمَلَة، منبوذة، مَنفيَّة في بلاكويل. فكَّرت إليزابيث أن هذا يمكن أن يحدث أيضاً لها أو لأُمِّها. وإن كان الحظُّ في هذه الحالة يلعب دوراً ضئيلاً، القَدَر، في الواقع، تحدِّده دائماً إرادة شخص ما: صاحبةُ منزل، طبيبٌ سطحي، زوج مُتعِب، صاحبُ عمل لديه ميول انتقامية. رأت من جديد العينَيْن المتوسِّلَتَيْن لتيلي مايارد أو الوجه الشارد للويس سكانز. إن بلاكويل هو، أيضاً، بل بالأخصِّ، مكان عنف وتعذيب. الممرِّضات والحُرَّاس يطبِّقون معاملة غير إنسانية على المريضات: تخويف، عقاب جسدي، وأحياناً أشكال حقيقية من التعذيب النَّفْسيِّ والجسدي.

لاحظت إليزابيث، مرَّات عديدة، علامات كدمات على وجوه ورقاب وأذرع رفيقاتها. أطلعتْها امرأة على منطقة في رأسها، لم يعد ينمو فيها الشَّعْر: لقد نزعوه. ثمَّ هناك أيضاً جحيمٌ داخل الجحيم، اللودج، ذلك المبنى الانتحاري، ذو الرائحة المثيرة للغثيان، حيثُ الطعام أسوأ من الموجود في كلِّ الأقسام، والعقاب الجسدي أكثر قسوة (الاغتسال بمياه مثلَّجة، كدمات بعصا المقشَّة، تعذيب من كلِّ نوع). تشعر جميعهنَّ بالرُّعب من أن يصبح هذا مصيرهنَّ، هناك بالداخل، يعلم الموظَّفون ذلك جيِّداً، ويستخدمونه كرادعٍ ضدَّ كلَّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أن يعترض على النظام أو يُبلغ عن العنف. ماذا عن الأطبَّاء؟ الأطبَّاء غائبون تماماً أو ليسوا محلَّ ثقة، ليست لديهم الكفاءات المناسبة، ليتعرَّفوا ويعالجوا الأمراض الذِّهنيَّة، إلَّا أنهم مغرورون، سطحيون، وأحياناً أيضاً متوحِّشون، فيما عدا الاستثناءات القليلة مثل الدكتور إنجرام، الوحيد الذي يُظهِر تعاطفاً حقيقيّاً وفعليّاً مع المريضات المقيمات في بلاكويل، فهو لا ينسى أبداً أنه يتعامل مع أشخاص، ويتعامل معهم في كلِّ مناسبة باحترام ورقَّة، وليست مصادفة بأنه الطبيب الوحيد الذي يُدرِك، بسرعة شديدة، أن نيلِّي براون ليست مجنونة بالتأكيد.

في تلك الأيَّام العشرة، جمعت إليزابيث عديداً من الموادِّ لتحقيقها (أحسن كوكريل وبوليتزر صنعاً بأن اعتمدا على يتيمة بيتسبرغ)، ولكن الشيء الأهمَّ أنها اقتنعت أن ذلك الذي يجب أن يكون مكاناً للعلاج، أو على الأقلِّ للنقاهة، هو على العكس مكان منظَّم بمنهجية للتَّسبُّب في الجنون أو تطويره. فالعنف والأنظمة التي لا معنى لها، القذارة والرعب المجَّانيّ، عدم الكفاءة الواضحة في معظم الأطبَّاء والموظَّفين في المصحَّة، جميعها عوامل تتنافس في التهديد بشدَّة للتوازن النَّفسيِّ الهشِّ بالفعل للنساء المسكينات اللَّاتي يُحْضَرْنَ إلى الجزيرة.

ولكنْ، الآن، ما دامت مصحَّةُ الأمراض العقلية النسائية في بلاكويل مؤسَّسةً عامَّة، تدعمها نقود الضرائب التي يدفعها المواطنون الأمريكيُّون، فلماذا على أولئك المواطنات أن يعانينَ معاملة غير إنسانية بهذا الشكل؟ كيف يمكن تبرير البرد، والطعام الفاسد، الغياب التَّامُّ لأبسط قواعد النظافة؟ العنف الممارَس بنظامٍ تجاه كائنات ضعيفة، غير واعية ومسالمة؟ بالنسبة إلى إليزابيث، التي تكتب باسم نيلِّي بلاي، فقد حانت اللحظة لتُوجِّه ذلك السؤال إلى الرأي العام بمدينة نيويورك.

في الرابع من أكتوبر عام 1887، يطلب رجلٌ إن كان بإمكانه رؤية الآنسة نيلِّي براون، لديه أخبار سارَّة: بعض أصدقائه قرَّروا العناية بها. يطلب إذاً أن تخرج المرأة من المصحَّة. والرجل محامٍ ويُدعَى بيتر أ. هندريكس(*). ليس هذا فحسب، بل كان يقف بجواره شخصٌ صامتٌ، اسمه وولت ماكدوغال(**)، وهو لا يعمل في المكتب القانوني، ولكنه المصوِّر الرئيس في جريدة "وورلد". الخلاصة، انتهت المدَّة، حَضَرَ رجال بوليتزر لاستعادة نيلِّي براون، المشهورة بنيلِّي بلاي، واسمها الحقيقي إليزابيث كوكران. يذكر ماكدوغال: ونحن محاطون بحشود السَّيِّدات الخَرِفَات، كنَّا نبدو كأننا القطار الأوَّل الفارغ بعد عطلة طويلة في السكك الحديدية.

يمكن أخيراً أن تعود إليزابيث إلى المنزل، وأن تستمتع بحمَّام ساخن، ولكنْ، ليس أمامها كثير من الوقت لتستريح، لا بدَّ أن تكتب القطعة قبل أن تُعرَف قصَّتها. في الإدارة يشعرون بالقلق، حيثُ إن جريدة الـ

(*) Peter A. Hendricks

(**) Walt MacDougall

"صن" لتشارلز دانا، كَتَبَتْ في السابع من أكتوبر عن الإفراج الغامض عن الفتاة المشرَّدة، وحَكَتْ جريدة الـ "نيويورك تايمز" عن سعادة الأطبَّاء في مستشفى بلاكويل بالنتيجة العظيمة للعلاج التي سمحت بخروج الفتاة.

في التاسع من أكتوبر، وفي عدد يوم الأحد تنشر صحيفة الـ "وورلد" الحلقة الأولى من التحقيق المُعنوَن: *خلف قضبان مصحَّة الأمراض العقلية، سرُّ الشَّابَّة والمريضة العقلية المجهولة.*

تنتهي نُسخ الجريدة على الفور. وتستعيد الـ "صن" الأجزاء الدَّاخليَّة من المقال، وتنطلق بحوارات مع الأطبَّاء والموظَّفين. الأحد التالي تصل الحلقة الثانية الأخيرة. وفي التحقيق تصف إليزابيث بالتفصيل الواقعة كلَّها. لم يخرج منها أحد بصورة جيِّدة، بداية من البنسيون الخيري حتَّى إدارة المصحَّة العقلية، لا طبيب ولا ممرِّضة، لا أحد على الإطلاق، باستثناء القاضي دافي، والدكتور إنجرام الذي أدرك أنها لم تكن مجنونة. نيلِّي بلاي تحكي عن الأوضاع البشعة التي تُجبَر أن تعيش فيها ألفٌ وستُّمئة امرأة تُعالَج في بلاكويل، يُعانينَ البرودة والقذارة وقلَّة الطعام، وخاضعات لكلِّ أنواع العنف. تشارك، أيضاً، القصص المأساوية للنساء العاقلات سجينات الجزيرة لأسباب لا علاقة لها بالخَرَفِ أو بالهستيريا. يُختَتَمُ التحقيق بتأمُّل، يترك شكوكاً حول حالة تلك المصحَّة: إن مصحَّة جزيرة بلاكويل للأمراض العقلية فخٌّ فئرانٍ مُعَدٌّ للآدميِّينْ، من السهل الدخول إليها، ولكنْ، بمجرَّد الدخول يصبح الخروج مستحيلاً.

تصيب نيلِّي الهدف. يفتح تحقيقها الطريقَ لجدل حول حالة ونوعية المؤسَّسات العامَّة مثل مصحَّات الأمراض العقلية والسجون، ومنازل النقاهة. موضوعٌ كان يُناقَش بالفعل منذُ فترة داخل الإدارة الوطنية،

أصبح الآن ضرورةُ منحِ ردٍّ سياسيٍّ عليه أكثر إلحاحاً. يصدر القرار بتكوين لجنة تحقيق، وتُدعَى الصَّحَفِيَّة لتشهد هذا. تعود إليزابيث إلى مصحَّة الأمراض العقلية للنساء، لتُخرج رفيقات المغامرة المأساوية: آن وتيلي ولويز. ولكنها لا تجد لهنَّ أثراً، فقد تلاشينَ، فقد خُبِّئنَ، مَنْ يدري أين؟ وحُكِمَ عليهم إلى الأبد في الجحيم. مرَّاتٍ كثيرةً ستُعيد إليزابيث التفكير في تلك الفتيات، وسينقبض قلبها. لم تستطع الصحافة إنقاذهنَّ. ولكنها ستُنقذ عديداً من النساء اللآتي سيدخلنَ للعلاج بعدهنَّ. في الواقع تكون نتيجة أعمال اللجنة زيادة ملحوظة في التمويل المخصَّص لمصحَّة بلاكويل. الهدف منها تفعيل حزمة من الإصلاحات الفورية التي تهدف لمِهَنِيَّة أكبر بين الأطبَّاء ومعاونيهم، وتحسين نوعية الطعام وأوضاع النظافة والصِّحَّة، وفي النهاية، كما رَجَت إليزابيث، أن يُستبدل نظامُ غَلْق القسم بدلاً من نظام غَلْق الحجرات الفردية، لتسهيل خروج المريضات في حالة حدوث حريق. وحصلت جريدة بوليتزر على استحقاق الفضل في تلك الإصلاحات. تجاوز التحقيق حدود الصحف المحلِّيَّة، وأصبحت نيلِّي بلاي حالة قومية. لم يمكنها تخيُّل نتيجة أفضل. فهي، شابَّة صَحَفِيَّة، وَصَلَتْ للتَّوِّ إلى المدينة، فاجأت الجميع بعمل خطير، أثبتتْ فيه أن المرأة يمكن أن تتحلَّى بالشجاعة والجرأة والحماس الحضاري، مثل الرجل تماماً. وصفتْها جريدة الـ "صن"، الجريدة المنافسة، بأنها امرأة ذكية ومستقلَّة وماهرة. يتحمَّس بوليتزر في حوار أجراه مع "النبأ"، بمناسبة توقُّفه في محطَّة بيتسبرغ في طريق عودته إلى سان لويس، لا يخفي رضاه عن تلك الصَّحَفِيَّة الجديدة، اللَّامعة الشجاعة، ويقول بالتحديد: لقد كافأتُها بمهمَّة مناسبة لموهبتها.

وتأثَّرت إليزابيث كثيراً عندما قرأت مقالة رأي لبيسي برامبل تتَّخذها

فيها نموذجاً للتأكيد على أن النساء الموهوبات الآن قادرات على أن يعملنَ جيِّداً، تماماً مثل الرجال:

> تصل نيلِّي بلاي، وتُنجز مشروعاً صَحَفِيّاً، يمكن قلَّة قليلة جدّاً من الزملاء من الرجال أن تكون لديهم القدرة على أن يقدِّموا أفضل منه، لقد أظهرت أن الجرأة والبراعة في المهنة والقدرة على التَّحرِّي بدقَّة ليست قدرات قاصرة فقط على زملائنا من الرجال.

وكان خريف عام 1887، ولكنه بالنسبة إلى إليزابيث، كان الربيع أخيراً. ربيع نيلِّي بلاي.

متنكِّرة

أدهِشِيْهِم، يا إليزابيث، وسيسقطون عند قَدَمَيْكِ. لقد فهمتِ، على الفور، أنه هكذا فقط يمكنكِ أن تحتفظي بمميِّزاتٍ عن الآخرين. لقد تفوَّقتِ بتحقيقكِ في المصحَّة العقلية، لم يفكِّر في ذلك أيُّ رجل، ولم يكن أيُّ رجل سينجح في ذلك، لا بدَّ للمرأة أن تفكِّر بعَظَمَة، الواقع أنهم قد اعتبروك الآن لاعبة أكروبات، ويريدون منكِ عروضاً أكثر إثارة، أَدْهِشِيْهِم، وسيظلُّون عند قَدَمَيْكِ، كوكريل وبوليتزر وكلُّ الآخرين. منذُ البداية وأنتِ ماهرة في اللعبة. لقد أرسلتِ ذلك الخطاب، الأكثر خطورة والأكثر شجاعة والأكثر نسوية. ولكنْ، الآن حان الجزء الأصعب. لا بدَّ أن تحافظي على مستواكِ، بل تتجاوزي نفسكِ، إن ذلك ما يتوقَّعونه منكِ، لقد عوَّدتِهِم بالفعل على هذا، والآن لا يمكن التراجع، ولكنْ، إلى أين ترغبين في الوصول؟ حتَّى أنتِ لا تعرفين، كلُّ ما تعرفينه أن إدهاشهم فقط لا يمكن أن يكفيَ، تريدين أكثر، أكثر من ذلك بكثير، تريدين أن تُغيِّر الصحافةُ من حياة البشر. يكونُ لعملكِ معنى، فقط إذا ساعَدَ الذين هم أضعف، وهُزِمَ الذين هم أقوى. فيمَ سيفيد، إذاً، أن تحكيَ حياة العاملات في بيتسبرغ وهنَّ تحت رحمة رئيس القسم، أو التَّحدُّث عن المكسيكيِّيْن وهم خاضعون لطبقة حاكمة مغرورة، لا تخاف؟ ما فائدة كلِّ تلك الليالي التي قضيتِها في بلاكويل إذا لم تكن محاولة لإنقاذ تلك الإنسانية المتضرِّرة؟ لم تنجحي مع تيلي المسكينة،

ولكنْ، كافحتِ حتَّى لا تذهب مَنْ هي مثلها إلى المصحَّة العقلية. كنتِ تنظرين إليها، وتفكِّرين أنكِ أو أُمَّكِ كان يمكن أن تكونا مكانها. لحسن حظِّ ماري جين أنها استطاعت أن تقول لا. وعلَّمتكِ أن تقولي لا، لا للرجلِ، إذا كان الهدف فقط أن يعولكِ، لا للعمل في مصنع للبقاء على قيد الحياة، رفضكِ أن تقتنعي أن بإمكان رجلٍ ما أن يحدِّدَ مكانكِ في العالم. الآن تجلسين أمام نافذتكِ، فراشكِ غير مرتَّب، وتشعرين بألم حادٍّ في صدركِ، ذلك السعال لم يتركِكِ طَوَالَ اليوم، تنظرين بشرود للمارَّة في الخارج، بالنسبة إليكِ، التَّجوُّل مثلَهم أصبح رفاهية. يشتعل الضوء خلف زجاج من بعيد، تُفتَح ستارة وخلفها يظهر ظلُّ فتاة، تبدو مثلكِ تماماً، وتُصغين من جديد لصوتكِ تقولين: أليس رائع الجمال، يا أُمِّي؟ تعبرين من حجرة إلى أخرى، سعيدة بذلك المنزل الجديد، منزلكِ، منزلكما، طلبتِ منها أن تنتقلَ لتعيشَ معكِ، وفعلتْ هي ذلك بتأثُّر، تشربين ببطء من فنجان الشاي، وتفكِّرين في أن كلَّ ذلك الرَّفْض قد أنقذكِ، فَلْتُدْهِشِيْهِم، يا نيلِّي، وسيظلُّون عند قَدَمَيْكِ.

أخيراً نيويورك، وأخيراً جريدة الـ "وورلد"، دخلت نيلِّي بقَدَم ثابتة في إدارة تحرير جريدة بوليتزر، لم ينقصْها، بالتأكيد، العمل في المدينة، يكفيها أن تنظر حولها، لتشعرَ بصعوبة الاختيار: القوَّادون، والمستغلُّون من كلِّ نوع، مَنْ يتاجرون بحديثي الولادة، والمحقِّقون النَّصَّابون، سياسيون نصَّابون، قَتَلَة ومَحرومون، في الخارج عالمٌ بأكمله، وعُيِّنت نيلِّي بلاي في جريدة الـ "وورلد" لتحكيَ عنه، بطريقتها. وَصَلَتْ في التوقيت الذي بدا فيه أن أثر المقال وتأثيره، أو هدفه بصورة عامَّة،

يخبوان، ولكنْ، معها الأمر مختلف: فأسئلتها مباشرة، فاضحة وغليظة. والأهمُّ أن مَنْ يطرحها هي امرأة. هذا، بالفعل، خبر بحَدِّ ذاته أهمُّ من الخبر الحقيقي. يتنظر قارئ الـ "وورلد" عدد الأحد، ليجلس مستريحاً على مقعده، وربَّما فنجان الشاي يوجد على المائدة المجاورة، ليقرأ مرَّةً بعد المرَّة في أيِّ مأساة جديدة أدخلت نفسها تلك الفتاة الملعونة، تتنكَّر نيلِّي، لتنزع الأقنعة عن أبطال قصصها. أي إنها لتحكي عن الواقع، لا بدَّ أن تتظاهر بأنها شخص آخر.

هل تريد أن تعرف ماذا يحدث في السجن؟ لا يمكنكَ، بالتأكيد، معرفة شيء من خلال سؤال الأطراف المَعنِيَّة مباشرة. إلَّا أنكَ يمكنكَ التَّأكُّد ممَّا يحدث شخصيّاً، بأن تدعهم يقبضون عليكَ. هل تريدين أن تكتشفي مَن وراء تجارة الأطفال المولودين حديثاً؟ أَوْهِمِيْهِم أنكِ أُمٌّ شابَّة، واحكِ ماذا يحدث إذا أردتِ التَّخلُّص من طفلكِ. لم تتوقَّف نيلِّي أمام أيِّ عائق: فهي عاملة ووصيفة، وحيدة القلب ومُعاقة ... بل عاهرة تائبة. سَمَحَ لها العمل المستقرُّ في الجريدة باستئجار شُقَّة في شارع 74 في تقاطع شارعي برودواي وأمستردام. قفزة كبيرة في النَّوعيَّة مقارنة بمنازل ضواحي بيتسبرغ. أرسلت إلى أُمِّها، لتنتقل وتسكن معها، وماري جين، راعية زمن رحلة المكسيك، وافقت بتأثُّر. إنها فترة العمل المكثَّف لنيلِّي، التي تشعر بسعادة، لأنها استطاعت الوصول. تكتب في جريدة ناجحة، وأسلوب بوليتزر (بأن يضعَ محرِّري الأخبار للجريدة نفسها في تنافس قاسٍ) لا يُخيفها على الإطلاق. تثق نيلِّي بموهبتها، ولا يُؤرِّقها وجودُ صَحَفِيَّات أخريات يتنافسنَ، ويعددنَ مشاريع تحقيقات أكثر تعقيداً. والتقدير الذي تتمتَّع به مقالاتها من أسبوع لأسبوع يؤكِّد على ثقتها بقدراتها الخاصَّة. تمضي الوقت بين إدارة

التحرير وشوارع المدينة، حيثُ تتنكَّر في هُوِيَّات متباينة جدّاً، لتصبح أسباقها الصَّحَفِيَّة مميَّزة. وبالتحديد، في أثناء سَيْرها في مدينة نيويورك التي اجتاحتْها عاصفة ثلجية استثنائية، قابلت للمرَّة الأولى جيمس ستيتسون ميتكالف(*)، الناقد المسرحيَّ للمجلَّة الساخرة "لايف". كانت فرصة عجيبة: تزحلقتْ نيلِّي على الرصيف المغطَّى بالثلج، وتوقَّف ميتكالف ليساعدَها على النهوض، ومن تلك الحادثة، التي لا معنى لها تقريباً، وُلِدَ رباط شديد القوَّة بينهما. جولات طويلة، لقاءات على العشاء، وأُمسيَّات في المسرح. وأصبحا يتقابلان بانتظام. في ظهيرة أحد الأيَّام، وبينما يمشيان في شوارع السنترال بارك، توقَّف جيمس، وحدَّق في عينَي نيلِّي مباشرة، وقال لها: لقد اغتلتُ رجلاً. تنظر إليه نيلِّي، وتفكِّر بتلقائية بالفعل في عنوان في الصفحة الأولى: *نيلِّي بلاي تستمع في سنترال بارك لاعتراف الناقد القاتل*. ينظر إليها ميتكالف مرتبِكاً، فقد توقَّع ردَّ فعلٍ مندهشاً، لا نظرة متحمِّسة لصَحَفِيَّة، وجدت بين يَدَيْها سَبْقاً صَحَفِيّاً عظيماً. أدركت هي ذلك، وبنظرة مطمئِنَة اقترحت: لنجلسْ على هذه الأريكة. وقُصَّ عليَّ كلَّ شيء.

- إنها قصَّة قديمة، إلَّا أنها ما زالت تعذِّبني. منذُ فترة طويلة تلقَّيتُ في الإدارة نصَّ قصيدة شِعْر، وأعجبتْني أبياتها جدّاً. كَتَبْتُ عنها مقالاً نَقْدِيّاً في الجريدة، وطَلَبْتُ من الكاتب أن يأتيَ ليُقابلني في مقرِّ الجريدة، لم أكرِّر الدعوة مرَّتَيْن، وفي أحد الأيَّام فجأة هبط إلى غرفتي ...

- وأنتَ ...

أكملت نيلِّي، متظاهرة بالبراءة المذهولة التي كانت تُعجب الرجال

(*) James Stetson Metcalfe

كثيراً في زمنها: فعلتَ مثلما فعل المدير كوكريل، وضعتَ يدكَ على المسدَّس، وأطلقتَ عليه النار؟!

أجابها ميتكالف: ولكنْ ... لا، أنا لا أملك مسدَّساً. بل فعلتُ ما هو أسوأ، لأنني لم أكن أتذكَّره، ولأنني كنت منشغلاً في كتابة مقال طويل، أنكرتُ وجودي في المكتب. أخذ يتردَّد كثيراً، سمعتُ صوته، وكرهتُهُ، كان يُسبِّب لي شروداً عن عملي. وفي أحد الأيَّام لم يعد قطُّ. كنتُ سعيداً بأنني تخلَّصتُ منه، حتَّى قرأتُ في صباح أحد الأيَّام على صفحات جريدة "الصن" أن ذلك الشاعر الشَّابَّ، تحت وطأة الإحباط من كلِّ شيء ومن الجميع، أَقْدَمَ على الانتحار، في الواقع كان مُحبَطاً منِّي أنا، نيلِّي، لقد وضعتُ أنا بين يَدَيْه البيضاوَيْن ذلك الحبل، أنا الذي ركلتُ ذلك المقعد اللعين بقَدَمِي، برَفْضي إيَّاه.

ثمَّ جرت دمعة على وجه ميتكالف الجامد، مسحتْها نيلِّي بتربيتةٍ متردِّدة.

- لا، يا جيمس، ليس خطأك، إنه خياره المأسوي من بين خيارات أخرى، أنا أيضاً رُفِضْتُ كثيراً، وادَّعى الكثير من مديري تحرير وزملاء عدم وجودهم ليتهربوا مني، ودرتُ على كلِّ الصُّحُف في نيويورك، وأنا أسمع الإجابة المُهينة نفسها، بل الأسوأ أحياناً دون أن أتلقَّى أيَّ إجابة، أصابني الحظُّ في النهاية بالتأكيد، ربَّما كان هو أيضاً سيعثر عليه، لو لم يستسلم.

اقترب جيمس، الآن لم يعد بينهما سوى المساحة الكافية للتَّنفُّس.

على الرغم من قوَّة مشاعرهما، لم يسمح انشغال نيلِّي في الجريدة

بعلاقة مستقرَّة. فإذا كان عليها أن تختار بين الصحافة والحُبِّ، تعرف نيلِّي، بلا تردُّد، ماذا ستختار. وميتكالف في لحظة ما ابتعد من طريقها، وتزوَّج إحدى ممثِّلات برودواي. تألَّمت نيلِّي، ولكنها وجدت في ذلك ذريعة أكبر لتُغرِقَ نفسها تماماً في العمل. وفي ربيع 1888، في اجتماع الاثنَيْن، اقترحت "بلاي" (كما كانوا يطلقون عليها في التحرير) على مديرها سَبْقاً صَحَفِيّاً عن الفساد السِّياسيِّ في ولاية نيويورك. وهو الموضوع الذي يمكن تعريفه بأنه متجدِّد دائماً، يتناول مجموعة من أفراد السلطة، والمؤسَّسات المرتبطة بالأحزاب السِّياسيَّة، اللوبي المنظَّم، بطريقة أو بأخرى، الذين يُمسكون بالأمور المالية للسياسة الخاصَّة بالمواطن وبالدولة. ما زالت حاضرة الذكرى الخاصَّة بفضيحة حول ويليام تويد، الرئيس المقتدِر لتاماني هول، تلك المؤسَّسة الانتخابية المرتبطة بالحزب الدِّيمقراطيِّ، التي تسبَّبت في الأوقات السعيدة والتعيسة في نيويورك لمدَّة نصف قرن تقريباً. كانت تجمع الدولارات والموافقات بكلِّ السُّبُل، وكان هذا هو الفكر الاجتماعي لتلك التي يُطلَق عليها الآلات السِّياسيَّة. "أبوابنا مفتوحة دائماً" كان هذا هو المكتوب على اللَّافتة المعلَّقة على باب المركز العامِّ للحزب الدِّيمقراطيِّ. ومثل كلِّ شيء في أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر، السياسة أيضاً على وشك تغيير جِلْدِها. بالنسبة إلى بعضهم، بل ربَّما عدد كبير جدّاً، أصبحت السياسة نوعاً من أنواع "البيزنيس" المُربح جدّاً. يعترف جورج واشنطن بلانكيت، أحد القادة التَّاريخيِّيْن لتاماني هول، بلا أيِّ حياء: أجل، عديدٌ من رجالنا كوَّنوا ثرواتهم من خلال العمل في السياسة، وأنا أيضاً، لقد جمعتُ ثروة هائلة بتلك اللعبة، وأزداد ثراءً يوماً بعد يوم.

والموضوع أصبح موضع جدل أيضاً من قِبَل المتخصِّصين في العلوم

السِّياسيَّة في تلك الأعوام. مويساي أوستروغورسكي(*)، أحد مؤسِّسي علم الاجتماع السِّياسيِّ، درس بعناية ظاهرة الآلات السِّياسيَّة، وإليه تُنسَب بعض الأوصاف الحيوية جدّاً لعادات زعيم أيِّ حزب:

> يُعيرُ أحدَهم دولاراً، ويبتاعُ آخِرَ تذكرةِ سكَّة حديد مجَّانيَّة، وفي منتصف الشتاء يُوزِّع الفحم، ويقدِّم الهدايا من أيِّ نوع، [...] يبتاع الأدوية للمرضى، ويساعد على دَفن الموتى ربَّما بشراء الصناديق بالدَّين أو ربَّما بنصف السعر. [...] تأتي النقود التي يوزِّعها من خزانة "الآلة"، والتي حصلَ عليها بأساليب أكثر بغضاً. ولكنْ، لا يهمُّ. بهذه النقود يمكن، أيضاً، توفير ضيافة رائعة في الصالونات. بمجرَّد أن يدخل، يتجمَّع حوله الأصدقاء المشاهير أو المجهولون، ويقدِّم للكلِّ شيئاً ما، ويطلب كأساً تلو الأخرى للرفاق، ويكون هو الوحيد الذي لا يشرب: فهو يعمل.

الحَدُّ الفاصل بين الملتزم بالقانون والخارج عنه يُرسَم، أحياناً، بخطٍّ باهت، خطٍّ تراقبه الصحافة اليومية باستمرار. وهذا الخطُّ تجاوزه أكثر من مرَّةً، بمِنَح مالية غير واضحة، أحد الأشخاص ويُدعى إدوارد ر. فيلبس، يعمل في السياسة، ويُعدُّ من الجماعات الضاغطة في برلمان ألباني، عاصمة ولاية نيويورك، إلَّا أن أحداً لم يستطع إثبات ذلك بأدلَّة. الخلاصة: يمارس فيلبس كلَّ ألعابه الشَّيطانيَّة، ليمنع تمرير قانون يجعل الوصفات الطِّبِّيَّة إجبارية للحصول على أنواع معيَّنة من العقاقير، ستتقدَّم هي إليه متنكِّرة في زِيِّ زوجة أحد صُنَّاع العقاقير المهمِّين، وتسأله كم يمكن أن

(*) Moisei Ostrogorski

يُكلِّف شراء أصوات أعضاء اللجنة، بهدف دَفْن هذا القانون، إذا سَقَطَ في هذا الفخِّ، تنجح اللعبة. أعطتْها الجريدة الإذن، وسار كلُّ شيء حسب الخطَّة، بل أفضل من ذلك. قابلتْهُ نيلِّي، بل حَصَلَتْ، أيضاً، على قائمة بالأعضاء المطلوب رشوتهم، والأرقام المطلوبة لكلٍّ منهم. تختلق عذراً، وتبتعد، ثمَّ تجري مسرعة نحو الجريدة لتكتبَ المقال. ويفجِّر المقال كثيراً من الشغب. تكذيبات وتهديدات واتِّهامات. تُشكَّلُ لجنةُ تحقيق، تَستدعي الآنسةَ نيلِّي شاهدةً. وفي النهاية، يظهر فيلبس، ويتَّهم الجريدة بأنها نظَّمت مؤامرة ضدَّه لأسباب سياسية. ولكنْ، لا يقتنع قُرَّاء الـ "وورلد" بذلك، وتُحضِر بلاي إلى المنزل سَبْقاً صَحَفِيّاً استثنائيّاً آخر.

ولكنْ، لحسن الحظِّ، ليست السياسة كلُّها فساداً، عندما تكون السياسة جيِّدة، فهي تمثِّل شجاعة كَسْر الأنظمة القديمة، والاستجابة للاحتياجات الجديدة. أحياناً يفعل بعضهم هذا في وقت سابق جدّاً، بالنسبة إلى الزمن الذي يعيش فيه، مثلما حالة بيلفا آن لوكوود(*)، المرأة الأولى المحامية التي ناقشت قضية أمام القضاء الأعلى. ترشَّحت بيلفا عام 1888، في انتخابات الرئاسة، قبل أن يُمنَح حقُّ التصويت للمرأة الأمريكية باثنَيْن وثلاثين عاماً. في اجتماع التحرير، اقترحت نيلِّي: أعتقد أن لقاءً صَحَفِيّاً مع لوكوود يمكن أن يَلقى نجاحاً. ساد الصمت في الغرفة. يهمس صوت من الجانب الآخر من المائدة التي يجلس حولها رؤساء التحرير والمدير: ترشُّح امرأة للبيت الأبيض شيءٌ عَبَثيٌّ. تُعارِض نيلِّي على الفور: ليس شيئاً عَبَثِيّاً، إنه خبر! لقد درستْ أعواماً كثيرة، ثمَّ تخرَّجتْ في القانون في واشنطن، عملتْ في السياسة، وكافحتْ من

(*) Belva Ann Lockwood

أجل الحقوق المَدَنِيَّة للمرأة، ونَجَحَتْ في الدخول في تنظيم المحامين في مقاطعة كولومبيا، وهي تحارب في المعركة السِّياسيَّة لتُعادل بين مرتِّبات المدرِّسات وزملائهنَّ من الرجال. وهذا دون أن نذكر المحكمة العليا. ويمكنني أن أُكمل ... اعثرْ لي على واحدة أخرى لها مثل هذه السيرة الذَّاتيَّة، وسأسحب اقتراحي.

ولكنْ، ليس في الولايات المتَّحدة كلِّها امرأة أخرى مثل بيلفا آن لوكوود، وهكذا أخذتْ نيلِّي الإذن. وبعدها ببضعة أيَّام، نجدها جالسة مستريحة على مقعد من مقاعد مكتب محاماة لوكوود، تحتسي الشاي، وهي تسجِّل إجابات المُرشَّحة إلى البيت الأبيض. وسألتْها: أيُّ النساء يساندكِ في معاركِكِ؟

- مَنْ يفكِّرنَ برؤوسهنَّ، ويعملنَ. أجابتْها المحامية لوكوود، جميع الأخريات لا يساعدنَ كثيراً. فسيِّدات الطبقات العليا، المنغلِقات في عالمهنَّ الذَّهبيِّ، لا يمنحنَ أيَّ دعم للقضية. والأمر نفسه يمكن قوله على النساء اللَّاتي يعانينَ الفقر الشديد. النوع الثاني إماء، والنوع الأوَّل دُمًى، كلاهما لا يفيد القضية.

- ولكنْ، إذا لم تتمكَّن النساء من التصويت، والرجال بأعداد كبيرة يكرهونكِ، فماذا يعني ترشُّحكِ للرئاسة؟

سألتْها نيلِّي.

أكَّدت لوكوود المحامية: أرشِّح نفسي، لأن هذا يساعد في تربية الناس على فكرة وجود امرأة في البيت الأبيض.

وكانت أهمَّ إجابة في الحوار كلِّه.

وجاء عام 1888، عام انتخاب رئيس الولايات المتَّحدة الجديد. وكان الكونغرس منقسماً إلى قسمَيْن: الدِّيمقراطيِّيْن الذين يحوزون الأغلبية بـ169 عضواً، والجمهوريِّيْن الذين لديهم 153 نائباً. وفي مجلس الشيوخ الأغلبية للجمهوريِّيْن، ولكنْ، بشقِّ الأنفُس، والرئيس الخارج من الرئاسة هو الدِّيمقراطيَّ غروفر كليفلاند، والمعروف لدى الصُّحُف باستخدامه حقَّ الفيتو، في الواقع منذُ بضعة أعوام لدى ساكني البيت الأبيض ملفَّات شخصية شاحبة قليلاً. يتحدَّثون عن رئاسات موجَّهة، بينما يتولَّى رؤساء الأحزاب أمر الحكومة. ربَّما لهذا فَصلَتْ نيلِّي الأوراق، واقترحت على الصحيفة، بعد نجاح لقائها الصَّحَفِيُّ مع بيلفا لوكوود، سلسلة من المقالات المحصَّصة لزوجات المُرشِّحين وجميع السَّيِّدات الأوَّل للرؤساء السابقين. وكانت الفكرة هي أن تمنح صوتاً للمرَّة الأولى للنساء اللواتي يقفنَ، أو وقفنَ، إلى جوار الزعماء. والتعبير عن وجهة نظر خاصَّة حول السلطة، أي وجهة النظر النِّسائيَّة.

أتلانتيك سيتي، نيو جيرسي، 1889، وفي أحد أيَّام نهاية شهر أغسطس. نسمة خفيفة تهبُّ من المحيط فيما وراء الجسر الصغير الخشبي الذي يفصل الشاطئ عن باقي المدينة. تجري الرياح بطول الطُّرُق التي تفصل المدينة الواقعة على البحر إلى كُتَل، لتدخلَ فيها عنوة بين نافذة وأخرى للفيلَّاتِ المَبنيَّة على الموضة، لتواجهَ الشاطئ. وفي إحدى تلك الفيلَّات، على ارتفاع نتيسي أفينيو، يعيش روبرت روي هاميلتون مع زوجته إيفا وابنته التي أكملت شهورها السِّتَّة. إنه ابن حفيد

ألكسندر هاميلتون، أحد الأباء المؤسِّسين للاتِّحاد، والمستشار المقرَّب لجورج واشنطن. روبرت، خرِّيج الحقوق، الذي سلك العمل السِّياسيَّ. في الصيف ترك نيويورك مع زوجته وطفلته، لينتقل إلى كاليفورنيا. ولكنه مشروعٌ أخفق خلال بضعة أشهر، ومن هنا كان القرار بأن يعتزل بعض الوقت في فيلَّته في أتلانتيك سيتي. كان هذا هروباً حقيقياً، ولكنه لم ينجح تماماً، وهو ما يتَّضح في هذا اليوم العاصف من أيَّام أغسطس. كانت ساعة الإفطار، ويجلس بعض ضيوف النائب السابق لولاية نيويورك على المائدة في انتظار أن يلحق بهم روبرت، عندما قطعت صرخة موجِعة محادثتهم. كانت قادمة من الطابق العلوي. هُرِعَ أحد الخَدَم إلى أعلى، وحضر المشهد الذي فيه يحاول هاميلتون أن يمسكَ بزوجته إيفا، بينما هي فريسة لأزمة عصبية، تطوح بسكِّين، والمربِّية على الأرض تنزف، وأبعد بقليل، الصغيرة في مهدها، لحسن الحظِّ سليمة. قُبِضَ على المرأة بتُهمة محاولة القَتْل. انتهت الفضيحة على صفحات الجرائد التي، في خلال أيَّام قليلة، سلَّطت الضوء على القصَّة القبيحة. كان لإيفا ماضٍ، كانت عاهرة، وتزوَّجها هاميلتون، لأنها أَوهَمَتْهُ بأنها تنتظر ابناً منه. ولتُكمل خطَّتها، ابتاعت المرأة طفلة، بمساعدة صديقة قديمة. هاميلتون، لأنه على دراية بماضي إيفا، قرَّر أن يترك نيويورك، ويتنقل إلى كاليفورنيا. لكن الأمور لم تسرْ كما خطَّط لها، لهذا عادوا إلى الساحل الشَّرقيِّ، في منزل أتلانتيك سيتي. أدركت المربِّية كلَّ شيء، وبدأت تبتزُّ إيفا، وإلَّا ستقول الحقيقة لهاميلتون فيما يخصُّ ابنته. ولهذا حاولت إيفا قَتْلَهَا. الخلاصة كانت فضيحة الصيف بها كلُّ المقادير لتلصق قارئ الـ "وورلد" في الجريدة: سليل عائلة نيويوركية عريقة نبيلة، تخدعه عاهرة سابقة، تلك المرأة التي لم تتورَّع عن شراء طفل في السِّرِّ لتتزوَّج، وفي النهاية المربِّية الشَّابَّة التي تدفع، تقريباً،

حياتها ثمناً للحقيقة. وهكذا انتهى مصير إيفا هاميلتون في السجن، بعد أن أُدينَت بمحاولة القَتْل، وانتهت القضية. ولكنها لم تنتهِ بالنسبةِ إلى نيلِّي بلاي. وتتقدَّم لإدارة التحرير: في فضيحة هاميلتون، استُمِعَ لقصص الجميع، ولكنْ، لم يستمع أحد لإيفا. حسناً، أعتقد أنه سيكون من المثير سماع الجانب الذي يخصُّها من القصَّة. وهكذا تقرِّر أن تحصلَ منها على حوار في سجن ترينتون، حيثُ تقضي فترة العقوبة، إنها مسألة عدالة. وبالنسبة إلى نيلِّي تلك هي الأمور التي تهمُّها بالفعل، تتقابل مع إيفا في السجن، تنظر في عينَيْها، لا تريد أن تدينها، تريد فقط الاستماع إليها. لم تجد إيفا أمامها صَحَفِيَّة، ولكنْ، امرأة تتمنَّى أن تحكيَ قصَّة امرأة أخرى وضعت نفسها في ورطة حقيقية. تقرِّر إيفا أن تثق بها، وتتجاوز الضيق المبدئي، وتحكي نسختها من الوقائع، نسخة تُلقي ضوءاً جديداً تماماً على الحادث. قبل كلِّ شيء هي لم تخدع أحداً، لأن الابنة بالفعل هي ابنتها. ثمَّ إن هاميلتون، ليس ضحية في الواقع، حيثُ إنه في أثناء علاقتهما أجبرها على الإجهاض مرَّتَيْن. لقد تزوَّجها ليس ليُخفيَ حملها، ولكنْ، لأنها هدَّدتْهُ بأن تتركَهُ. أمَّا بالنسبة إلى النقود، فإنه هو المَدِيْن لها. وفي النهاية انتقلا إلى كاليفورنيا فقط، ليتمكَّنا من أن يُعلنا للعائلة وللأصدقاء أنهما تعرَّفا وتزوَّجا هناك. الخلاصة، في هذه المرَّة أيضاً، تُعيد نيلِّي الحكاية من خلال إعادة خَلْط الأدوار أو المسؤوليات، وهي تقدِّم لـ "وورلد" مقالاً مثيراً استثنائيّاً. وبعد عام من الفضيحة، سيطفو جسد هاميلتون، وقد فارق الحياة على شاطئ نهر سنيك، النهر الذي يقع على الحَدِّ الجنوبيِّ لمنتزه يلوستون. يشكُّ أحدهم أن مَنْ قَتَلَهُ هو شريكه في الأعمال، ولكنْ، لم تقلق نيلِّي بسبب تلك النهاية التّراجيديَّة، لأنها في تلك الأيَّام ستترك صحيفة الـ «وورلد» لتُنفِّذ لجريدة بوليتزر سَبْقَهَا الصَّحَفِيَّ ربَّما الأكثر جسارة وإدهاشاً.

أسرع من إلياس فوغ

لقد نجحتِ. استغرق الأمر عاماً كاملاً. ثلاثمئة وخمسة وستُّون يوماً من التفكير من جهتهم، ولكنكِ، في النهاية، استطعت إقناعهم. تعرفين جيِّداً أن الخوف هو ما دَفَعَهُم لاتِّخاذ القرار: أرسِلوا رجلاً يُنفِّذه، وأنا سأذهب لأُنفِّذه لصالح الجريدة المنافسة. وهكذا لم يكن لديهم اختيار. جريئة، يا بلاي! وهكذا، بعد عام من هذا الحوار، وفي وقت متأخِّر من الظهيرة، في يوم اثنَيْن، بدا مثل كلِّ الأيَّام الأخرى، تُستدعين في الجريدة. طَوَالَ الطريق أخذتِ تفكِّرين في كلِّ شيء: هل ارتكبتُ خطأً فادحاً، وسيطرودونني؟ فكَّرتِ في كلِّ التحقيقات، لتفهمي أين قمتِ بالخطوة الخطأ. ربَّما أقنع بعض السِّياسيِّيْن بوليتزر بأن يتخلَّص من فتاة بيتسبرغ. أنتِ أمام مدخل الجريدة، تتوقَّفين وتنظرين إلى أعلى، تفحصين باهتمام المبنى المكوَّن من أربعة عشر طابقاً، ويطلُّ على بارك روى، إذ ربَّما تكون المرَّة الأخيرة التي تتوقَّفين فيها أسفل تلك القبَّة الذَّهبيَّة التي تحتلُّ الجزيرة. تتنفَّسين بعمق، وتعبرين العتبة. تصعدين الدرج بالقلق نفسه الذي صَعِدَت به المرَّة الأولى إلى الـ «وورلد». تعبرين المكاتب وإدارة التحرير بسرعة، لتصلي إلى غرفة المدير. تتوقَّفين، تطرقين الباب، وتدخلين. ينظر إليكِ بشكل طبيعيٍّ جدّاً، ويقول لكِ: حسناً، يمكنكِ الرحيل!

- أجل، ولكنْ، إلى أين؟ تجيبين.

يجيبكِ هو، كأن الأمر يتعلّق بحوار تبادلتُماه في اليوم السابق: سمحنا لكِ أن تحاولي القيام بجولة حول العالم في أقلّ من ثمانين يوماً، هكذا كما اقترحت في الاجتماع. هناك سفينة سترحل بعد غدٍ *إلى إنجلترا.* *اندهشتِ بداخلكِ، ولكنْ، تظاهرتِ بالهدوء، تهدئة الانفعالات جزء من مهنتكِ، توافقين على المهمَّة، كأنهم عهدوا إليكِ بمتابعة أُمسيَّة عادية في برودواي. إلَّا أنكِ لن تنسي أبداً يوم الاثنَيْن هذا، تشعرين بالفراشات تتراقص في معدتكِ في كلِّ مرَّةٍ تسمعين في ذهنكِ ذلك الصوت القائل لكِ: حسناً، يمكنكِ الرحيل! لأن تلك الرحلة غيَّرتْكِ من الداخل ومن الخارج. اجتهدتْ إليزابيث كثيراً، لتتعرَّف على نيلِّي من جديد بعد عودتها، لتحمل الثِّقل على كتفَيْها، يمكن أن تتجاهل نيلِّي الآخرين، ولكنْ، ليس إليزابيث. لحسن الحظِّ عندما وافقت لم تكن لديكِ فكرة عمَّا قد يحدث لكِ، ركَّزت فقط في مغامرتك. عند عودتكِ ستُصفِّين حساباتك مع كلِّ ما يتبقَّى. وكلُّ ما يتبقَّى سيُربكُكِ. أحياناً تُعيدين التفكير، وتبكين. تسيل دمعة ببطء على خدِّكِ، وتسقط إلى أسفل، على الغطاء الذي تضعينه على رجلَيْكِ، ليس ألماً ولا انفعالاً ولا حنيناً، إنها الأشياء الثلاثة معاً، إنها حياتكِ.*

في خطبة للجمهور عام 1889، يتأمَّل لورد ساليزبري، رئيس وزراء المملكة المتَّحدة، كيف أن «التلغراف، اختراع عجيب وساحر، جمع كلَّ الإنسانية في طابق واحد كبير، منه يمكن أن نرى كلَّ شيء يُفعَل، وأن نسمع كلَّ ما يُقال، ونحكم على كلِّ سياسة سارية، في اللحظة نفسها التي تقع فيها الأحداث». الخلاصة: إن ما حَدَثَ كأن العالم قد صغُر

حجمه. السِّكَّة الحديد، السفن البخارية والخدمات البريدية التي تزداد كفاءة كلّ يوم، جعلت الأماكن والدول والشعوب أكثر قرباً. المساحة والزمن ينافس كلٌّ منهما الآخر، ويتَّصل الأوَّل باستمرار بالثاني، أصبحت السرعة إحدى القِيَم، ونيلِّي التي تستشمُّ رائحة المغامرة المثيرة أدركتْ ذلك على الفور. لهذا اقترحتْ على الجريدة، بالفعل في خريف عام 1888، مشروع تحدِّي الرَّحَّالة الأدبيَّ الأشهر، فيلياس فوغ، بأن تحاول أن تتجوَّل حول العالم في أقلّ من ثمانين يوماً. ولكن نيلِّي تعرف شيئاً آخر. إن الخبر سيكون له صدى أقوى إذا أطلقت امرأة هذا التَّحدِّي. إنه كَسْر قانونٍ فيكتوريٍّ شديدِ المتانة حتَّى هذه اللحظة. فقد ردَّ المدير الإداري للجريدة على اقتراحها: «إنه أمر مستحيل بالنسبة إليكِ، أوَّلاً لأنكِ امرأة، وستحتاجين إلى مُرافِق، وحتَّى إن كنتِ تستطيعين السَّفَرَ بمفردكِ، فلا بدَّ أن تأخذي معكِ حقائب كثيرة ستُعرقِلُكِ في أثناء التغيير السريع للمواصلات، بالإضافة إلى أنكِ لا تتحدَّثين سوى الإنجليزية، ومن ثمَّ، فلا معنى حتَّى لمناقشة الأمر، لا يستطيع ذلك إلَّا رجل». وأغلق الموضوع على الفور، الأسطوانة نفسها سمعتْها نيلِّي بالفعل، عندما اقترحتْ، قبل ذلك بعدَّة أعوام، رحلتها إلى المكسيك على جريدة «النبأ»، وحصلت على الموافقة بشرط أن تصحبها أُمُّها. هذه المرَّة زادت نيلِّي التَّحدِّي، أرادت السَّفَرَ بمفردها، وبمفردها يجب أن تتفوَّق أيضاً على رجل تخيُّليٍّ. إن تحدِّيَ شخصية أدبية يعني، بالأساس، تحدِّيَ فكرة. وهذا معناه إثبات أن امرأة بلا (رجل)، ولكنْ، بلحمها وعَظْمها، يمكنها أن تحطِّم الرَّقْم القياسيَّ لمسافر بلا وجود. أدركت إدارة الجريدة، رغماً عنها، الإمكانيات الدِّعائيَّة لهذه المغامرة، وفي النهاية وافقت، بعد عام. استُدعيت ظَهْر يوم الاثنَيْن، واقترحوا عليها أن تسافر على متن السفينة أوغوستا فيكتوريا، التي ستُبحِر بعد يومَيْن.

ليس أمام نيلّي، إذاً، سوى ثمانٍ وأربعين ساعة، لتعدَّ لرحلتها. ولكنْ، الأهمُّ لتقرِّر ماذا تأخذ معها. كان اعتراض المدير الإداري، قبل عام، ليس نتيجة سلوك جدلي تجاهها، ولكن استنتاجاً واقعيّاً في مواجهة عادات المسافرات في ذلك الزمن. كمِّيَّة الملابس والاكسسوارت، وخصوصاً عند مراعاة تغيير الجوِّ الذي ستقابله الصَّحَفيَّة، كان يتطلَّب عدداً غير محدَّد من الحقائب والحاويات. لا بدَّ أن تُطوِّر نيلّي خطط ذلك الزمن. لا بدَّ أن تفكِّر في حقيبة خفيفة، تسمح لها بالتَّحرُّك بسرعة بين السُّفُن والقوارب والقطارات البريدية والعربات.

في صباح اليوم الأوَّل، ذَهَبَتْ إلى ويليام غورملي للفساتين والمعاطف(*)، دار أزياء تقدِّم آخر الصيحات في التقاطع بين فيفث أفينيو وشارع نينتيث. طَلَبَتْ من غورملي شخصيّاً أن يُعدَّ لها في مساء اليوم نفسه ثوباً، يمكنها أن ترتديه باستمرار لمدَّة ثلاثة أشهر. لم يرتبك التَّرْزِيُّ أمام الطلب العجيب للآنسة الشَّابَّة. فهُم في دار الأزياء معتادونَ على المهامِّ المستحيلة أو الشبيهة. في ذلك العام نفسه، على سبيل المثال، أعدُّوا لكارولين هاريسون(**) ثوباً ارتدتْهُ للرقصة الافتتاحية بمناسبة فوزها بالبيت الأبيض مع زوجها بينجامين(***). وكان الطلب، في تلك الحالة، أن يكون الثوب كلُّه أمريكيّاً، ومناسِباً لشعار الرئيس «أمريكا أوَّلاً» America first. ابتاع غورملي قماشاً من إنتاج شركة أمريكية. وطرَّز فنَّانٌ من إنديانا القماشَ الحريري برَسْم

(*) William Ghormley Robes et Manteaux

(**) Caroline Harison

(***) Benjamin Harison: رئيس الولايات المتَّحدة الثالث والعشرون في الفترة من 1889 إلى 1893

أوراق بَلُّوطة بير(*)، الشجرة التي تنمو بجوار أنهار تيبكانو كريك(**)، وكان موضوع التزيين مُختاراً على شرف جَدِّ بينجامين هاريسون، الرئيس ويليام هنري هاريسون، المعروف تاريخيّاً أنه مات بعد شهر من حصاره، الذي حارب في أثناء المعركة بقُرب ذلك النهر، وحصل بعدها على لقبه "يكانو المسنِّ". غروملي، بثقة مَنْ يعرف جيِّداً مهنته، وبعد أن أطلعَها على بعض الأقمشة، اقترح على إليزابيث "قماشاً مُمشَّطاً، مزدوج الطول، أزرق، ومعه قماش بسيط بلون الجَمَل، التركيبة الأكثر مقاومةً ومناسبةً لملابس السَّفَر". وفي الخامسة من عصر ذلك اليوم كان الثوب جاهزاً، لم يكن التُّرْزِيُّ يمكنه تخيُّل ذلك، ولكنْ، منذُ تلك اللحظة وحتَّى ثلاثة أشهر، فإن ذلك الثوب، المصمَّم والمَحوك في نصف يوم، قُدِّر له أن يصبح ثوباً للنساء الأمريكيات الأحرار American Free women. ولا حتَّى نيلِّي تعرف أنها، بعد أن استراحت لكونها استطاعت حلَّ المشكلة الأولى، ستُكرِّس الآن باقي يومها في البحث عن المعطف والحقيبة المتَّسعة بما يكفي لحَمْل كلِّ متاعها، لتترك البلدة في وقت قصير هكذا، من الضَّروريِّ أن يكون لديها جواز سَفَر مؤقَّت، وكان واجب الحصول على هذا الجواز من أجل نيلِّي قد عُهِدَ به إلى زميلها إدوارد سيمس فان زيل(***)، المحرِّر والكاتب وهاوي البيسبول. ولم تكن لتلك الهواية دَخْل كبير في جواز سَفَر نيلِّي، ولكن هذا يقول كثيراً جدّاً عن سِحْر جريدة الـ "وورلد". في أحد الأيَّام وبينما يشاهد فان زيل مباراة بيسبول بدأ يرسم على ورقة أرض الملعب. ثمَّ

(*) Burr

(**) Tippecanoe Creek

(***) Eduard Sims Van Zile

بدأ يُعلِّم ببيادق على الورقة موقع كلِّ اللّاعبين وكلِّ المعلومات الأخرى الخاصَّة بالمباراة. الخلاصة، عثر على طريقة بسيطة، ليجعل ما يحدث في الملعب مَرئيّاً. لاحظ أحد المعاونين المقرَّبين من بوليتزر هذا المخطَّط، واقترح أن يحصل على حقِّ الاختراع، وفعل ما قاله. وهكذا نشأت فكرة نشرة المعلومات Bulletin Board وBase Ball Indicator نظام يسمح بالرؤية في الوقت الفعلي لما يحدث في الملعب. وبهذا كان يكفي تلغراف لمتابعة المبارة براحةٍ بعيداً عن الاستاد. وفي الـ "وورلد" فهموا على الفور أن هذه الأداة ثورية. وقرَّروا أن يُنتجوا واحدة أكبر، أكبر بكثير جدّاً، وأن يضعوها أمام مبنى التحرير بمناسبة مباريات البيسبول، ونالت الفكرة نجاحاً عظيماً، إلى حَدِّ أنه في أثناء مباريات البطولة كان يتجمَّع في مدخل الجريدة أكثر من ستَّة آلاف من المشجِّعين، ليتابعوا مباشرة ماذا يحدث في اللقاءات. كانت هذه هي اللمسة السِّحْرِيَّة لجريدة الـ "وورلد"، ولكنْ، فان زيل الآن لا بدَّ أن يُنجِزَ سِحْراً من نوع آخر، وهو أن يحصل في وقت ضيِّق جدّاً على جواز سَفَر مؤقَّت لبلاي. وبناءً على تكليف من المدير يصل إلى واشنطن في قلب الليل، ويتوجَّه إلى منزل وزير الخارجية جيمس ج. بلين، الذي سيعمل على أن يُسلِّمَهُ الجواز بعد ظُهْر اليوم التالي. وفي الرابعة والنصف صباحاً يوم الأربعاء يعود فان زيل إلى نيويورك وفي يده الجواز الخاصُّ رَقْم 247. وقد أنجز المهمَّة. وبهذا يبقى تقرير الميزانية الاقتصادية للرحلة. ستأخذ نيلِّي معها مئتَي جنيهٍ إسترلينيٍّ من البنكنوت والعملات الذَّهبيَّة. ستضيف أيضاً بعض الدولارات، لتختبر إلى أيِّ مدى تلك العملة معروفة ومقبولة خارج الولايات المتَّحدة. نحن ما زلنا في بدايات تلك التي ستصبح إحدى القوى العالمية، ولا يجب أن نندهش من فضول نيلِّي، والجريدة، بشأن شعبية أمريكا في الخارج.

في الأُمسيَّة السابقة للسَّفَر تواجه إليزابيث في المنزل التَّحدِّي الأصعب: المتاع. لا بدَّ أن تقرِّر الأشياء الضَّروريَّة لتضعها في الحقيبة. وبعد محاولات عديدة، تقرِّر أن تأخذ معها قُبَّعَتَيْن للرحلة، ثلاثة أوشحة، خفَّين، مجموعة كاملة من أدوات التجميل، محبرة، أقلام، أقلامَ رصاص، وورقَ كربون، دبابيس، إبرة وخيط، روب حمَّام، سترة رياضية للتنس، مصباحاً يدويّاً صغيراً وفنجاناً، غيارات داخلية متنوِّعة، مجموعة مختارة من المناديل الجميلة، وبالتأكيد لم تستغنِ عن عبوة من الكريم المرطِّب. تخلَّت عن ثوب للسهرة. من الأفضل أن تفقد بعض المناسبات الاجتماعية بدلاً من أن تجلب خلفها حقائب وحاويات. شيء واحد ستندم عليه نيلّي في أثناء تلك الرحلة، بأنها لم تضع في حقيبتها آلة تصوير كوداك. قبل عدَّة أعوام، عام 1884، اخترع جورج إيستمان(*)، موظَّف مصرفي تحوَّل إلى الصناعة، آلة تصوير للجيب. الأمر تعلَّق بثورة فعلية وحقيقية، فقد كان يمكن أيُّ شخص، وأينما كان، أن يلتقط صوراً، في العمل، في أثناء الرحلات، وفي وقت الفراغ: "أنتَ تضغط الزِّرَّ، ونحن نتولَّى الأمر"، وكان هذا هو الشعار الدِّعائيُّ الذي ظَهَرَ على صفحات الجرائد في ذلك العصر. ومَنْ كان يسأله لماذا أطلقتَ عليها اسم كوداك، كان إيستمان يجيب لأنه بدا له اسماً سهلاً يمكن تذكُّره بكلِّ اللغات، ولكن نيلِّي لم تتذكَّره في ذلك المساء، ولكنْ، تذكَّرت خاتمها جالب الحظِّ، الذي ارتدتْهُ في اليوم الذي عُيِّنت فيه في جريدة الـ "وورلد" ولم تنفصل عنه منذُ تلك اللحظة.

وفي صباح الرابع عشر من نوفمبر عام 1889، أبحرت *أوغوستا*

---

*) George Eastman

فيكتوريا من نيويورك إلى لندن، وهكذا بدأت نيلّي جولتها حول العالم. وعندما وصفت الجريدة رحيلَها، أشارت إلى كيف صافحت إليزابيث الجميعَ دون أدنى علامات خوف أو توتُّر. في الواقع، عندما دوَّت صَفَّارة السفينة، وبدأ العالم يزيد في الابتعاد، شعرت نيلّي لِلَحظة بالضياع. سنُّها خمسة وعشرون عاماً، وباستثناء رحلة المكسيك المثيرة، لم تترك الولايات المتَّحدة قطُّ. الآن يجب عليها أن تواجِهَ بمفردها رحلة مهمَّة جدّاً، ومليئة بالغموض: "لم يعد العالم يبدو دائريّاً، ولكنْ، مسافة هائلة بلا نهاية". جاءتْها تلك الأفكار الحزينة، ولكنها ابتعدت على الفور بسبب مشكلةٍ أكثر إلحاحاً: دوار البحر. كان كابوساً حقيقيّاً بالفعل، حاولت نيلّي تناوُل الغداء، وحاولت تناوُل العشاء، ولكنْ، في كلِّ مرَّةٍ كانت تُجبَر على ترك الصالة بأقصى سرعة، بسبب الغثيان الشديد: "كنتُ قد قرَّرتُ أن أقاومَ الانقباضات، ولكنْ، في أعماق قلبي كان لديَّ الشعور بأنني أواجه شيئاً أكبر بكثير من إرادتي". كانت نصيحة رفاق السفينة الأكثر خبرة هو أن تُجبِرَ نفسَها على تناوُل الطعام. لا تستسلمُ نيلّي، وهكذا، بعد تلك الليلة الأولى المتعبة جدّاً، ونوم طويل منعِش استمرَّ حتَّى عصر اليوم التالي، اختفى دوار البحر كالسِّحْر. عقدت المراسلة الشَّابَّة صداقةً مع فتاة أمريكية، تسافر وحدها، لتلحق بأبَوَيْها في ألمانيا. كانت من نوع النساء اللَّاتي يُعجبْنَها: مليئة بالحيوية، منفتحة، ذكية جدّاً، وتتمتَّع بالأنوثة، نموذجاً ملموساً ومحبوباً من المرأة الجديدة. ثمَّ كانت هناك حكايات القبطان والمسافرين ذوي العادات الأكثر غرابة، والمحادثات الطويلة المسائية. مرَّت الأيَّام سريعاً، مثلها مثل الأميال التي تفصل السفينة عن إنجلترا. وبينما يجلس الجميع حول مائدة الطعام، يعلن أحدهم أن الأرض على مَرمَى البصر، وفي 21 نوفمبر تصل

أوغوستا فيكتوريا بالقُرب ميناء ساوثهامبتون(*). وفي الساعة الثانية صباحاً يقترب زورق سَحْب من السفينة. تصافح نيلِّي رفاق الرحلة، وتتَّجه نحو السُّلَّم، لتترك السفينة.

- نيلِّي بلاي؟

يسألها شخص طويل القامة، سمع أحدهم يناديها بينما تنزل السلالم.

إنه تريسي غرافس، مراسل الـ "وورلد" في لندن.

يتصافحان، ويصعدان معاً على متن الزورق.

- سيسعد السَّيِّد والسَّيِّدة فيرن(**) بلقائكِ.

أجابت نيلِّي: وكيف يمكنني رَفْض دعوة مغرية كهذه؟

- ولكنْ، لكيلا نعبث بخطِّ سَيْركِ، لا بدَّ أن تكوني مستعدَّة للسَّفَر يومَيْن متواصلَيْن بلا توقُّف للراحة.

- ليس النوم هو المهمَّ بالنسبة إليَّ، المهمُّ ألَّا أُضيِّع مواعيد السَّفَر المتَّصلة.

- إذا استطعْنا أخذ القطار المتَّجه إلى لندن هذا المساء، سنتمكَّن من ذلك.

- وماذا ننتظر إذاً؟ هيَّا، بسرعة!

(*) Southampton

(**) Jules Verne: الرِّوائيُّ الفرنسي المشهور مؤلِّف 80 يوماً حول العالم

وَصَلاَ إلى لندن في الصباح الباكر، واتَّجه الاثنان إلى إدارة التحرير الإنجليزية لـ "وورلد"، ومن هناك استأنفا حتَّى وَصَلاَ إلى مكاتب السفارة الأمريكية، حيثُ كان لا بدَّ أن تستلم نيلِّي جواز السَّفَر. طلب منها السفير أن توقِّع على بعض النماذج. وبتحفُّظ شديد أخذها جانباً، بحيث لا يَسمع غرافس، وسألها عن تاريخ الميلاد، عند هذه النقطة من القصَّة لدينا نسختان، تحكي نيلِّي في كتابها أنها لم تكن لديها أيُّ مشكلة في أن تكشف سنَّها للزميل، ومن ثمَّ تخرق قانوناً فيكتوريّاً صلباً آخر، إلَّا أنه في سَرْدِ ذلك الحَدَث، لم تكن هناك أيُّ إشارة إلى السِّنِّ المعلَنة. ولكن غرافس، يذكر أن الأمور سارت بشكل مغاير: بإشارة صغيرة جَذَبَتْ إليزابيث إلى زاوية موظَّفاً في السفارة بطريقة لا يمكن من خلالها أن يسمع زميلها الرَّدَّ": ظلَّت سنُّ نيلِّي مجهولةً أيضاً في قصَّة مراسل لندن. ولكن الجانب الأكثر إثارة لهذا الحَدَث هو أنه كُشف، فيما بعد من خلال كاتبة بيوغرافيا إليزابيث الإنجليزية، بروك كروجر(*)، التي استطاعت الحصول على ذلك الجواز: إن نيليَّ في ذلك الموقف كذبت، وصرَّحت لموظّف السفارة أنها من مواليد 1867، بدلاً من التاريخ الحقيقي 1864. لماذا؟ ربَّما لأنها أرادت أن تؤكِّد أيضاً على فكرة أنها فتاة أمريكية حُرَّة Free American girl. كأن إليزابيث تعتقد بوضوح أن حظَّها يأتيها من شخصية نيلِّي بلاي، الفتاة الشجاعة والمقدامة التي لا تتوقَّف أمام أيِّ عائق. وأن تلك الفتاة لا بدَّ أن تظلَّ كما هي، ولا يمكنها أن تشيخ. ولا يجب أن تشيخ. ومِن ثمَّ، أيّ مناسبة أفضل من تلك المقدَّمة في وثيقة رَسميَّة، يمكنها من خلالها أن تعيد الزمن إلى الوراء ثلاثة أعوام؟

(*) Brooke Kroeger

بمجرَّد الانتهاء من المسائل البيروقراطية، اتَّجه الاثنان إلى مكاتب شركة شبه الجزيرة الشَّرقيَّة للملاحة البخارية(*)، الشركة التي تغطِّي سفنها الجزء الأكبر من الرحلات المفيدة في سباق نيلِّي مع الزمن، وبمجرَّد أن ابتاعا التذاكر، اتَّجها بسرعة كبيرة إلى محطَّة شارينغ كروس، حيثُ قطارٌ ينتظر، ليأخذهما إلى القناة الإنجليزية، ومن هناك سفينة إلى فرنسا. بمجرَّد أن صَعِدَت إلى القطار، نعست نيلِّي. أشار رفيق رحلتها إلى المنظر الطَّبيعيِّ وراء النافذة: انظري كم هو رائع الجمال! ولكنها لم تستطع أن تحتفظ بعينَيْها مفتوحَتَيْن: "ماذا يعني منظر طبيعي مقارنة بالنوم لمَنْ لم يلمسْ فراشاً منذُ أربع وعشرين ساعة؟".

سار القطار المتَّجه من بولوني إلى أميان(**) بمحاذاة نهر السوم، الذي يمنح الاسم للمقاطعة بأكملها. بعد أن استراحت نيلِّي بدأت ترى تتابع المستنقعات، والمزارع الصغيرة والطاحونات القديمة. كانت تفكِّر، وهي تسند رأسها إلى النافذة الصغيرة، في كروكد كريك، نهرها، في طاحونة المياه والجري حتَّى تقطع الأنفاس في حقول الشوفان، والوقت الذي قضتْهُ هناك، وكيف تغيَّرت حياتها بشدَّة. فكَّرت، من جديد، في أيَّام مراهقتها التعسة، عندما بدا لها أنها فَقَدَتْ كلَّ شيء، وعندما وَصَلَتْ إلى قناعة أنْ لا مكان لها في هذا العالم، إلَّا أن الأمر ليس كذلك. لقد أرادت مكانها، بكلِّ قوَّتها، واستطاعت الحصول عليه. الآن هذا القطار سيأخذها إلى جول فيرن، الكاتب الأكثر شعبية وشهرة في العالم، وأكثر من ذلك أنه هو الذي أرسل يُخبرها أنه يرغب في لقائها.

(* Peninsular and Oriental Steamship Company

(** Boulogne - Amiens

بينما تفكِّر في كلِّ هذا، تنظر حولها، ولا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير أن قطارات الفرنسيِّيْن والإنجليز ليست مريحة مثل تلك الأمريكية، حيثُ يجد المرء نفسه فيها مُجبَراً على أن يتقاسم مساحة ضيِّقة مع مسافرين آخرين، وجوههم متقاربة وأرجلهم أيضاً. ولم تكن هذه نزعة تنافس محليٍّ من وراء المحيط. "لا خصوصيَّة أفضل"، شرحت نيلِّي لزميلها غرافس، "من عربة كبيرة أمريكية مليئة بالغرباء، حيثُ يُخصَّص مكان لكلٍّ منهم. ولهذا لا مجال للدهشة من أن الفتيات الأمريكيات لا يخفنَ من السَّفَر بالقطار بمفردهنَّ، لأنهنَّ معتاداتٌ جمهورَ المسافرين الكبير، وكلُّ شخص يساهم في زيادة ذلك الجمهور هو بالنسبة إليهنَّ شخصٌ يعمل على حمايتهنَّ. عندما تعلِّم الأُمَّهات أولادهنَّ أن الأمان في الازدحام، وأن الجمهور يلعب دور حُراس الحماية لكلِّ النساء، عندئذٍ يمكن تجاوُز فكرة «المرافق»، وتزيد كرامة النساء. وبينما يومِئ غرافس، يعلن صوت في القطار أنهم وَصَلُوا إلى محطَّة أميان.

وعلى الرصيف، وَجَدَا روبرت هاربورو شيرارد(*)، مراسل الـ «وورلد» في باريس، مع زوجَيْن من السادة المُسنِّين، كان شَعْره ناصع البياض، ولحيته طويلة، أكثر بياضاً من شَعْره، ويرتدي نظَّارة سوداء لامعة. أمَّا هي، فكان وجهها بلا أيِّ تجاعيد، يحيط به شَعْر ناصع البياض، ونظَّارة كبيرة ومُغرية. كانا الزَّوجَيْن فيرن، اللَّذَيْن يستقبلانها في المحطَّة بود. توجَّهوا جميعاً نحو المنزل. تشعر نيلِّي بالحرج قليلاً، لأنها لا تعرف الفرنسية، ولكنهما حاولا جاهدَيْن أن يُشعِراها بالراحة، ونَجَحَا في ذلك. وبينما يجلسون على الأريكة أمام نار المدفأة، كانت السَّيِّدة فيرن تُربِّت على قطَّتها، وتنظر بلطف إلى تلك الشَّابَّة الأمريكية التي قرَّرت أن تتحدَّى

(* Robert Harborough Sherard

فيلياس فوغ، الشَّخصيَّة الأدبية التي أبدعها زوجها. سألها فيرن عن مسار الرحلة، وأطلعتْهُ نيلّي عليها ببعض الفخر: من نيويورك إلى لندن، ثمَّ كاليه، برينديزي، بورسعيد، الإسماعيلية، والسويس، عدن، كولومبو، بينانغ، سينغافورا، هونغ كونغ، يوكوهاما، سان فرانسيسكو، نيويورك. وقبل أن ترحل سألت نيلّي إذا كان بإمكانها زيارة مكتب فيرن. أرادت رؤية الحجرة التي يكتب فيها الكاتب رواياته. دُهشت من شدَّة بساطتها: «مكانٌ صغيرٌ عارٍ»، ستكتب. كانت تتوقَّع مكتباً غير منظَّم، تملؤه الأوراق والأقلام والمخطوطات، إلَّا أن كلَّ شيء كان في مكانه، قدَّم لها فيرن المخطوطة الوحيدة الموضوعة على المكتب، ودوَّنت نيلّي:

> صُدمتُ من النظام الشديد للكاتب الفرنسي. في بعض الأجزاء محا شيئاً ما، ولكنْ، لم يكتب بين السطور، الذي دَفَعَني على التفكير بأن فيرن يُحسِّنُ من عمله بحَذْف ما يزيد منه، لا بالإضافة.

خارج المكتب مكتبةٌ ضخمة، جدرانُها بأكملها مكدَّسةٌ بالكُتُب من الأرضية حتَّى السقف، ولكن الوقت متأخِّر الآن، ولا بدَّ من العودة إلى المحطَّة. يقترح فيرن قبل أن يُودِّعها أن يشربوا نخبها، وبإنجليزية ذات لُكْنَة، رَفَعَ كأسه، وهو يرجو لها النجاح في مبادرتها: Good luck, Nellie Bly.

في نيويورك، كانت تصل أخبارها على فترات، وبعد الشعلة الأولى للرحيل ولِلِقاءٍ مع فيرن، وهو الحَدَث الذي أعاد من جديد في فرنسا حركة بيع رواية "حول العالم في ثمانين يوماً"، أصبح من الصعب الحفاظ

على انتباه القارئ لهذه الرحلة البعيدة، أيضاً لأن أنباء إليزابيث كانت تصل متأخِّرة جدّاً، بينما كانت رسائلها عن طريق التلغراف وجيزة جدّاً، ليُكتب منها مقال، وتسلَّل القلق إلى إدارة التحرير. وكما يحدث دائماً في تلك الحالات، يُعقَد اجتماع، لأنه من خلال مناقشة الجميع يمكن أن تظهر بعض الأفكار الجيِّدة. ليس لهذا فحسب، بل لأنه توجد أيضاً مشكلة "Cosmopolitan"، إحدى المجلّات الأولى المصوَّرة الشَّعبيَّة، ولكنها ذات جودة عالية، أسَّسها منذُ ثلاث أعوام بول ج. شيلشت[*]، يحاول محرِّرها الجديد ومديرها جون بريسبن ووكر[**] بكلِّ الطُّرُق أن يعيدَ طَرْحَها في الأسواق بسعر مُخفَّض، ويُحسِّن من الصور، ويضمُّ إلى مقالات الموضة والمجتمع بعضَ المقالات الأخرى الخاصَّة بالأحداث الآنية، كان يريد أن يربط المجلَّة برحلة نيلِّي، ليستخدمَ لصالحه صدى هذه المبادرة، قرَّر إذاً أنه لا بدَّ أن تتحدَّى صَحَفِيَّة من "الكوزموبوليتان" بلاي، وأعلن أن إليزابيث بيسلاند[***]، وهي من أهمِّ الكاتبات في المجلَّة، ستقوم برحلة حول العالم في الاتِّجاه المعاكس، وبأنها ستقوم بها أسرع من نيلِّي بلاي. يطلب ووكر موعداً مع إدارة الـ "وورلد"، فهو يريد أن يعلنا معاً إلى رجال "بارك رو" السباقَ بين المرأتَيْن. ويبدو للجميع أن الموافقة على اقتراح ووكر يعني أن يربح هو بمفرده. فالمجلَّة الشَّهريَّة، في واقع الأمر، ستستفيد من الدعاية اليومية لجريدة بوليتزر. وجاء القرار بتجاهُل الأمر برُمَّته، وألَّا يُنشَر ولا سطر واحد عن رحلة بيسلاند. ولكنْ، تبقى مشكلة الاحتفاظ بالاهتمام المرتفع من الجمهور. وخَطَرَ في بال

(*) Paul J. Schilcht

(**) John Brisben Walker

(***) Elizabeth Bisland

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحدهم أن رواية فيرن، منذُ أكثر من خمسة عشر عاماً، كانت قد نُشِرَت في حلقات، وأن القُرَّاء في كلِّ هذا الوقت كانوا يتراهنون على نتائج الرحلة، تحوَّل الأمر وقتها إلى ظاهرة عالمية، فقد كان المعجبون بالكاتب الفرنسي يتبعون أحداث رحلة فوغ بأن يجمعوا المعلومات عن مواعيد القطارات، والوَصْلَات، والمسارات البَحْرِيَّة. لماذا لا نُحفِّز الاهتمام نفسه بأن نطرح مسابقة بين القُرَّاء؟ مَن يستطِعْ أن يخمِّن بالتدقيق كم عدد الأيَّام والساعات والدقائق ستستغرقها نيلِّي لتُكملَ جولتها حول العالم، فسيفوز برحلة إلى أوروبا. واتُّفق على الفكرة، وتَقَرَّرَ أن تنشر الجريدة كلَّ يوم جُزء يُقطع، وعلى القارئ أن يُكملَهُ ويُرسلَهُ مع توقُّعاته إلى الجريدة. وكانت مسابقة نيلِّي بلاي لعبة التَّوقُّعات Nellie Bly Guessing Game Contest. وقفزت مبيعات الجريدة إلى أعلى. وأخيراً أصبح لدى رجال بليتزر أداة قيِّمة، تقدِّم لهم أفكاراً جديدة وعديدة، من خلالها يمكنهم الكتابة كلّ يوم عن رحلة بلاي دون أيِّ خبر من نيلِّي. في الواقع بفضل المسابقة كان هناك مادَّة جديدة، يمكن صياغتها في صفحات عديدة من الجريدة: عن توقُّعات القُرَّاء، وعن تعليقاتهم الخاصَّة بأماكن مسار الرحلة، ودخل التسويق في الإدارة، واستمرَّت نيلِّي من جهتها في رحلتها دون أن تدري بما يحدث في نيويورك. واكتشفت، على سبيل المثال، فقط في منتصف الرحلة عن منافسة زميلتها من "كوزموبوليتان". الآن هي على متن القطار البريدي، Indian Mail، الذي سيأخذها من كاليه في فرنسا إلى بريندزي، عابرةً "إيطاليا المشمسة" على طَوَالَ سواحل البحر الأدرياتيكي. الانطباع الذي تكوِّنه عن البلد لم يكن في مستوى توقُّعاتها، وإن قيل إن ظروف السَّفَر والتعب المتراكم بسبب المجهود الأكبر، الذي تسبَّبت فيه الانحرافة إلى أميان، تؤثِّر بقوَّة في

حُكْمها. على الرغم من كلِّ شيء، لم تفتقد السِّحْر. في وقفة في أثناء الغروب، تكتب نيلي:

> رأيتُ من أحد الجانبَيْن شاطئاً جميلاً وخليجاً هادئاً تملؤه مراكب ذات أشرعة مختلفة الأشكال زاهية الألوان، كانت تدفعني للتفكير في فراشات عملاقة، تغطس بلا كَلَل بحثاً عن العسل. الجزء الأكبر من الأشرعة حمراء وتحت الأشعَّة الأخيرة الساخنة للشمس قبل المساء تبدو أنها تشتعل بالنيران. ومن الجانب الآخر، يرتفع جبلٌ عالٍ وصارم، المنازل البيضاء المتراصَّة على الجانب المتعامد تسبَّبت لي في الدوار.

عندما وَصَلتْ إلى برينـدزي، وفي أثناء الانتظار لتبحر على الباخرة فيكتوريا، التي ستحملها إلى كولومبو أكبر مُدُن جزيرة سريلانكا، قرَّرتْ أن ترسل تلغرافاً إلى نيويورك. نظر إليها عامل التلغراف الشَّابُّ، وبإنجليزية ممتازة، وببعض الحَرَج، سألها أين تقع نيويورك، أدْهَشَها هذا الأمر، وسلَّاها.

الرحلة الطويلة على الباخرة فيكتوريا منحت نيلِّي الفرصة لتُظهِرَ مرَّةً أخرى ضِيْقها من الإنجليز: "كنتُ أرتعد من فكرة مقابلة مسافرين إنجليز بكلِّ أحكامهم المسبَّقة المشهورة، وكنتُ أعرف أنني سرعان ما سأُواجههم". في الواقع كانت هي نفسها لديها أفكار مسبَّقة عن رعايا صاحبة الجلالة. تظهر راكبتان إنجليزيَّتان، تصعد معهما على

متن الباخرة على الفور بأنهما سخيفتان، وطاقم السفينة الإنجليزي غير كفء، والقبطان الإنجليزي للسفينة غير مهذَّب، والمضيفون الإنجليز لا يحضرون عندما يحتاج أحدٌ إلى مساعدتهم، وعندما يحضرون، فهم غير قادرين على حلِّ أيِّ مشكلة. تنظيم دوريات الغداء والعشاء كارثي. هل الموسيقى المعزوفة تصلح لرقصة على الجسر؟ فبالنسبة إليها هي أسوأ ما سمعتْ. وذلك دون أن تتحدَّث عن موظَّفي الخدمة: "وقاحةُ وجسارةُ موظَّفي الخدمة الأمريكيِّيْن معروفة، ولكنْ، إذا كان موظَّفو "فيكتوريا" هم نموذج موظَّفي الخدمة الإنجليز، فأنا سعيدة أن أحتفظ بما لدينا". تعكس نبرتها، وتمنح الانطباع للقُرَّاء بأنها لديها خبرة كبيرة وطويلة في السَّفَر. إلَّا أن الأمر، كما نعلم، يتعلَّق بأوَّل رحلة لها. نيلِّي تقمَّصت شخصية مسافرة ذات خبرة طويلة. تنكُّرٌ جديد. ربَّما الأكثر نجاحاً. إلى درجة أن عديداً من رفاق السَّفَر على فيكتوريا اعتقدوا أنها وريثة غنية غريبة الأطوار. وَصَلَتِ الباخرة إلى بورسعيد، حيثُ توقَّفت لتتزوَّد بالفحم. لديها وقت لتترجَّل وتتجوَّل في المدينة، ثمَّ تعود على متنها مرَّةً أخرى. وكانت هذه فرصتها لترى سُكَّان البلدة. تكتب نيلِّي ملاحظتها عن مجموعة من السَّيِّدات المصريَّات:

> كُنَّ قصيرات القامة، ويرتدينَ ملابس سوداء مختلفة، وجوههنَّ، من أسفل العينَيْن مغطَّاة بأوشحةٍ سوداء، تنزل حتَّى الرُّكبَتَيْن. كأنهنَّ يخشينَ ألَّا يخفي الوِشاح كلَّ ملامحهنَّ، كنَّ يرتدينَ أيضاً قطعة من القماش تغطِّي الوجه من الشَّعْر حتَّى الوشاح، وتنزل حتَّى طرف الأنف. أحياناً كانت تلك القطعة من القماش تبدو ذهبية اللون، وأحياناً أخرى سوداء.

بمجرَّد أن انتهت من جولتها، عادت إلى السفينة، ومعها، كذكرى وحيدة من المكان: قُبَّعة، لتحميَها من الشمس، ووشاح، لتلفَّهُ حولها.

في صباح اليوم التالي، عبرت السفينةُ قناةَ السويس، التي افتُتِحت أوَّل مرَّةٍ منذُ نحو عشرين عاماً، وتسبَّبت في ثورة في الطُّرُق الملاحيَّة نحو الشرق. فيلياس فوغ نفسه، لم يكن باستطاعته إكمال رحلته التَّخيُّليَّة التي قام بها فيرن دون قناة السويس. تحتاج السفينة إلى يومَيْن تقريباً لتعبرها وتدخل إلى البحر الأحمر. يبدو أن الوقت لا يمرُّ قطُّ على متن السفينة. المَلَل هو غالباً الرفيق الحقيقي للرحلة. وخصوصاً بالنسبة إلى النساء. وتمنح هذه الظروف نيلِّي الفرصةَ لتفكِّر كيف أن المواقف نفسها يكون لها ثقل مختلف على الرجال والنساء في زمنها. تقدِّم رحلة طويلة بالسفينة فرصاً قليلة جدّاً للتسلية للسَّيِّدات، لكن الأمر بالنسبة إلى الرجال مختلف تماماً:

> بفضل الكريكيت، لمَنْ يهواه، ولعبة إلقاء الخواتم، وصالة المدخِّنين، حيثُ تحدث مباريات كثيرة مثيرة برهانات كبيرة على اللعب، أو حتَّى ساعة أو أكثر تمرُّ في زاوية الجسر مع صحبة تسرُّ العين لشخصية من الجنس الآخر، بل اتَّضح أن الراحة الإجبارية تعجب الرجال.

بمجرَّد أن وَصَلُوا إلى ميناء عَدَن في اليمن، توقَّفت السفينة مرَّةً أخرى، لتتزوَّد بالفحم، وَصَلَتْ نيلِّي بمركب إلى الميناء، لتزور المدينة. لاحظت وأعجبت بلافتة مكتوب عليها أسعار سائقي العربات والمراكب، ووَصَلَتْ إلى نتيجةٍ، هي:

حتَّى في ذلك، لحماية الأجانب الذين لا يعرفون، ولا حول لهم ولا قوَّة، اتَّخذ ذلك البلد إجراءات احترازية كبيرة أكثر ممَّا تفعله نيويورك، حيثُ يحصل السائقون على أسعار مبالغ فيها، وهم مستعدُّون دائماً لنزع ستراتهم، والشجار إذا لم يُوافَق على مطالبهم.

يصدمُها جمال النساء اليمنيات، رائعات، أجسادهنَّ منحوتة تقريباً، "يرتدينَ رداءً خفيفاً في وسطهنَّ، متروكاً ليسقط حتَّى الرُّكبَتَيْن، ثمَّ يُمَرَّر من الوراء على الظَّهْر والأمام، ليغطِّي الجذع". بعد هذه الوقفة، أبحرت السفينة تجاه كولومبو، ولتمضية الأُمسيَّات، نَظَمَت بعضُ الفتيات عروضاً صغيرة مستوحاة من جنسيات المسافرين. أردنَ أن يصنعنَ علَماً أمريكيّاً، وطلبنَ المساعدة من نيلِّي، لأنهنَّ ليست لديهنَّ فكرة دقيقة عنه. وفي أثناء العرض بالفانوس السِّحْرِيِّ، ظَهَرَتْ صورة الملكة فيكتوريا، ممَّا أثار تصفيقاً حارّاً جدّاً من المسافرين الإنجليز. وفي هذه الفرصة عثرت إليزابيث أخيراً على جانب مثير للإعجاب في رعايا جلالتها، وهو احترامهم للعائلة المالكة. على الرغم، تؤكِّد هي "من أنني من جذور أمريكية صلبة، ومقتنعة أن ما يهمُّ هو ما نُنجزه، وليس إلى مَنْ ننتسب". ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أن كلَّ هذا الحُبِّ لتلك المرأة، لأنها، في نهاية الأمر، امرأة، منبعُهُ بلا شكَّ تلك الرعاية التي شملت بها الملكةُ مصالحَ رعاياها، على خلاف أبطال الحياة السِّياسيَّة الأمريكية، بحسَب رأيها.

وأخيراً رَسَتْ سفينة فيكتوريا في كولومبو. هناك لا بدَّ أن تُغيِّرها بالسفينة أورينتال، التي ستحملها إلى هونغ كونغ. سيكون الانتظار

طويلاً، لأن السفينة لا يمكن أن ترحل دون أن تحمل على مَتْنها مسافري باخرة أخرى، نابول، ولكنها راكمت تأخيراً ملحوظاً. بعد أن جرَّبت نيلِّي نشوةَ الوصول إلى الشاطئ على طواف، استقرَّت في جراند أورينتال، فندق رائع بأروقة مبلَّطة، ورَدْهَات واسعة مزيَّنة بمقاعد صغيرة، يمكن للضيوف الجلوس عليها، واحتساء عصائر الليمون الطازجة، أو تذوُّق الفواكه المحلِّيَّة الشَّهيَّة. في كولومبو رأت للمرَّة الأولى مَنْ يستخدم العملة الأمريكية. كانت مفاجأة سارَّة، وإن كان سِعْر العملة المُطبَّق لم يكن بالضرورة في صالحها. ولكن الأمر المثير للدهشة أكثر والغريب هو الطريقة التي يستخدم بها تجَّار كولومبو العملة الذَّهبيَّة للعشرين دولاراً: فهم يُؤطِّرون العملة بخاتم، ويعلِّقونها في سلسلة الساعة للتزيين. وكلَّما عُلِّقت عملات أخرى، كلَّما أعلن التاجر ثراءه. اكتشاف آخر مثير هي البونكا punka، وهي مراوح معلَّقة في السقف تُنفَّذُ بشرائح طويلة من الأقمشة، مربوطة في عوارض من البامبو، ومعلَّقة فوق الطاولات، وتتحرَّك من خلال بكرة حبل، يشغلها رجل أو صَبِيٌّ. كانت الإقامة في كولومبو ممتعة جدّاً، وطعام فندق الجراند أورينتال شهي للغاية، والخدمة لا غبار عليها. الخلاصة: لم تكن تشبه في أيِّ شيء سفينة فيكتوريا. ولكنْ، لم يُبعِدْ كلُّ هذا الرَّخاءِ عنها توتُّرَ التَّأخُّر في الرحيل. إن تأخُّر باخرة نابول يتسبَّب في مخاطرة تأخُّر برنامج رحلة نيلِّي. بعد مرور خمسة أيَّام، وفي إحدى الأُمسيَّات على العشاء، أُعلِنَ رحيلُ باخرة الأورينتال في صباح اليوم التالي. في الواحدة أبحرت السفينة، واستعادت نيلِّي بعضاً من بهجتها. قبل كلِّ شيء كانت الخدمة على متن السفينة تُقدَّم بعناية أكبر من تلك التي اختبرتْها على سفينة فيكتوريا. ليس هذا فقط، بل بدأت هي تعتاد أكثر أن تقف على الجسر في وقت الغروب لمدَّة

أطول، وتعلَّم أن تستمتع بتلك الدقائق التي فيها يتوقَّف الزمن، ويبدو فيها كلُّ شيء بعيداً ومسالماً: سباقها مع الزمن، عملها في الجريدة، الذي كان في السنوات الثلاث الأخيرة قاتلاً، والحياة اللَّاهثة في مدينة فوضوية مثل نيويورك.

> فقط فوق البحر الأزرق الكبير العظيم، يشعر المرء بأنه يُهدهد في راحة تامَّة [...]، مع الشعور بأنه يُبحِر ويطوف. لا يمكن رؤية أيِّ شيء، أو معرفة أيِّ شيء، ولا يشعر بالقلق من المجانين الفانين الذين يتفنَّنون للبقاء على قيد الحياة.

وكان هذا ما يلزمها،لتستعيد قواها وحماسها. توقَّفت السفينة في بينانغ ماليزيا، ثمَّ بالقرب من سينغافورا. وفي الثالث والعشرين من ديسمبر، تصل نيلِّي أخيراً إلى هونغ كونغ، يومَيْن قبل المتوقَّع من خطَّتها. وفي سعادة شديدة بسبب معجزة الأورينتال توجَّهت على الفور إلى مكاتب شركة السفن البخارية للشرق والغرب، لتسأل عن أخبار أوَّل سفينة مبحِرة إلى اليابان. وهناك تكتشف شيئَيْن، يقضيان على كلِّ حماسها. هناك امرأة أخرى تحاول أن تتجوَّل حول العالم في أقلّ من ثمانين يوماً من الشرق إلى الغرب. اسمها إليزابيث بيسلاند، صَحَفِيَّة في الكوزموبوليتان، وتسبقها حاليّاً. والخبر السَّيِّئ الآخر هو أنها لا يمكنها أن تُبحِر من هونغ كونغ قبل خمسة أيَّام أخرى، ولا بدَّ بعدها أن تنتظر خمسة أيَّام أخرى قبل أن ترحل إلى يوكوهاما. ولكنْ، اعتادت نيلِّي دائماً ضربات القَدَر، فهي تحدث لها منذُ كانت في السادسة من عُمُرها، ودون أن تُحبَط أجابت عامل شركة الشرق والغرب بالابتسامة التي ميَّزتْها دائماً: لقد وعدتُ رئيس التحرير بأنني سأُجري الجولة حول العالم في

خمسة وسبعين يوماً، وإذا نجحتُ في ذلك، فسأكون سعيدة، ولستُ في سباق مع أحد، سوى الزمن.

وفي الأيَّام التي قضتْها في هونغ كونغ زارت نيلِّي جميع أنحاء المستعمرة الإنجليزية. ولم يكن انطباعها الأوَّل إيجابيّاً: "يبدو على المدينة علاماتُ الإهمال، فهي متَّسخة، وسُكّانها غارقون في عَرَقِهِم، المنازل ليست، بالتأكيد، نظيفة، والمراكب المتعدِّدة في الميناء لتحمل الناس متَّسخة، وهم كذلك متَّسخون". ومن بين الأماكن التي تفاعلت معها، تذكر الواديَ السعيد، حيثُ مقابر الديانات والقوميات المختلفة، فَعَبَدَةُ النار مدفونون بالقرب من المسيحيِّيْن المشيخيِّيْن، والرَّسوليُّون والإصلاحيُّون مع الكاثوليك والمسلمين. يقع الفندق الذي تقيم فيه على قمَّة هضبة تحتلُّ المدينة. تتحوَّل المرحلة الإجبارية إلى فرصة، لتستمتع بحياة التسلية في المكان. أُمسيَّاتٌ في المسرح، جولات ووجبات عشاء بحفلات جماعية مع سُيَّاح مثلها، ورجال أعمال وضبَّاط، ودبلوماسيِّيْن ومسافرين أغنياء، وعديدٍ جدّاً من الرجال العُزَّاب "رجال من طبقات اجتماعية مستريحة، وَسيمون، إلى حَدٍّ أنها تساءلت: لماذا لا تذهب السَّيِّدات في مجموعات إلى تلك الحفلات؟". وببعض السخرية تُعيد صياغة المقولة القديمة الشهيرة لهوراس جريلي(*): أيَّتُها الفتيات، لِتذهبْنَ إلى الشرق؛ فهناك ما يكفي من العُزَّاب". وتستفيد بعد ذلك من الوقفة، لتزور مدينة صينية حقيقية، مدينة كانتون. الحكم السَّلبيُّ الذي يظهر في يوميات رحلتها يعكس العداوة تجاه الصِّينيِّيْن المغروسة في المجتمع الأمريكي في تلك الفترة، وكان السببَ في ذلك الشعور

(*) Horace Greeley: صَحَفِيٌّ وناشر أمريكي (1811-1872) مؤسِّس ورئيس تحرير الجريدة الأهمّ في زمنها «نيويورك تريبيون»

موجةُ الهجرة المكثَّفة التي تركت آثارها الشديدة في سبعينيَّات وثمانينيَّات القرن التاسع عشر، وأدَّت إلى قانون الاستبعاد الصِّينيِّ، ممَّا أدَّى إلى غَلْق الأبواب أمام الهجرة الصِّينيَّة. إذاً قضت يوم "عيد الميلاد" وهي تتجوَّل داخل العربات اليدوية في أنحاء كانتون، حيثُ المتاجر في الهواء الطلق، والطُّرُق ضيِّقة ومتَّسخة، والحَمَّالون يغطِّيهم العَرَق "وينخرون كالخنازير". تطلب الذهاب إلى المكان الذي تُنفَّذ عقوبات الإعدام فيه، وتكتشف هناك أنه، أيضاً، خلال عقوبات القَتْل - مثلما الحال في أماكن أخرى في الصين وأمريكا وباقي أنحاء العالم - تعاني النساء معاملةً مختلفةً، وأسوأ ممَّا يلقاه الرجال. إذا كان الرجال في معظم الحالات يُعدَمُون بقَطْع رؤوسهم، فإن النساء يُربَطْنَ في صلبان، وبمهارة شديدة يُقطَّعنَ قطعاً، بحيث لا يمُتْنَ قبل أن يُعانينَ طويلاً من العذاب.

في 28 ديسمبر تصعد نيلِّي على متن أوشانيك(*)، الباخرة التي ستأخذها أوَّلاً إلى يوكوهاما في اليابان، ثمَّ، بعد وقفة، إلى سان فرانسيسكو. إنها باخرة على وشك التقاعد بعد خدمة عشرين عاماً تقريباً. إلَّا أنها في نوفمبر من العام نفسه، عام 1889، سجَّلت الرَّقْم القياسي في السرعة على الطريق يوكوهاما - سان فرانسيسكو، بفترة زمنية قَدْرها 13 يوماً، 14 ساعة وخمس دقائق. لهذا فرحت نيلِّي لأنها تُبحِر بالتحديد على هذه الباخرة، ومِن ثمَّ ستكون قادرة على أن تصل بسرعة إلى أمريكا. ولكن الأوشانيك لم تفُزْ فقط بتلك الجائزة، فقد كانت الباخرة الأولى التي صُمِّمَت بحيث تعمل على تلبية احتياجات المسافرين على متنها. وكان الأمر يتعلَّق بثورة زمنية حقيقية فعلية: فلم يعد مركز الاهتمام هو الرحلة، ولكنْ، المسافر، مسافر الدرجة

(*) Oceanic

الأولى بطبيعة الحال. كانت مقصورات المسافرين منظَّمة في منتصف السفينة بعيداً عن ارتجاجات المحرِّكات. والصالون أيضاً، موقعه في منتصف السفينة، أكثر اتِّساعاً وهواءً. والنوافذ المستديرة أيضاً كانت أكبر حجماً، ممَّا يجعل المكان أكثر إضاءة. تتوفَّر المياه الجارية تقريباً في كلِّ مقصورات الدرجة الأولى، التي تستمتع، بالإضافة إلى ذلك، بأجراس كهربائية لاستدعاء موظَّفي الخدمة. احتفلت نيلِّي في البحر باليوم الأوَّل من السنة، وبعدها بيومَيْن، رَسَتْ في يوكوهاما، حيثُ لا بدَّ أن تنتظر فيها قبل أن تُبحِرَ إلى سان فرانسيسكو. انتهزت الفرصة لتزور المدينة، وتجمع بعض المعلومات من أجل تقاريرها الصَّحَفِيَّة. وسُحِرَت، حَرْفِيّاً، باليابان واليابانيِّيْن. كانت تجد الفتيات اللَّاتي تلعبنَ بكرات الريش في الطُّرُقات فاتنات: "جميلات وبريئات، تلقائيات وبشوشات، بشفاههنَّ الحمراء كالكرز، وعيونهنَّ السوداء والمتلألئة، شُعُورهنَّ اللَّامعة المصفَّفة بعناية، وملابسهنَّ شديدة الأناقة". ذلك البلد، في رأيها، لديه كثير جدّاً ليُعلِّمه أيضاً لأمريكا:

> حتَّى وقت قريب جدّاً لم يكونوا يعرفون على الإطلاق وسائل الراحة الحديثة، ولم يعرفوا أيَّ شيء عن السكك الحديدية والترام، والمحرِّكات أو وسائل الإضاءة الكهربائية. بذكاء شديد، لم يُضيِّعوا الوقت ولا الطاقة، في محاولة فَهْم الاختراعات المشهورة بالفعل في البلاد الأخرى. قرَّروا ببساطة أن يُحضروها مباشرة من البلاد الأخرى، وذلك من خلال الاستعانة بمَنْ يعرفون جيِّداً أسرار تلك الاختراعات، وأن يجذبوهم إلى اليابان بعقود مدَّتها ثلاثة أعوام، أو خمسة، وأحياناً عشرة أعوام، بأجور خيالية. أولئك الأشخاص كان

يعمل على مساعدتهم يابانيون أذكياء جدّاً، يعملون بتركيز شديد إلى جوارهم. وبمجرَّد أن تنتهيَ مدَّة العقد، لم يكن هناك أيُّ داعٍ لتجديده، لأن المعاونين اليابانيِّيْن أصبحوا قادرين تماماً على تأدية ذلك الدَّوْر.

كان يكفي نيلِّي مئة وعشرون ساعة في تلك البلد، لتفهم أحد أهمِّ ملامحه المميَّزة.

وفي صباح أحد الأيَّام الجميلة المشرقة تترك الأوشانيك ميناء يوكوهاما. خلال ثلاثة أيَّام تجتاز الباخرة بسرعة مياه المحيط الهادئ، ثمَّ تهبُّ عاصفة، لتبدوَ السفينة كأنها فريسة للأمواج. كان لا بدَّ للمحرِّكات أن تعمل بأقصى طاقتها، لتكسب السفينة بالكاد بضعة أميال. يتقاسم القبطان مع نيلِّي مخاوفه، يشعر بالقلق من عنف المداخن: قد دفعت المحرِّكات إلى أقصى حَدٍّ، بشكل لم يحدث من قبل، لقد لعنتُ العاصفة حتَّى لم أعد أعثر على كلمات أخرى، لقد تلوتُ أيضاً صلوات - وهو شيء لم أفعله منذُ أعوام، إلَّا أنني صلَّيتُ وطلبتُ أن تتوقَّف العاصفة حتَّى تتمكَّني من الوصول في الوقت المحدَّد. وأخيراً توقَّفت العاصفة، وأصبحت نيلِّي الآن بالقرب من القارَّة الأمريكية، وبقي يوم آخر من الرحلة، ثمَّ ستتمكَّن من الرُّسُوِّ في سان فرانسيسكو. هناك حماس شديد بين الرُّكَّاب وأعضاء طاقم السفينة، الجميع متضامنون معها، ولكنَّ مشكلة أخرى تقضي على كلِّ هذا الحماس. يبدو أن الشهادات الصِّحِّيَّة لركَّاب الأورينتال ظلَّت في يوكوهاما. بلا تلك الشهادات الصِّحِّيَّة لا يمكن لأيٍّ منهم أن يضع قَدَمَيْه على اليابسة. لا بدَّ من الانتظار على متن السفينة حتَّى تصل السفينة التالية القادمة من اليابان،

وهو ما يستلزم أسبوعَيْن آخرَيْن. لا تفقد نيلّي أعصابها، وبهدوء شديد تقول لموظَّف السفينة إنها ستَقطع رَقبتَها، ولن تظل أمام ميناء سان فرانسيسكو في انتظار تلك الشهادات، وهي على خطوة من النهاية السعيدة لرحلتها. وعندما فقدت نيلّي بالفعل كلَّ أمل لديها، تقدَّم إليها موظَّف السفينة، مُنهَكاً، ولكنْ، مسروراً، ممسِكاً بالشهادات في يده، فقد عثر عليها بنوع من الإعجاز في أحد الأدراج. وكان يوم 21 من يناير 1890، هو اليوم الذي وضعت نيلّي أخيراً قَدَمَيْها على الأرض الأمريكية، واستُقبلَتْ كشخصية مشهورةٍ. أربعة أيَّام وتصل، تعبر الولايات المتَّحدة في قطار خاصٍّ، أعدَّتْهُ لها خصيصاً جريدةُ الـ "وورلد". كان القطار، المخصَّص كلُّه لها، مكوَّناً من عربة نوم، وقاطرة.

في كلِّ محطَّة كانت إليزابيث تقابل آلاف الأشخاص المحتفلين الذين يُصفِّقون في أثناء مرورها:

> أتذكَّر فوضى شديدة من تحيَّات فرحة وتمنِّياتٍ طيِّبة، تلغرافات تهنئة، فاكهةٍ ووَرْدٍ، تصفيقاتٍ حادَّةٍ وصيحاتِ التَّحيَّة، أيادٍ تصافحني بسرعة، وعربةِ سكَّة حديدة مملوءةٍ بوَرْدٍ جميلِ الرائحة، تجرُّها قاطرة سريعة، تقطع الطريق بأقصى سرعة، كان شيئاً فخماً، رحلة تليق بملكة!

كان القطار يتبع مساراً أقلَّ تمهيداً، يميل أكثر إلى الجنوب، ليدور حول خطِّ السِّكَّة الحديديَّة المعتادة التي أغلقتْهُ الثلوج الشديدة لسيرا نيفادا(*). في شيكاغو، قبل أن تُغيرِّ القطار، وتستأنف رحلتها إلى بيتسبرغ، ومنها إلى فيلادلفيا، استقبل نيلّي ممثِّلو نادي الصحافة

---

*) Sierra Nevada

الذين صحبوها في جولة صغيرة في العربة، ثمَّ شربوا معها نخب رحلتها في مقرِّ ناديهم، ومن هناك اتَّجهوا إلى المجلس التِّجاريِّ لشيكاغو، وفي الصالة، كان هناك صخب أسواق البورصة، وأعلن صوت: إنها نيلِّي بلاي. وفجأة ساد صمت، لا يمكن تصديقه، والتفت كلُّ الموجودين نحوها، ورفعوا قُبَّعاتهم، وفجأة انفجر تصفيق حادٌّ جدّاً. وعند وصولها إلى فيلادلفيا استطاعت نيلِّي أخيراً أن تحتضن أُمَّها من جديد، ومعها جيمس ميتكالف الصديق العزيز، وفي المحطَّة تواجد نحو خمسة آلاف شخص لتحيَّتها. وبعد ظُهْر يوم السبت في الخامس والعشرين من يناير، وَصَلَتْ نيلِّي إلى مدينة جيرسي، ومن هناك اتَّجهت إلى الميناء، لتختمَ الدائرة، وتعود إلى حيثُ بدأ كلُّ شيء، منذُ 72 يوماً، 6 ساعات، 11 دقيقة و14 ثانية بالتحديد.

هزمت نيلِّي فيلياس فوغ، بل هزمت، أيضاً، إليزابيث بيسلاند المسكينة التي سترسو في نيويورك بعد وصول نيلِّي بخمسة أيَّام.

زواج خاطئ؟

بعد صخب شديد، ساد الصمت. الوصول إلى القمَّة لاكتشاف أنه لا شيء بين يَدَيْها. لا أُمنيَّةَ لم تتحقَّق، ولا حُلْمَ يستحقُّ أن يُحلَمَ. أنتِ هناك، بكلِّ حياتكِ أمامكِ، ولم تعودي تعلمين ماذا تفعلين بها، لقد فزتِ بالتَّحدِّي. وماذا بعد؟ صورتكِ ملصقة على صناديق ألعاب الطاولة المستوحاة من رحلتكِ. ابتعتِ صابونة، وتعرَّفتِ على صورتكِ في الفتاة ذات النظرة الضائعة البعيدة التي ترتدي قُبَّعة السَّفَر ومعها حقيبة. تلك الوجوه لا تشبهكِ على الإطلاق، ليست أنتِ، ولكنَّ جميعهم هناك في الخارج يظنُّون العكس، لديكِ انطباع أن حياتكِ لم تعد ملككِ. قال لكِ زميلك في الـ "وورلد": إنكِ أنتِ أمريكا، يا بنيَّتي! ولكنْ، أنتِ تصارعين لما هو أقلُّ بكثير، أنتِ ترغبين في أن تكوني نفسكِ فقط، أن تُثبتي لأصدقائكِ في الـ "وورلد" أن امرأةً يمكنها أن تنجح بمفردها، ولكن هذا لا يهمُّهم كثيراً. استغلَّتْكِ إدارة الجريدة، أصبحتْ فكرتُكِ فكرتَها، ورحلتُكِ رحلتَها، ونجاحُكِ نجاحَها. زاد انزعاجكِ عندما فهمتِ أنهم يعدُّونكِ ملْكيَّتهم الخاصَّة، ظاهرة تشبه عروض السِّيْرك، مفيدة للمبيعات، أنتِ بالنسبة إليهم سلعة غالية، ولكنْ، في نهاية الأمر سلعة، وهكذا قرَّرتِ أن تقدِّمي مشهدكِ المفاجئ الأخير. هذه المرَّة أصابت الدهشة العاملين في الـ "وورلد"، إلَّا أنهم كان لا بدَّ أن يتخيَّلوا هذا. في سنِّ الثالثة والعشرين رحلتِ من بيتسبرغ تاركةً خلفكِ العمل والمنزل

والحُبَّ دون أن تملكي أيَّ شيء سوى ثقتكِ بموهبتكِ، فبالتأكيد لن تمكثي الآن بشروطهم. هذه المرَّة لم تتركي ولا حتَّى تذكرة وداع، ثمَّ هناك، أيضاً، الكتاب الذي ألَّفتِهِ عن جولتكِ حول العالم، والذي يتهافت عليه الناس والمؤتمرات. تعلمَّتِ مبكِّراً التَّحدُّثَ أمام الجمهور، بل دفع كثيرون ثمناً لتذكرة للاستماع لحكاياتكِ. تلك الرحلة أخذتْكِ لأبعد ممَّا كنتِ تخطِّطين، والعودة إلى المنزل أصبحت أبعد وأصعب بكثير ممَّا تتخيَّلين. كانت الجريدة هي منزلكِ، ولكنها لم تعد كذلك. وها أنتِ مرَّةً أخرى بحقيبة خفيفة وملابس مناسبة وقُبَّعة واقية من الأمطار، الآن أنتِ أمريكا، يا بنيَّتي، شُجاعة، مُغامرة، مختالة، وحيدة.

عند عودتها اكتشفت نيلِّي أنها أصبحت شخصية مشهورة، كان الاستقبال المنتظَر طَوَالَ رحلة القطار من سان فرانسيسكو إلى نيويورك هو إثبات شعبيَّتها، وجهها وثوب غورملي، قُبَّعتها والحقيبة أصبحوا رموزاً للأُمَّة الشَّابَّة المغامرة والشجاعة التي تستعدُّ لتصبح قوَّة عظمى. ولكنْ، لم يحدث هذا فقط. فنحن في بلدٍ، النظامُ الصِّناعيُّ فيه متقدِّمٌ إلى درجة كبيرة، ويملك بالفعل في تلك الفترة الزَّمنيَّة كلَّ الخصائص الخاصَّة بالسوق الكبير، بما في ذلك التوزيع على نطاق واسع للمنتجات، والدعاية على صفحات الجرائد. أصبحت نيلِّي مشهورة، وطُبِعَت صورتها على إعلانات الصابون والملابس والسجائر، بل وزَّعوا تجاريّاً لعبة من "ألعاب الطاولة" مستوحاة من رحلتها. أصبح لاسمها الآن وجهٌ، وهذا يعني أنها لن تتمكَّن من إجراء أيِّ تحقيق وهي متنكِّرة، فهذه بداية جديدة لحياة الفتاة الموهوبة في الـ "وورلد"، ومرَّةً أخرى عليها

أن تُعيد اختراع نفسها. في ذلك الوقت بدأت تُدعى لإقامة المؤتمرات بشأن جولتها حول العالم. إن إمكانية التَّحدُّث للجمهور موهبة، ولدى نيلِّي ما يمكنها التَّحدُّث عنه. في مؤتمرها الأوَّل في مسرح نيويورك يونيون سكوير(*)، بعد نحو أسبوعَينْ من عودتها إلى أمريكا، تجذب نيلِّي انتباه الجمهور ساعةً ونصف، كانت تلقائية طبيعية مسلِّية، تصف بكلِّ سهولة رفاق الرحلة غريبي الأطوار، البلاد البعيدة العجيبة، الشعوب التي لن يقابلها أيُّ أمريكي متوسِّط الدخل أبداً في حياته. كان هذا العمل مربحاً جدّاً، لأن المؤتمرات كانت مدفوعة الأجر. دُعيت نيلِّي لتحكي قصَّتها في مُدُن عديدة، وبفضل تلك الأُمسيَّات ربحت أكثر من تسعة آلاف دولار، وكان مبلغاً خرافيّاً في ذلك الزمن. هذا الالتزام وصياغتها للكتاب الذي يحكي عن جولتها حول العالم أبعدوها عن الجريدة أشهراً عديدة، في الواقع لم يكن الأمر يتعلَّق بمجرَّد إجازة. كانت إليزابيث مستاءة من الطريقة التي عاملوها بها في الـ "وورلد"، شعرت بأنها تعرَّضت للاستغلال والخيانة، بوليتزر ومعاونوه قدَّموا لها التهاني العظيمة أمام الجموع، ثمَّ لم يتبع ذلك أيُّ شيء ملموس، لم يحدث أن ترقَّت في العمل، ولا قدَّموا لها أيَّ جائزة، بل إن المرتَّب، أيضاً، ظلَّ كما هو، مع أن الجريدة تدين لرحلتها بالكثير؛ يكفي التفكير في أن عدد الـ "وورلد" بالخبر الخاصِّ بوصولها إلى نيويورك قد بيع منه ثلاثمئة ألف نسخة، وهو رَقْم استثنائي، بالنسبة إلى بيع جريدة يومية في القرن التاسع عشر. لم يُعجِب نيلِّي هذا، وبدأت فكرةُ تَركها للجريدة تنضج في ذهنها، أمَّا على الصعيد الشَّخصيِّ، فقد واجهت حِداداً مؤلماً جدّاً، مات أخوها تشارلز في سنِّ الثامنة والعشرين، بسبب

(*) New York's Union Square Theatre

تلوُّث معويٍّ، كانت ضربة قاسية بالنسبة إليها، فقد كان تشارلز أخاها المفضَّل، وترك زوجة وطفلَيْن صغيرَيْن، سترتبط بهما إليزابيث إلى نهاية حياتها. تشعر نيلّي بالإنهاك، فهي لم تتوقَّف منذُ أن وَصَلَتْ إلى نيويورك: التحقيقات واللقاءات الصَّحَفِيَّة، البحث المستمرُّ عن سَبْقٍ صحفيٍّ جديد ومدهِش، تلك الرحلة المجنونة استهلكت كلَّ قواها. تفكِّر مرَّةً أخرى بحنين في الليالي التي قَضَتْها على جسر الأورينتال، عندما كانت زُرْقَة السماء تختلط مع الزُّرْقَة العميقة للبحر، وتبدو لها كلُّ السرعة التي تُميِّز حياتها في نيويورك بعيدة، بلا معنى. الآن، بعد كلِّ النجاح وبعد الإحباط والحِدَاد، تريد نيلّي أن تَطويَ الصفحة، ربَّما يمكنها أن تعيش جيِّداً دون أن تضطرَّ أن تتخيَّل أسابيع أخرى من التقارير المدهشة والتَّنكُّر الغريب، الخلاصة تمثيل دَوْر صَحَفِيَّة التحقيقات، ربَّما لم تكن تتوقَّع أن تكون العودة بهذه الطريقة. تريد أن تحرق غرور الـ "وورلد"، التي لم تفعل أيَّ شيء للاحتفاظ بها، بل تركت مساحة للمنافسين القدامى أن يغطُّوا الدَّوْر الذي تركتْهُ في الصحيفة، عندئذٍ تُقرِّر نيلّي قراراً مصيريّاً، توقِّع تعاقداً لمدَّة ثلاثةِ أعوام مع نورمان لسلي مونرو(*)، رئيس تحرير "جريدة نيويورك لتاريخ العائلة(**)"، مجلَّة أسبوعية تنشر الروايات الشَّعبيَّة الواسعة الانتشار(***). وفي سبيل الحصول عليها في طاقم تحريره، لا يهتمُّ مونرو بالتكاليف، عشرة آلاف دولار للعام الأوَّل، وخمسة عشر ألفاً للعامَيْن التَّاليَيْن. عمليّاً تكسب هكذا أكثر من مدير الـ "وورلد"، دون أن يكون عليها حتَّى الخروج من المنزل.

(*) Norman Leslie Munro

(**) New York Family Story Paper

(***) dime novel

حقيقيٌّ أنها كتبت دائماً، ولكن رواية ما يراه المرء أمام عينَيْه مختلف عن تخيُّله، ولم يُقيِّم مونرو جيِّداً هذا الاختلاف، ونيلِّي أيضاً. في الواقع لم يتبقَّ أيُّ أثر للروايات التي كَتَبَتْها على حلقات خلال تلك الفترة، خبا الحماس الذي استقبلت به هذه المبادرة بعد مرور الشهور الأولى. لم يكن سهلاً بالمرَّة تخطيط العمل الدّراميّ، وتخيُّل الحوارات، وتلوين الحكايات التي تبدعها بالمناظر المناسبة. عندما وافقَت فكَّرت في أنها ستدعم شعبيَّتها من خلال انتشار تلك القصص المسلسلة. «حالفها الحظُّ أيضاً هذه المرَّة»، كَتَبَ إيرازموس ويلسون، ولكنَّ ما حَدَثَ أنها بالتدريج بدأت في عَزْل نفسها أكثر، حتَّى اختفت من المشهد العامِّ لنيويورك. وكان كثيرون يتساءلون أين ذَهَبَتْ نيلِّي بلاي؟ وفي يناير 1891، بعد عام من مغامرتها، كانت نيلِّي قعيدة الفراش، وتسير بصعوبة على عُكَّازَيْن، ربَّما بسبب حادث ما، تكتب بصعوبة شديدة، وتأخَّرت عن مواعيد تسليم العمل، ثمَّ أصبحت تعيسة، حزينة، فلقد أصبحت سنُّها تقريباً سبعة وعشرين عاماً، وتشعر بأنها عمليّاً انتهت مع ميتكالف، تشعر بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان، فهي لم تعد صَحَفِيَّة، وربَّما لن تصبح أبداً كاتبة، فهي لم تعد فتاة عنيدة، وربَّما لن تصبح على الإطلاق امرأة قادرة على أن تُحبَّ أحدهم إلى الأبد. محاصرة في زاوية ما، لم تعد ترى أيَّ طريق للخروج، كانت مقتنعة بأنها أخطأت في كلِّ شيء، ربَّما لم تكن فكرة ترك الـ «وورلد» فكرة جيِّدة، كان قبولُ ذلك العقد الملعون خطوةً خاطئة . قوَّة مدمِّرةٌ تعوقها، كأنها ترتدي قميصاً مقيِّداً، مثل تلك التي رأتْها في بلاكويل، قميصاً يمنعها من الرحيل من جديد، من أن تتَّخذ قراراً جديداً، تشعر بالتعب والخَوَاء، تبدو كأن كلَّ طاقتها قد تبخَّرت، تحاول أُمُّها كلَّ السُّبُل لتنزعَها من تلك الظلمات، تُؤجِّر مزرعة في وايت بلاي

نز، وهكذا ربمَّا تتمكَّن إليزابيث من استعادة الروح التي كانت لها في شيري ران، ثمَّ تقترح عليها رحلة إلى أوروبا، تقبلها هي بدرجة معقولة. تعلم أنها يجب أن تقاوِمَ، وأن تتصرَّف بكلِّ الطُّرُق، وإلَّا فستنتصر عليها «أكثر حالة اكتئاب مرعبة، يمكن أن تصيب آدميّاً»، هكذا وصفت حالتها في خطاب إلى صديقها الدائم إيرازموس ويلسون.

البلد أيضاً يعيش أزمةً عميقة، أمريكا تمرُّ بمرحلة من الاضطراب الشديد، الحصاد المميت الذي تسبَّب فيه تزامن انكماش العرض المصرفي لصغار ملَّاك الأراضي الزِّراعيَّة، المزارعين، وهو الأمر الذي أدَّى إلى إسقاط الشركات بينما ضغطت الإجراءات الإنتاجية أكثر على هوامش المناورات لجمهور العُمَّال الذين يسكنون في المُدُن الصِّناعيَّة الكبيرة. يبدو أن موقفاً على وشك الانفجار في الأُفق، وسيكون المفضي إلى ذلك الفزع الكبير في عام 1893، الأزمة المالية البشعة التي ستُخضِع عديداً من العائلات الأمريكية. في هذا الإطار ستنهض الحركة الشَّعبيَّة، التي سيُميِّزها التأثير الدِّينيُّ الواضح، فهي فترة السياسة الخمسينية، كما أطلق عليها أحدهم. حاول حزب الشعب، المؤسَّس عام 1891 في سينسيناتي، أن يفرض نفسه، دون أن ينجح أبداً، على النظام الأمريكي السِّياسيِّ بِنِيَّةِ أن يمزِّق الثُّنائيَّ القطبي الانتخابيَّ للدِّيمقراطيِّيْن والجمهوريِّيْن، تسلَّقت الأحزاب الشَّعبيَّة، وخصوصاً في حملات الجنوب والوسط الغربي، الاستياء المتزايد من قادة الأحزاب وآلاتهم، الماهرين في ظلِّ النظام الفاسد للحكومة، ولكنْ، العاجزين عن منح إجابات ملموسة للأمريكيِّيْن المسحوقين أسفل الأزمة الاقتصادية للتِّسعينيَّات. كان البرنامج طموحاً، ولكن التنظيم، بالتأكيد، لم يكن كافياً، وذلك لكيلا نتحدَّث عن الإلزامات الرَّجعيَّة، بل العنصرية، التي

كانت تسري بداخل الحركة، الأعداء المعلَنين، بالإضافة إلى محتكري سوق وول ستريت، كانوا اليهود والمهاجرين، الأجانب والسود. في أثناء الانتخابات الرِّئاسيَّة لعام 1892، التي عاد من خلالها كليفلاند إلى البيت الأبيض، حَصَلَ مرشَّح حزب الشعب جيمس ويفر(*)، أحد جنرالات الحرب الأهلية، على مليون صوت، ولكنْ، كان عام 1892 هو أيضاً عام القبضة الحديدية بين كلاي فريك، الرجل الذي عهد إليه أندرو كارنجي بإدارة أشغال الحديد، وبين نقيب عُمَّال الصلب، الذي حَصَلَ عام 1890 على اتِّفاق جيِّد حول المرتَّبات. كان فريك لا يطيق منظَّمات العُمَّال، ويتحيَّن، منذُ شهور، فرصة ليصطدم معها، وليصفي مرَّةً واحدة ونهائية المؤسَّسة المتَّحدة لعُمَّال الحديد والصلب(**)، عثر على هذه الفرصة في الخصم الجزئيِّ لمرتبات العُمَّال في مصنع هومستيد(***)، في إحدى ضواحي بيتسبرغ، وكان ردُّ فعل نقيبهم هو إعلان الإضراب. أجَّر فريك ثلاثمئة حارس خاصٍّ من شركة بينكيرتون(****)، وفكرتُهُ هي استعادة المصنع وتشغيله بأقصى إيقاع بتعيين عُمَّال من الخارج. لم يُوافِق العُمَّال على هذا، واحتلُّوا المصنع، وأبعدوا الحَرَسَ الخاصَّ بقوَّة السلاح، وكانت العواقب وخيمة: عشرات الموتى بين العُمَّال والحُرَّاس، عندئذٍ كان لدى فريك كلُّ الأسباب ليُقنعَ الحاكم بأن عُمَّال هومستيد يمثِّلون خطراً على النظام العامِّ، ووَصَلَتْ إلى بيتسبرغ قوَّة من خمسة آلاف شخص من الحَرَس القومي، أعادت النظام إلى المدينة والمصنع، ولكنْ، لم ينتهِ الأمر عند هذا الحَدِّ.

(*) James Weaver

(**) Amalgamated Association of Iron and Steel

(***) Homestead

(****) Pinkerton

في ذلك الوقت رحل شابٌّ فوضوي من نيويورك إلى بيتسبرغ، هو أليكساندر بركمان(*)، لم تكن له أيُّ علاقة بتنظيم الإضراب، ولكنْ، كان له هدف أكثر طموحاً: أن يغتال كلاي فريك، وأن يُنفِّذ بذلك أوَّل عملية اغتيال فوضوية في أمريكا. وهكذا يتوَّجه بركمان إلى مكتب ملازم كارنيجي، ويطلق عليه ثلاث طلقات من مسدَّسه، إلَّا أن فريك ينجو، بينما يُقبَض على بركمان، ويُحبَس، ويُحاكَم، ويُدان بالسجن لمدَّة اثنَيْن وعشرين عاماً. تتسبَّب محاولة الاغتيال في عَزْل أكبر للعُمَّال، الذين يواجهون الاستياء الشَّعبيَّ، ويُطاح بأسبابهم في مواجهة تصرُّف متهوِّر كهذا، وينتهي الإضراب بفَصْل ألفَي عامل، وخَفْض المرتَّبات. وفي مصنع كارنيجي يمرَّر مبدأ المنشأة المفتوحة(**)، أي يُبدأ تعيين العُمَّال فقط غير المسجَّلين في النِّقابة، التي سجَّلت بهذا إحدى هزائمها الأكثر درامية، هزيمة تضع نهاية لكلِّ شكل من أشكال المواجهة في قطاع الحديد والصلب لنحو خمسين عاماً. كانت رفيقة بركمان في الصراع هي إيما غولدمان(***)، شابَّة ومحاربة فوضوية روسية، وَصَلَتْ إلى أمريكا في سنِّ السابعة عشرة، وفي أثناء عملها صَحَفِيَّةً، تابعت القضية التي أدَّت إلى شَنْق خمسة من الفوضويِّيْن ظُلماً بتُهمة اغتيال بعض معاوني الشرطة في أثناء المصادمات بين المضربين والشرطة في شيكاغو. وكان الظُّلم الذي تعرَّض له هؤلاء الصِّبْيَة الخمسة الأبرياء الذين شُنقوا في ميدان هايمارك قد دفعها لتتبنَّى دوافع الحركات الفوضوية. أشعلت خُطبها الحرائق في ميادين نيويورك، وقُبِضَ عليها بسبب نقاش حَدَثَ

(*) Aleksandr Berkman

(**) The open shop

(***) Emma Goldman

في اليونيون سكوير في أغسطس عام 1893، في العام الذي تفجَّرت فيه الأزمة الاقتصادية في البلد. كانت إيما تعرف جيِّداً الكلمات الصائبة التي تُحفِّز مَنْ لا يعمل، مَنْ لا يأكل، مَن ليس له حقوق، على الثورة: «اطلبوا عملاً، وإذا لم يمنحوكم العمل، فاطلبوا الخبز، وإذا لم يعطوكم الخبز أو العمل، فلتحصلوا عليه بأنفسكم إذاً». وفي سجن نيويورك، حيثُ كانت في انتظار المحاكمة بسبب تلك العبارات المُحرِّضة، توافق أن تُجري مقابلة صَحَفِيَّة مع جريدة واسعة الانتشار، كانت فرصة مُهمَّة للتَّحدُّث مع جمهور أكبر، ولكنْ، كان الأمر أكثر خطورة، حيثُ يمكن أن تُستخدَم كلماتها ضدَّها، ولم يكن الفوضويون، الذين ينفِّذون عمليات الاغتيال كمهنة، محبوبين إلى هذه الدرجة، ولكن أمراً واحداً يطمئنها: ستُجري المقابلة معها امرأة.

منذُ أن تركت نيلِّي الـ «وورلد»، غيَّرت الجريدة إدارتها أكثر من مرَّةٍ، وبدأت هذه التَّغيُّرات منذُ عام 1891 عندما قرَّر بوليتزر أن ينزع إدارة الجريدة من كوكريل، وأن يعهد إليه بجريدة St Louis Post-Dispatch، وأن يفصل المدير العامَّ ترنر من عمله، في رأيه حَصَلَ الاثنان على مساحة وسلطة أكثر ممَّا ينبغي. لم يعجَب كوكريل بهذا، وبدلاً من أن يعود إلى سان لويس وافق على عمل مدير في جريدة الدايلي كونتينت Daily Continent، عندئذٍ تولَّى بالارد سميث منصب مدير تحرير الـ "وورلد"، الذي طُرِدَ بعدها بعام، بسبب طريقة تغطية إضراب هومستيد، التي تضامنت بشدَّة مع العُمَّال، وعيَّن بدلاً منه جورج هارفي، ولكنه هو أيضاً لم يستمرّ طويلاً، واستبدل به بوليتزر تشارلز هـ.

جونز عام 1893. كان الأمر يتعلّق بعام خاصٍّ، بالنسبة إلى "وورلد"، حيثُ كان الاحتفال بالذكرى العاشرة من شراء بوليتزر للجريدة، وبهذه المناسبة نُشر عددٌ خاصٌّ، يُعيد مرَّةً أخرى التحقيقات الاستقصائية الكبرى للجريدة اليومية، وفي أثناء تصفُّحه يمكن ملاحظة أن صَحَفِيّاً واحداً، بل صَحَفِيَّةً واحدةً يُذكَر اسمها، بل يُذكَر اسمها ثلاث مرَّات، كانت الصَّحَفِيَّة هي نيلِّي بلاي، بطلة التحقيقات الصَّحَفِيَّة السَّبَّاقة التي لا تُنسَى: تحقيق المصحَّة العقلية النِّسائيَّة في بلاكويل، وتحقيقها وهي متنكِّرة عن عضو الجماعات الضاغطة فيلس، وجولتها حول العالم في أقلّ من ثمانين يوماً. كان الأمر يتعلَّق بإشارة محدَّدة: الـ "وورلد" لم تنسَها، ربَّما حانت اللحظة لاستعادتها. كان مَنْ فتح المفاوضات هو موريل جودارد(*)، الداهية المسؤول عن عدد يوم الأحد، ولكنْ، في هذه المرَّة تستعدُّ نيلِّي، فهذه هي اللحظة المواتية لتترك مونرو خلفها، ومعه وَهْم أن تصبح كاتبة روايات، والشعور القديم بالندم لبارك رو. لا بدَّ لها أن تنظر إلى الأمام، كما فعلت دائماً، ولكنها تضع شروطاً قيِّمة من بينها أن يكون لها عمودها الخاصُّ. يوافق غودارد، ومن أجل العودة الكبيرة يعرض عليها أن تتحاور مع شخص غير مريح: إيما غولدمان. توافق نيلِّي بحماس عثرت عليه من جديد، تظلُّ الـ «وورلد»، رغم كلِّ شيء، هي أفضل مكان يعمل فيه المرء في نيويورك. وهكذا في 17 سبتمير عام 1893 وفي الصفحة الأولى يقبع حوارها مع إيما «الشيوعية». ولكن الخبر الحقيقي، الذي يُلاحَظ من العنوان على الفور، هو عودة نيلِّي إلى جريدة الـ «وورلد». التزم غودارد بكلمته، وفعل لبلاي ما لم يُفعَل لأيِّ صَحَفِيٍّ من قبل، وَضَعَ عنواناً آخر بخطٍّ عريض: **عودة نيلِّي بلاي**.

(*) Morril Goddard

من جهتها، تعلم نيلّي أن أعين الجميع تترقَّب هذه العودة. وبهذه المناسبة تفرد أفضل ما في ذخيرتها. وإيما غولدمان أيضاً مُدرِكة للثِّقَل الذي يمكن أن يكون لذلك اللقاء على الرأي العامِّ الأمريكي، فالفوضويون يُنظَر إليهم بارتياب، بسبب أعمالهم العنيفة، وروحهم المتمرِّدة، وهذا اللقاء يمكن أن يكون فرصة جيِّدة لتظهر على صفحات جريدة كبرى النقاط الأساسية لمعتقداتهم السِّياسيَّة. الخلاصة: الجميع يعتمدون على نجاح هذا اللقاء.

ومنذُ بداية المقال، تفعل نيلّي ما تنجح دائماً في عمله على أفضل وجه: أن تحطِّم الصور النَّمطيَّة، وتغمز بعينها للقارئ.

> ربَّما تعتقدونها طويلة القامة وعريضة، وشَعْرها قصير، وبنطالها على صيحة بومر، تمسك عَلَماً أحمر بيدٍ، وباليد الأخرى تمسك بشعلة متَّقدة. أعترف أن هذه فكرتي عنها، وعندما قال لي معاون الحراسة: «ها هي إيما غولدمان» اندهشتُ، إيما غولدمان فتاة صغيرة الحجم جدّاً، أطولُ بقليل من متر وخمسين سنتيمتراً، بما فيهم كعب حذائها، بأنف بارز إلى أعلى، وعينَيْن زرقاوَيْن معبِّرَتَيْن جدّاً.

تقدَّمت إيما «الشيوعية» للميعاد بنسخة من «أمريكا المصوَّرة» وهي ترتدي ثوباً أزرق من الصُّوف المقلَّم. الخلاصة: كانت تبدو صَبِيَّةً، سألتْها نيلّي بطريقة مباشرة: كيف أصبحتِ فوضوية؟ وجعلتْها تفهم أن السياسة تهمُّها، ولكنْ، يهمُّها أيضاً أن تعرف أكثر عن حياتها، والمسيرة

التي قادتْها من أوروبا القديمة إلى زِنْزَانَة في مقابر(*) نيويورك. ولم تتراجع إيما، «لطالما كنتِ فوضوية، وأنا كذلك لأنني أنانية، أنا لا أفعل ذلك من أجل خير الشعب، ولكنْ، من أجل خيري، فأنا أتألَّم عندما أرى معاناة الناس. كلُّ العذابات والجرائم والأمراض ليست إلَّا نتيجة للنظام الذي نعيش فيه، لولا النقود، ومن ثمَّ أصحاب رؤوس الأموال، لَما قُمِع الناس في العمل، ولَما ماتوا جوعاً، ولَما عاشوا في مساكن غير صحِّيَّة».

وافقت نيلِّي، ولكنها تتحدَّث باسم أمريكا: ولكنْ، إذا ألغينا الأموال والمستثمرين، مَنْ سيعمل في خطوطنا الحديدية؟

- مَنْ يستهويه ذلك العمل، الجميع يمكنهم مزاولة الأنشطة التي يفضِّلونها، وليس العمل الذي لا يرغبون في عمله، ليحصلوا على قُوْتِهِم.

- وماذا عن الكسالى؟

سألتْها نيلِّي وهي تجسِّد من جديد الروح الأمريكية.

- لا أحد كسول، إن فقدان الناس للأمل والاستسلام هما ما يؤدِّي إلى الظروف البائسة.

ثمَّ تقود نيلِّي الحوار حول الموضوعات التي تهمُّها أكثر، وخصوصاً النساء والعمل.

فتقول إيما بفخر: لقد تعلَّمتُ مهنة، لأن أبي كان مقتنعاً أنه بغَضِّ النظر عن منصبه الاجتماعي لا بدَّ أن أُتقنَ مهنة ما، وهكذا تعلَّمتُ الحياكة، عملتُ لسنوات حائكة، وبالنقود التي ربحتُها، لم أكن أبتاع أثواباً، بل كُتُباً.

---

*) هو الاسم العامِّيُّ الذي كان يُطلَق على سجن مانهاتن. The Tombs

- ماذا عن الزواج؟

- أومن بالزواج القائم على المشاعر، إنه الزواج الوحيد، والحُبُّ يتأسَّس على الاحترام، والمرأة لا يمكنها أن تعرف رجلاً ما على حقيقته، دون أن تعيش معه. المرأة التي تزوَّجتْ رجلاً لتصل إلى نوع من الأمان الاقتصادي، عادة ما تحتقر العاهرات، ولكنها لا تختلف كثيراً عنهنَّ. لنعمل على تواجد المشاعر الحُرَّة التي ستؤدِّي لاختفاء الزوجة العاهرة أو العاهرات في الطُّرُق.

حدَّقت نيلِّي في عينَي إيما، وبدا لها أنها أمام اليتيمة الصغيرة الوحيدة لبيتسبرغ، وكان الموضوع الأخير أكثر حساسية: هل تعتقدون أن العنف يمكنه مساعدة قضيَّتكم؟

ارتسمت الجدِّيَّة على وجه إيما، إنه سؤال صعب وشائك، أجابت وهي تزن كلماتها:

- لا أعتقد أننا سننتصر بفضل العنف، ولكنْ، بفضل الحرب، مواجهة الطبقة العاملة للرَّأسماليَّة، والجمهور في مواجهة الطبقات الاجتماعية، يوماً ما سننتصر، وحتَّى تلك اللحظة سنكتفي بأن ننشرَ أفكارنا، وأطلب فقط العدالة وحُرِّيَّة التعبير.

ستظلُّ إيما غولدمان في الولايات المتحدة حتَّى تُطرَد عام 1919 مع بركمان والفوضويِّيْن الآخرون لأنها كانت تُعَدُّ أجنبية خطيرة على الحكومة الأمريكية، سيُعاد ترحيلها إلى روسيا، التي كانت بلشفية في ذلك الوقت، وهناك أيضاً لن تصبح حياتها سهلة، ولكنْ، لم تكن هناك عودة أفضل من هذه لنيلِّي بلاي على ساحة نيويورك.

أن يكون للصَّحَفِيِّ عمود في جريدة ما لم يكن أمراً يسيراً، من الضَّروريِّ أن يعرف بعض جوانب الأحداث اليومية، ليستخدمها كنقاط متجدِّدة للتَّأمُّل، كان ما يهمُّ هو النظرة والقَطْع الذي يتمكَّن الصَّحَفِيُّ من مَنْحه لمقالاته. كانت المخاطرة الأكبر هي أن تكون تلك المقالات مُملَّة، متكرِّرة أو تافهة، وكان هذا بالتحديد ما حَدَثَ لنيلِّي، إلى درجة أن عمودها نُقِل في غضون بضعة أسابيع إلى الصفحات الدَّاخليَّة لعدد الأحد، ثمَّ اختفى تماماً، وقرَّر غودارد أن يُعيِّنها في ما تجيد عمله، المقابلات الصَّحَفِيَّة والتحقيقات الاستقصائية من كلِّ نوع، وهكذا تعبر من تحقيق حول جيش الخلاص إلى تقرير حول مؤتمر الدِّيمقراطيِّيْن في نيويورك إلى ساراتوغا، حيثُ تعود بمقال رائع عن وقفات وعادات وتصرُّفات النُّمُور (كما يُطلَق على مجموعة من الرجال، يتولّون زمام الحزب الدِّيمقراطيِّ في تامي هول(*))، وتقفز من السياسة إلى أخبار الجرائم، ومنها إلى الأزياء، بلقاءاتها بشخصيَّات متنوِّعة جدّاً: القسّ تشارلز باركهيرست(**)، الذي فَضَحَ السياسيِّيْن ورجال الشرطة الفاسدين في المدينة، أو المشعوذ مود لانكاستر(***) الذي يمتهن قراءة الأفكار. وبعد بضعة أشهر من عودتها إلى جريدة الـ «وورلد»، تجد نيلِّي نفسها من جديد في الموقف نفسه الذي بسببه تركت الجريدة، كانت التحقيقات التي تُعهَد إليها تزداد غرابة، وكثيراً ما توحي بشيءٍ من العَبَث، كما على سبيل المثال قصَّة ليلة قضتْها في منزل تسكنه الأشباح. كان هناك السجن الأوَّل الذي استطاعت الخروج منه: صفحة الأزياء والمجتمع، فلقد أثبتت بفضل

Tammy Hall (*

Charles Parkhurst (**

Maud Lancaster (***

كلِّ سَبْقٍ صَحَفِيٍّ قدَّمتْهُ أن لديها كلَّ الإمكانيات لتغطِّي الأخبار التي لا تتعلَّق بالصيحات الأخيرة للملابس والمسرح والحفلات. الآن أصبح السَّبْقُ الصَّحَفِيُّ سجناً ثانياً، بالنسبة إليها وبالنسبة إلى زميلاتها الشَّابَّات المنافسات لها. في الـ «وورلد»، في أثناء غيابها، خَطَرَ لهم إبداع اسم للتوقيع: ميغ ميريلياس(*)، خلفه تختبئ مجموعة من صَحَفِيَّات التحقيق اللَّاتي اندفعنَ في مبادرات جسورة جدّاً، وكانت النتيجة هي مرَّةً أخرى تهميش الصحافة النّسويّة، التي تحوَّلت إلى أداة للتسلية الشَّعبيَّة. لا يُعجِب نيلِّي هذا، ولا تستسلم لمثل هذا المصير. وفي يوليو 1894 حَصَلَت على الإذن بتغطية إضراب شركة بولمان بالاس للسَّيَّارات(**) في شيكاغو، وهي أكبر الشركات المنتجة لعربات السكك الحديدية. بدأ الإضراب، القائم بِنِيَّةِ مَنْعهم من تخفيض المرتَّبات، منذُ أكثر من شهرَيْن. أمر جورج بولمان، مؤسِّس ومالك تلك الصناعات العملاقة، مديريه بأن يرفضوا كلَّ الطلبات، طلب أيضاً أن يُطرَدَ العُمَّال المضربون خارج المنازل التي أجَّرَتْها لهم الشركة في ضاحية بولمان (بولمان تاون)، الحَيِّ النموذجي الذي بُني خصِّيصاً، لتسكن فيه عائلات العُمَّال. وفي خلال بضعة أسابيع، تصاعد الصدام، قرَّر يوجين ف. ديبز(***)، رئيس المؤسَّسة النِّقابيَّة لاتِّحاد السِّكك الحديد الأمريكية أن يدعمَ الإضراب، ويعلن مقاطعة عربات بولمان: لن تُربَط أيُّ قاطرة بالعربات للتَّنقُّل، وأصبح هناك شَلَلٌ في السِّكك الحديدية في غرب شيكاغو، وتحسُّباً لما يمكن أن يحدث من فوضى، طالبت الشركة بتدخُّل الرئيس كليفلاند،

Meg Merillies (*

Pullman Palace Car Company (**

Eugene V. Debs (***

الذي على الرغم من رَفْض حاكم إلينوي جون ب. أتجيلد(*)، يرسل القوَّات الفيدرالية لشيكاغو، لتُعيد النظام. كَتَبَ جونز، مدير تحرير الـ «وورلد» في تلك الأيَّام، مقالة افتتاحية، انتقد فيها قرار البيت الأبيض نَقْداً لاذعاً، مؤيِّداً ديبس ودوافع العُمَّال، استدعاه بوليتزر، الذي لم يكن يرغب في نَشْر جريدة تبدو أنها تتعاطف مع الحركات الفوضوية. وفي مقرِّه الصَّيفيِّ في بار هاربر طلب منه أن يتراجع، يرفض جونز، ويمنعه بوليتزر شخصيّاً من أداء مهامِّه، وبينما يحدث الصراع بين رئيس التحرير ومديره في بارك رو، تصل نيلِّي إلى بولمان تاون. الإشاعات التي يطلقها رجال بولمان وتنشرها الصحف تتحدَّث عن وضع من الإضرابات والعنف، تصل إليزابيث إلى المكان، وتدرك على الفور كيف أن الحقيقة بعيدة تمام البُعد عن حكايات الصُّحُف، وتمنح القصَّة مصداقية فقط من وجهة نظر الشركة. البراعة الصَّحَفِيَّة تكمن في أن يجد المحقِّقُ نقطةَ ملاحظةٍ فريدة، وكانت نيلِّي بارعة بالفعل في ذلك. وهكذا تُقرِّر أن تحكيَ عن الإضراب من وجهة نظر مَنْ لا صوت له في الأمر، مَنْ لا صوت له على الإطلاق، ويتَّضح أن المضربين وعائلاتهم ليسوا من الخطرين والخارجين عن القانون.

> أذهب إلى منازل هادئة، وأعثر على العُمَّال المضربين الذين يرعون الأطفال [...] ليسوا محرِّضين ولا قَتَلَة ولا عنيفين ولا فوضويِّيْن، إنهم رجال هادئون مسالمون، يعانون تحت عَقِب الجبان الأكثر قسوةً الذي حالف أُذُنيَّ سوءُ الطالع بأن سمعتُهُ يتحدَّث.

John P. Atgeld (*

ظَهَرَ للعيان أن المدينة النَّموذجيَّة التي أرادها بولمان، ليست نموذجية على الإطلاق: العُمَّال مُجبرُون على أن يعيشوا في المنازل التي يؤجِّرها بولمان، ولا بدَّ للعائلات أن تبتاع البضائع والخدمات من شركة بولمان، وبالأسعار التي يُحدِّدها بولمان، وفي مقابل الخصم من الأجور لن يكون هناك أيُّ تخفيض في الإيجار، كلُّ هذا لم يملك أيٌّ من زملاء نيلِّي الشجاعة لكي يكتبه. ولكنْ، الآن، تأخَّر الوقت كثيراً، فقد أخضعَت تدخُّلات القوَّات الفيدرالية الاحتجاجات، قُبِضَ على دبيز، وسجَّلت النِّقابة هزيمةً ثقيلةً أخرى بعد تلك التي حَدَثَتْ في هومستيد.

ومع مرور الأشهر، ازداد استياء نيلِّي، التي أصبحت تجد ارتياحاً في رعايتها للنباتات في وايت بلينس أكثر من اجتماعات التحرير في الـ «وورلد». استمرَّت في إجراء اللقاءات بكلِّ قوَّتها، بمحقِّقين، بمشهورين، بملاكمين لا يمكن هزيمتهم، بسياسيِّيْن مثل أتغيلد وديبز (في السجن بسبب إضراب بولمان)، بسيِّدات المجتمع الراقي مثل إيديث كينغتون غولد(*)، بزوجة قطب صناعة السكك الحديدية جورج غولد. وفي شتاء عام 1895 خصَّصت وقتها لتحقيق صَحَفِيٍّ عن الجفاف في الوسط الغربي، وغطَّت ثلاث مراحل: فاليتين في نبراسكا(**)، فيرفاكس في جنوب داكوتا(***)، بوته في مونتانا(****). لم تظهر تلك التحقيقات في عدد الأحد، وكانت معنونة على أنها تحقيقات خاصَّة لجريدة الـ «وورلد»،

(*) Edith King-don Gould

(**) Valentine in Nebraska

(***) Fairafx in South Dakota

(****) Butte in Montana

وبدأ بالنسبة إلى نيلِّي الخروج الاستراتيجي من جريدة بوليتزر. في شيكاغو كان هناك إعداد كبير للصحافة اليومية المدنية، وفي شهر فبراير، أدار جيمس سكوت(*)، المدير العامُّ لجريدة شيكاغو هيرالد أخبارَ شيكاغو المسائية، ثمَّ بعد ذلك ألغى شيكاغو تايمز، وصَهَرَهَا مع الهيرالد، ووُلدت مِن ثمَّ جريدة «هيرالد تايمز»، وفي يوم العاشر من مارس اكتشف قُرَّاء شيكاغو أن سكوت صَنَعَ الأشياء بعَظَمَةٍ، فقد تعاقد مع أفضل المحرِّرين في الوطن، وظَهَرَ اسم نيلِّي بلاي بالفعل بجوار عنوان تحقيقها الأوَّل حول سجن المقاطعة. كشف المقال عن أسوأ أنواع المعاملة التي يتعرَّض لها المحبوسون والمحبوسات في سجن كوك. ومثل الأزمنة القديمة تعود بلاي المدافعة عن العدالة، وبعد ذلك بعشرة أيَّام تبدأ إدارة العقوبات سلسلةً من الإجراءات، تهدف إلى تحسين أوضاع النظافة والصِّحَّة في السجن. كانت بداية رائعة، وكان سكوت أكثرَ من راضٍ، فلقد وَضَعَ علامة مميَّزة. إن نَقْل صَحَفِيَّة من نيويورك إلى شيكاغو لم يكن شيئاً يسيراً، ولكنْ، لم يمنح الزمنُ سكوت المسكينَ الوقتَ ليستمتع بانتصاره، لأنه مات في شهر إبريل من جرَّاء جلطة دماغية في أثناء رحلةٍ إلى نيويورك، وفي هذا الشهر نفسه نُشر المقال الأخير لنيلِّي بلاي للهيرالد، ولكنْ، في هذه المرَّة لم تترك نيلِّي الجريدة بسبب مشكلة مع رؤسائها، ففي مفاجأة للجميع تزوَّجت في الخامس من إبريل 1895 ثريّاً من العاملين في صناعة الصلب، روبرت سيمان(**)، تعرَّفت إليه في حفل عشاء في فندق أوديتوريوم في شيكاغو، قبلها بأسبوعَيْن. هناك تفصيلة لا يمكن إهمالها، وهي

(*) James W. Scott

(**) Robert Seaman

أن سيمان يكبرها تقريباً بأربعين عاماً، وبمجرَّد أن انتشر الخبر، بدأت تنتشر الإشاعات والتخمينات والسخرية من ذلك الزواج العجيب. أعلنت الجريدةُ الساخرةُ «تاون توبيكس»(*) الزواجَ باستخدام أسلوب اليزابيث في التحقيقات: *هل الزواج صيحة؟ تجرب نيلّي بلاي ذلك مع رجل مسنٍّ ماهر. كلُّ التفاصيل الخاصَّة بزوجة سيمان الصَّحَفيَّة!* حتَّى جريدة الـ «وورلد» لم تتخلَّ عن عنوان ساخر: *السَّيِّد والسَّيِّدة نيلّي بلاي، الصَّحَفِيَّة* المشهورة *في كلِّ أنحاء العالم، تتزوَّج* مليونيراً مسنّاً من نيويورك، وهذه *المرَّة لا يتعلَّق الأمر بواحد من تحقيقاتها الصَّحَفِيَّة*، الجميع يتساءلون: لماذا سيمان؟ لقد تقدَّم كثيرون لنيلّي، منهم أثرياء، ولكنها كانت تضع عملها دائماً في المرتبة الأولى. والآن نزعها عن ذلك التكريس المخلص رجلٌ سبعينيٌّ، متوسِّط الجاذبية، عرفتْهُ مصادفة على العشاء. ماذا حَدَثَ لها؟ كان التفسير الأسهل لكثيرين هو الاستغلال. بمجرَّد أن تجاوزت الثلاثين، انتهزت على الفور الفرصة، لتضمن لنفسها مستقبلاً ذهبيّاً، ولكنه لم يكن سوى تفسيرٍ سطحيٍّ مُبسَّط، اتَّضح عدم تماسُكه مع سلوك نيلّي في السنوات التالية.

الواقع أن نيلّي كانت قد استنفدت كلَّ طاقتها، لم يعد العمل الذي أحبَّتْهُ ووَهَبَتْ له استقلالها الاقتصادي وشهرتها يُسلِّيها على الإطلاق. ليس هذا فقط، بل إن هذا العمل لم يمنحها أيَّ شيء في مقابل الوقت والتكريس والتضحيات التي بذلتْها من أجل الجريدة، لذلك كان من الأفضل أن تقلب الصفحة بطريقة جَذْريَّة. إن ما ترجوه الآن هو شخص يمكنها الاعتماد عليه، الآن وقد قيَّدها التعب وعدم الرغبة في شيء، والإحباط في قبضة خانقة، فهي تبحث عن تلك البلُّوطة

(*) Town Topics

التي يمكنها الاستناد إليها بينما تترك نظرتها لِتَشْرُدَ بعيداً، وعندما تقاطعت عيونهما في صالون فندق الأوديتوريوم، اقتنعت بأن سيمان، ربمَّا يكون البَلُّوطة التي تبحث عنها، كانت ريحاً هزَّت بقوَّة أغصانه وأوراقه، ولكنْ، لا يمكن أن تُوقِف شجرةُ البَلُّوط الريح، ولا يمكن أن تطير البَلُّوطة مع الريح. في واقع الأمر، كانا شخصَيْن ضعيفَيْن، ينتميان إلى عالَمَيْن مختلفَيْن، يتجاذبان. تلك البَلُّوطة ستكشف أنها أقلُّ صلابة ممَّا كانت هي تتخيَّلها، وتلك الريح ستكون أكثر إطاحة ممَّا يمكنه هو تحمُّله، ولكنهما عندما يدركان ذلك لن يكون في إمكان أيٍّ منهما أن يتراجع.

كان روبرت ليفينغستون سيمان(*) رجلاً أنيقاً ومتحفِّظاً، هكذا كَتَبَ صَحَفِيُّو الـ «وورلد»، لم يكن يُظهر سنَّه على الإطلاق، متحمِّسٌ دائماً، خصوصاً للمشروعات. بدأ كلُّ شيء في سبعينيَّات القرن التاسع عشر في متجر لتجارة الجملة، عندما دَخَلَهُ روبرت موظَّفاً، وأصبح بعد فترة أحد شركائه. وبالفعل في عام 1862 سَمَحَ لنفسه بشراء مبنًى فخمٍ في رَقْم 73 شارع ويست ستريت، وسجَّله باسم أخته الكبيرة إلين. كانت المنطقة بين أكثر المناطق الخاصَّة في نيويورك، وعلى بُعد خطوات من متجر تيفاني ونادي سان نيكولاس، حيثُ كان يتردَّد عليه أعضاء أقدم وأعرق عائلات نيويورك. ومن بين جيران منزل سيمان يمكن ذِكْر شخصيات مثل فالينتاين غ. هول، الجَدّ من جهة الأُمِّ لإيلينور روزفلت(**). عند موت شريكه عام 1866، يترك روبرت بالتدريج إدارة

---

*) Robert Livingston Seaman

**) Eleanor Roosevelt: قرينة الرئيس الأمريكي السابق فرانكلين روزفلت

المتجر، ليُخصِّص وقته بالكامل لنشاط مثمِر جدّاً: إنتاج الحاويات المعدنية لنَقْل الألبان عن طريق السكك الحديدية. كان، في واقع الأمر، قد أسَّس مع هـ. و. شيبرد(*)، شركة كلاد لإنتاج الحديد، مستدعياً بكلمة كلاد «معركة الأيرونكلادز(**)»، معركة السَّفينتَيْن المصفَّحَتَيْن مونيتور وميريماك(***) في فترة الحرب الأهلية، وبمرور السنوات توسَّعت الشركة، وبدأت بإنتاج أكثر الموادِّ تنوُّعاً من الصلب. كان في الشركة أكثر من ألف وخمسمئة موظَّف، ومقرُّها يشغل مبنًى كاملاً في ضاحية بوشويك في بروكلين. عام 1885 عندما تعيَّنت نيلِّي في «النبأ»، كان روبرت قد جمع ثروة عقارية فعلية وحقيقية. لم يتزوَّج قطُّ، كما كان حال أخيه، الملاصق له، إدوارد. كانت حياته هي حياة عازب لا يكلُّ، يقضيها بين نوادي نيويورك وبين رحلات إلى الخارج واجتماعات العائلة في كاتسكيل(****)، بلدة أبيه الأصلية. عندما انتشر خبر زواجه ربيع عام 1895، استقبله الجميع بكثير من الدهشة، بداية من أقاربه. ولم تكن مصادفة أنهما تزوَّجا في شيكاغو، وليس في نيويورك أو كاتسكيل، ولكن الدهشة الأكثر مرارة هي تلك التي أصابت إليزابيث عندما وضعت قَدَمَهَا في ذلك الذي لا بدَّ أن يكون قَصْرها، لتكتشف أنه مجرَّد منزل شاحب من الحجر البُنِّيِّ في قلب مانهاتن، لم يكن الفَرْش أو العناية بالمنزل من الجوانب القوية لدى الأخوَيْن سيمان، كان المبنى متروكاً بلا عناية، لم يكن إدوارد، أخو روبرت، ضعيفاً تجاه الكحول فقط، بل

H.W. Shepard (*

Battle of Ironclads (**

Monitor, Merrimack (***

Catskill (****

لم يفعل أيَّ شيء ليُخفي صعوبةَ تحمُّله لوجود إليزابيث في المنزل، بل لم يكن أيضاً يُضيِّع أيَّ فرصة ليضعها في مواجهة مع أخيه. وهكذا أصبح زواج الأحلام يوماً بعد يوم كابوساً مليئاً بالاتِّهامات والانتقامات والكذبات. تشعر إليزابيث أنها تختنق في ذلك الذي كانت تطلق عليه المنزل الكئيب Bleak house. روبرت شخص غيور جدّاً، يرسل مَنْ يتبعها، عمليّاً، في كلِّ مكان، لم تجتهد إليزابيث كثيراً، التي قضت حياتها تحت غطاء شخصيات الأبطال القذرين لتحقيقاتها الصَّحَفِيَّة، لتُدرك ما يحدث، وهكذا تُجبِر رجلاً يتبعها أن يعترف في قسم الشرطة بأنه مُؤَجَّرٌ من قِبَل زوجها، روبرت، مضطرب من الغَيْرة، وغير مُعدٍّ لأن يدخل في علاقة مع امرأة نشيطة وحاسمة مثل نيلِّي، يزداد عصبية، يبدو كأنه فَقَدَ كلَّ شعور لديه، بل يهدِّدها أيضاً. وأوصى ألَّا ترث عند وفاته أكثر من ثلاثمئة دولار. الخلاصة، بعد أقلّ من عام على ذلك العشاء في شيكاغو، أصبح الزوجان في حالة حرب، عاشت نيلِّي مرَّةً أخرى كابوس فترة مراهقتها، الاعتماد الاقتصادي على رجل عنيفٍ غيرِ مستقرٍّ نَفْسيّاً، ولا بدَّائل أخرى. لا بدَّ أن تُعيد بناء استقلالها، ولا بدَّ أن تفعل ذلك على الفور، وستفكِّر لاحقاً في أيِّ شيء آخر.

في نفس ذلك العام، رَسَا ويليو راندولف هيرست(*) في نيويورك، كان سليل عائلة مليونيرات لديه موهبة في الصحافة الوَرَقِيَّة، منذُ بضعة أعوام ابتاع جريدة «سان فرانسيسكو إيغزامينار(**)» وحوَّلها إلى جريدة ناجحة، درس جريدة «وورلد» لبوليتزر، من بعيد، واتَّخذ منها نموذجاً لخطَّة التحرير، ولكنه زوَّدها بجرعة أكبر من نزعة الإثارة. لم تعد سان

(*) William Randolph Hearst

(**) San Francisco Examiner

فرانسيسكو تكفيه، يريد أن يلعب مباراته في ساحة أكبر، والأهمّ أكثر تقديراً، ويريد مِن ثمَّ أن يغزو نيويورك. بعد موت أبيه عام 1895، يرث ثروة هائلة، ولكنْ، يمكنه أن يديريها فقط بسماح من الأُمِّ، تظهر أمامه الفرصة المناسبة عندما تُعرَض جريدة «صحيفة الصباح(*)» للبيع، جريدة في انحدار كبير، وكان قد تنازل عنها ألبرت بوليتزر، أخو مالِكِ جريدةِ الـ «وورلد»، لجون ماكلين قبل ذلك بعام، بثمنٍ خرافيٍّ، يبلغ تقريباً مليون دولار. ابتاعها ماكلين، المالك الناجح لشركة «معدَّات سينسيناتي»، مقتنعاً بأنه يمكن أن يرفع مرَّةً أخرى من مستواها، ولكن الجريدة استمرَّت في فَقدِ قُرَّائها، وهكذا في خريف عام 1895 يقرِّر ماكلين بدوره أن يبيعها. وَصَلَ الخبر إلى هيرست، وتحدَّث في ذلك مع أُمِّه التي سمحت له بأن يستخدم بعض النقود، وبملغ مِئة وخمسين ألف دولار، أقلّ من 20 بالمِئة ممَّا أنفقه ماكلين ليبتاعها، أصبح هيرست أخيراً في سنِّ الثانية والثلاثين مالكاً لصحيفة نيويوركية، وغيَّر اسمها لـ «جريدة المساء». اعتبر الجميع ذلك مشروعاً مجنوناً، مُقدَّراً له الإخفاق. لا بدَّ أن هذا الفتى لديه كثير من النقود، هكذا فكَّروا في صُحُف «هيرالد، و»التريبيون»، وخصوصاً في الـ «وورلد»، ولكنه لا يفهم أيَّ شيء في الصحافة، وقرَّر أن يشتري تلك الجريدة القديمة «الصحيفة Journal"، إلَّا أنهم كانوا مخطئين خطأً فادحاً، فكلُّ ما لم ينفقه ليشتريَ الجريدة، أنفقه «الرِّيس The Chief" (وهكذا سيطلق على هيرست حتَّى نهاية أيَّامه) ليحصلَ على أفضل الأقلام على الساحة، دون أن يفكِّر في المصروفات. على سبيل المثال، يعرض على ريتشارد هاردينغ ديفيز(**)، الذي كان نجمًا صَحَفِيّاً لذلك الزمن،

(*) Morning Journal

(**) Richard Harding Davis

خمسمئة دولار، فقط ليُرغِّبه في كتابة أخبار مباريات كرة القَدَم بين الفِرَق الجامعية لجامعَتَي يال وهارفرد(*). ولا يتوقَّف عند هذا الحَدِّ، ففي مبنى الـ "وورلد" في بارك روه، وفي الطابق الحادي عشر، توجد مكاتب نيويورك لجريدة "سان فرانسيسكو إيغزامينر"، ومن هناك يجري هيرست مفاوضات سرِّيَّة مع موريل غودارد(**)، المسؤول عن نسخة الأحد المزهرة لـ "وورلد"، ويُعيِّنه ومعه جزء كبير من الإدارة. عقد رجال بوليتزر اجتماعاً استشاريّاً بعد أن أزعجتْهم جرأة هيرست، الشيء الأوَّل الذي فعلوه هو أنهم ألقوا إدارة جريدة الإيغزامينر خارج مبنى بارك روه، ثمَّ خفَّضوا سعر الجريدة. ولكنَّ هذا لم يكفِ، إذ إن "الجورنال" كان قد انطلق بالفعل، وكان على الـ "وورلد" أن تلحق به، أي إن هيرست كان يُملي الأخبار، وكان على بوليتزر، للمرَّة الأولى، أن يتبع خصمه. عُهِدَ بإدارة عدد الأحد إلى صَحَفِيٍّ مهمٍّ، وهو آرثر بريسبان(***)، الذي مثل كلِّ المدرِّبين المَهَرَة، ميَّز نقاط القوَّة في فريقه، وفتح حملة تسويق حقيقية. بالنسبة إلى نيلِّي، التي كان بريسبان يكنُّ لها تقديراً هائلاً، حانت اللحظة لأن تعود المرَّة الثالثةَ إلى الـ"وورلد". وفي يناير عام 1896 يظهر توقيعها من جديد على صفحات الجريدة. بريسبان يدرك ماذا يمكن لنيلِّي عمله، ويعهد إليها بتغطية المؤتمر القومي للمطالبة النّسويَّة بحقِّ الاقتراع، الذي سيُعقَد في واشنطن في شهر فبراير، وبالفعل لا تُخيِّب نيلِّي توقُّعاته، كانت تغطيتها لما يحدث في العاصمة، أقلّ ما يُقال عنها "رائعة". أدَّت الخبرة، بالإضافة إلى قدرتها على التعبير،

(*) Yale, Harvard

(**) Morril Goddard

(***) Arthur Brisbane

لأن يشعر القارئ بأنه في داخل المؤتمر مع المندوبات. كانت نيلِّي تنقل بكتابة سلسلة ممتعة النقاشات، الصدامات، النميمة والإشاعات لذلك المؤتمر المكوَّن فقط من النساء، الأمر يتعلَّق بعودتها بأسلوب عظيم، إلَّا أن ذلك الموسم في الـ «وورلد» استمرَّ فقط بضعة أشهر. بعد عام، أو أقل قليلاً من بداية ذلك الزواج المتسرِّع، وبعد المشاحنات والكذبات، بعد التَّعقُّبات والتهديدات والدموع، بعد كلِّ هذا، وجد روبرت وإليزابيث نفسَيْهما، في إحدى الأُمسيَّات، وكلٌّ منهما ينظر إلى عينَي الآخر، مثل تلك المرَّة في شيكاغو. إنهما ما يزالان يرغبان في الاستمرار معاً، على الرغم من كلِّ شيء: البيت الكئيب، النميمة، الأخ مدمن الكحول، الغَيْرة. كانت فترة قاسية ومعقَّدة ومؤلمة. ولكنهما ما يزالان هناك، كلٌّ منهما في مواجهة الآخر، يجذبهما شيء أقوى من كلِّ ما يمكنه أن يُفرِّقهما. تقرِّر إليزابيث إذاً أن تأخذ استراحة من الجريدة، وتقبل دعوة روبرت لأن يقوما برحلة طويلة إلى أوروبا. سيمكثان بعيداً ثلاثة أعوام، ينتقلان فيها من باريس إلى فيينا، ثمَّ إلى روما، وخلال تلك الأعوام الثلاثة ستزداد ثقة وحُبُّ روبرت إلى حَدِّ أنه سيعهد بكلِّ مملكته إليها. وسوف تنزع إليزابيث رداء الصَّحَفِيَّة، وبدلاً من أن تستمتع بذلك الرداء الخاصِّ بالسَّيِّدة الثَّريَّة المليونيرة، ستُدهش الجميع مرَّةً أخرى، وتقرِّر أن ترتدي الزِّيَّ الأكثر طموحاً وخطورة، زِيَّ المدير. أخيراً يمكن للريح أن تستقرَّ على البَلُّوطة دون أن تعمل هي على وَقْفها.

إليزابيث، المديرة

هناك شعلة ما، شعلة عظيمة في مقرِّ كاتسكيل، بعض الظلال تتحرَّك كأنها خيالات بالقرب من تلك النيران القوية، خلفها، وفي نهاية مقرِّ عائلة سيمان، تتأرجح المصابيح العالية، وتنير وجهكِ على فترات متقطِّعة، تتحرَّكين بعصبية من جهة إلى أخرى من النيران مُلقيةً من حين إلى آخر بشيء ما، كأنكِ تغذِّينها، عيناكِ أهلكَهُما البكاء، ويداكِ عليهما علامات الضغط، يتبادل في قلبكِ الشعور بالغضب والاستسلام، وبلا توقُّف تسيرين داخل النيران، كأنكِ في رقصة وَثَنيَّة، قرَّرتِ أن تحرقي كلَّ ما ينتمي إلى أختكِ كيت، أو الأصحّ كلَّ ما كان لها، لأن كيت ماتت، والسبب مرض الدَّرَن اللعين. كانت قد وَصَلَتْ في الصيف، وفي ذلك المنزل قضتْ أيَّامها الأخيرة، ولم تكوني أنتِ هناك. عند سماع خبر وفاتها، تركتِ كلَّ شيء في أوروبا، حتَّى زوجكِ، وحضرتِ إلى هنا. تستمرِّين في النظر إلى النيران باكية. جمعتِ كلَّ أشيائها، ملابسها وجواهرها، الملاءات والفُرش، بل الفراش الذي قضت فوقها ساعتها الأخيرة. حرقتِ كلَّ شيء، كومة مرتفعة جدّاً، يتراءى ضوؤها من بعيد، يراقب الجيران المشهد من نوافذهم، لطالما اعتبروكِ مجنونة، وانتهازية. لم يكن هذا أمراً جديداً عليهم، واقع أنكِ تزوَّجتِ وأحببتِ روبرت سيمان، دليل قاطع، بالنسبة إليهم، على جنونكِ وحساباتكِ الدقيقة. ولكن روبرت أدرك كلَّ شيء، وتركَكِ ترحلين، بمفردكِ، يعرفكِ

جيِّداً بما يكفي ليحاولَ أن يمنعكِ، يعرف جيِّداً أن أفضل طريقة ليحتفظ بكِ هي أن يتركَكِ تذهبين، هكذا يعني الحِداد عودتكِ إلى المنزل. ولكنْ، في هذه المرَّة لا قطار ينتظركِ، ليأخذكِ منتصرة إلى نيويورك، بدلاً منه يوجد تابوت، هذه النيران، تفكِّرين، ربَّما دفَّأت قلبكِ، ربَّما من أجل ذلك لم تتوقَّفي لحظة عن تغذيتها. والآن، بينما أنتِ في هذا المستشفى، تعانين الحُمَّى التي لا تتركُكِ، والرعشات من البرد التي تهزُّ طويلاً جسدكِ الضعيفَ، اليوم تفكِّرين في تلك الشعلة والحرارة التي كنتِ تبحثين فيها عن العزاء، لكنكِ فهمتِ متأخِّراً جدّاً أن النيران لن تواسيَكِ، ولكنها تلتهم جوعاً كلَّ ما تقابله، وفي النهايَّة لم يتبقَّ منها سوى حفنة من الرماد.

"أنا المرأة الوحيدة في العالم التي ترأس مجموعة صناعية بهذا الحجم".

هكذا صرَّحت إليزابيث كوكران، المعروفة باسم نيلِّي بلاي، وتحمل اسم السَّيِّدة سيمان، بفخرٍ في إحدى الحوارات الصَّحَفِيَّة التي أجرتْها وهي في قمَّة نجاحها مديرةً لصناعة حديد كلاد، وشريكتها American Steel Barrel.

إننا الآن في عام 1905، ومنذُ 1899 وإليزابيث تدير شركة زوجها روبرت بصفة رئيس. في الواقع لم تكن مخطئة تماماً عندما أشارت إلى منصبها المميَّز الفريد، فلم تكن هناك نساء على رأس صناعة، تشغِّل ألفاً وخمسمئة من الموظَّفين في تلك الأعوام، كان وَضْعها بالفعل

وَضْعاً استثنائيّاً ممَّا يُخبرنا كثيراً عن شخصيَّتها، بوصفها صَحَفِيَّةً سابقة مفضَّلة في جريدة الـ "وورلد". في الواقع كان يمكن لإليزابيث أن تستمتع بسعادة بثروة زوجها المسنِّ روبرت، بأن تعيش بين حفلات الاستقبال في منزلها رَقْم 37 في ويست ستريت وبعض الرحلات في أوروبا بدلاً من إدارة الشركة، ولكنها، أيضاً، تعيش تحت سيطرة القلق نفسه الذي كان ينتاب أباها كوكران القاضي. بالنسبة إليها، كما كان الأمر بالنسبة إليه، لا يمكن التَّوقُّف، على الإطلاق، لهذا اختارت أن تضع نفسها مرَّةً أخرى في اللعبة، امرأة تقود مصنعاً للحديد والصلب مثل ذلك الذي لروبرت سيمان. كان ذلك يثير دهشة أكبر ممَّا أثارتْها من قبل تحقيقاتها الصَّحَفِيَّة المثيرة، التي أصبحت قديمة الآن. ممَّا لا شكَّ فيه أن النساء شغلنَ أدواراً على قَدْرٍ كبير من الأهمِّيَّة في المجتمع الأمريكي مقارنة بالأعوام السابقة، ولكنْ، أن تتمكَّن إحداهنَّ من إدارة مصنع بتلك الأبعاد أمرٌ غريبٌ بالنسبة إلى كثيرين. لا تدَّخر إليزابيث جهداً، فهي تقضي اثنَتَي عشرة ساعة في اليوم في مكاتب الشركة في بوشويك(*)، تدرس المساحات والمشاريع الإنتاجية، تراقب العاملين في أثناء عملهم، تُدوِّن ملحوظات، تُصمِّم، تطرح الأسئلة، تتعلَّم وتتطوَّر، إلَّا أن رياح الحداثة تهبُّ بقوَّة في المُدُن الكبرى، وفي الأحياء الشَّعبيَّة والمصانع. تتنفَّس اليزابيث ذلك الهواء بملء رئَتَيْها، وتجسِّده في روحها، كانت تلك هي الأعوام التي أطلق عليها الفيلسوف جون ديوي(**) أعوام "الذكاء الإبداعي"، وكان تعريفاً على مقاسها تماماً.

---

*) Bushwick

**) John Dewey فيلسوف أمريكي (1859-1952) من أوائل المؤسِّسين للفلسفة البراغماتية، ومن أشهر أعلام التربية الحديثة

يمكن أن يصبح المصنع معملاً كبيراً، حيثُ تمُارَس كلُّ التجديدات الإنتاجية والاجتماعية، كانت تلك هي الأعوام لما يُطلق عليه "settlement houses"، تلك المساكن المدنية التي تريد أن تصنع جسراً بين المدينة الثَّريَّة والأحياء الأكثر فقراً مقدِّمةً لعائلات العاملين خدمات اجتماعية، مثل مساكن المعاشات، صالات القراءة، حضانات الأطفال، وصالونات للترفيه. الآن وقد أصبحت إليزابيث على الجهة الأخرى، لم تنسَ الطبقة العاملة بطلة تحقيقاتها الأولى في جريدة "النبأ"، أرادت أن تحوِّل ذلك المصنع إلى مجتمع فريد من نوعه، دون أن تُعيد تجربة بولمان تاون. كانت تعرف جيِّداً أنها لكي تستثمر في الجانب الاجتماعي، لا بدَّ أن تتمتَّع تلك المساكن بالكفاءة والفوائد المتضاعفة، لهذا تتفنَّن في إعادة تنظيم المساحات والإنتاج، تحصل على قطارات بضائع، يمكنها أن تعبر في مصنعها، لتسمح بعمليات سريعة من الشحن والتفريغ، تعيد تخطيط الآلات، وتُصمِّم آلات جديدة، إلَّا إن الالتزام بالمصنع لم يمنعها من الاشتراك في الحياة التَّرفيهيَّة للمدينة، تُعيد تأسيس المنزل رَقْم 37 في ويست ستريت، ولا تُبقي من ملامح المنزل الكئيب لعام 1895 سوى القليل، فلقد أصبح هناك صالة جلوس مزيَّنة على نمط متحرِّر، تستقبل فيها أصدقاءها بانتظام مساء الأحد، تتحدَّث إليزابيث وهي ترتشف عصير البرتقال مع بريسبان الذي ترك الـ "وورلد"، ليصبح الرجل الثاني في هيرست أو تبتسم تعليقاً على النميمة الأخيرة مع ممثِّلة برودواي بيفرلي سيتغريف(*)، تحيط نفسها بأعزِّ مَنْ لديها، حيثُ تعيش معها أُمُّها ماري جين، وبياتريس، ابنة أختها كيت، التي ماتت من الدَّرَن في صيف عام 1899. كانت تلك

(*) Beverly Sitgreaves ممثِّلة وصَحَفيَّة ومحبَّة للأعمال الخيرية (1863-1943)

أعوام شديدة الحيوية والطاقة، تعمل إليزابيث، مثلما كان الحال في أزمنة الـ "وورلد"، بإيقاعاتٍ مكثَّفة، لقد أدركت بفطنة قاعدة أساسية للتسويق: تنويع المنتَج. من مصنع بوشويك تخرج عبوات وحاويات من الصلب لنقل اللبن ومنتجاته، أفران وغلَّايات تعمل بالديزل، صهاريج من أنواع مختلفة، بل أيضاً أحواض للمطبخ. سجَّلت أكثر من خمسٍ وعشرين براءة اختراع، ومن بينها نوع معيَّن من الصناديق لنَقْل السوائل ودلو من أجل النفايات القابلة للتكويم. لم تكن إليزابيث تهتمُّ فقط بالمنتج، ولكنْ، أيضاً بالأشخاص الذين من دونهم لا يمكن أن يعمل المصنع، لهذا، ألغت قبل كلِّ شيء نظامَ الدَّفْع بالقطعة، مستبدِلَة بهِ أجراً أسبوعيّاً لكلِّ موظَّفيها، أقامت مبنًى من ستَّة طوابق، ليتسع للمكاتب والأنشطة التَّرفهيَّة للعاملين في حديد كلاد، كانت تُطلع، بكلِّ فخر، مُموِّلي وعملاء مصنعها، على الحمَّامات المخصَّصة للعاملين، المجهَّزة بالمناشف والصابون، كانت تتسلَّى وهي ترى وجوههم، عندما تأخذهم، في أثناء الزيارة، إلى الملعب وصالة الألعاب المخصَّصة للبولينغ، وفي الطابق الخامس، نظَّمت مكتبة مزوَّدة بأكثر من خمسة آلاف كتاب، وفي صالة أخرى ألعاب تنس الطاولة والبلياردو، والبيانو (وهي هواية لم تتخلَّ عنها قطُّ). مكتبة سُر مَن قرأ

في مقالات شبابها كانت تدين دائماً قلَّة الأنشطة المسلِّية للعُمَّال في عطلة نهاية الأسبوع، وهو ما كان يدفعهم إلى التَّسكُّع في الحَيِّ وصرف مرتَّباتهم في الحانات، وهكذا كانت تنظِّم أُمسيَّات اجتماعية أيَّام السبت، للعُمَّال وعائلاتهم. كانت تعتني بكلِّ ما يخصُّ حيواتهم. كان هناك لجنة مخصَّصة تعتني بالموظَّفين المرضى الذين يعانون صعوبةً ما. وكانت توجد وحدة إنقاذ عاجل في المبنى، وبها طبيب بسعر

مخفَّض للكشف، أمَّا الرؤساء والمديرون، فقد وضعت تحت إمرتهم مطعماً، يطهو فيه طاهٍ ياباني. منذُ زمن جولتها حول العالم وهي تحمل في قلبها بلد الشمس الساطعة، ودفعتْها نحو هذا الاختيار الغريب رغبتُها في مشاركة ذلك الطعام الذي أحبَّتْهُ بشدَّة مع معاونيها.

إنه صباح يوم بارد في شهر فبراير، خرج روبرت سيمان من المنزل، كان يتمشَّى بطول شارع 37 ويست ستريت، ومن زاوية سيكث أفينو يعبر الشارع وهو منهمك في التفكير، ولا يلتفت إلى عربة تتقدَّم تماماً نحوه، لا يستطيع الحوذي أن يفعل أيَّ شيء ليتوقَّف في الوقت المناسب، فتسحقه الأحصنة تماماً، على الفور يُنقذونه، وينقلونه إلى المستشفى، حيثُ يؤدِّي الأطبَّاءُ الإسعافات الأوَّليَّة، ويجبرون الكسور في بعض الضلوع، وبعد بضعة أيَّام، يسمحون له بالخروج، وتأخذه إليزابيث من جديد إلى المنزل، بعد نحو شهر، وفي العاشر من مارس، وبينما يقرأ الجريدة كما يفعل كالعادة كل صباح يسقط سيمان أرضاً، تستدعي إليزابيث الطبيب على الفور، يفحصه، إلَّا أنه لا يستطيع أن يحدِّد سبباً لما يشعر به، وعند منتصف الليل تقريباً يموت روبرت، على الأرجح نتيجة الحادث الذي تعرَّض له في فبراير. وينتهي بذلك، عام 1904، ذلك الزواج العجيب الذي كان موضوع حديث مجتمع نيويورك، زواجٌ لم يكن أحد ليُراهن بدولارٍ واحد على نجاحه، إلَّا أنه استمرَّ تسعة أعوام كاملة. تُعِدُّ إليزابيث الحجرةَ الدافئةَ في منزلهما، لتستقبل كلَّ أصدقاء نيويورك الراغبين في تحية روبرت للمرَّة الأخيرة، ثمَّ يُنقَل الجثمان إلى كاتسكيل، ويُدفن في مدفن العائلة.

وبناء على وصيته الأخيرة، التي كَتَبَهَا في أثناء رحلة أوروبا، يترك

مستر سيمان كلَّ ثروته بين يَدَي زوجته الشَّابَّة، يُعارض أقاربه صحَّة الوصية، ولكنْ، في النهاية تفوز إليزابيث، وتتولَّى الإدارة الكاملة لشركة الحديد المغلَّف، الشركة التي كانت تحتضر عام 1899، والآن تسجِّل أعلى إيراداتها. وفي أعياد الميلاد عام 1905 تحتفل إليزابيث بنجاح شركة الحديد المغلَّف Iron Clad بحفل كبير في المصنع، وبهذه المناسبة تستقبل في موقع بوشويك العاملين وعائلاتهم، يشترك في الحفلة ثلاثمئة شخص، وتعطي إليزابيث لكلِّ موظَّف سلَّة ميلاد غنية، تحتوي على دجاجة، حلوى الكريسماس، تُفَّاح وبرتقال وعبوة حَساء، فاصوليا في صلصة حلوى، بسكويت وسيجار أيضاً.

> كانت فلسفة الحياة بالنسبة إلى السَّيِّدة سيمان بسيطة: ربُّ الأسرة عليه واجب العناية بأبنائه، وبمَنْ يعيش معه في المنزل، وبالطريقة نفسها يكون على صاحب العمل، سواء كان يوظِّف عاملاً واحداً أو آلافاً، أن يعتنيَ بالرجال والنساء الذين يعملون معه ويفعل كلَّ ما يستطيعه، لكي يجعل حيواتهم أكثر سعادة وإشراقاً.

وكان قائل هذه العبارة هو المايجور إدوارد ر. جيلمان(*)، المدير العام لشركة أيرون كلاد، الذي عمل بجوار إليزابيث منذُ عام 1899. كان بينهما تضامن مهني قوي، وربَّما كان هذا يخفي علاقة شخصية حميمية، أُشيع أن هذا الضابط السابق هو أيضاً عشيقها، في الواقع كان جيلمان هو صورتها الأخرى. كانت إليزابيث مسحورة بهذا الرجل، دبلوماسي في ويست بوينت، خبير الهندسة الإلكترونية الذي يُعدُّ

(* Edward R. Gilman

أفضل مقاول عامٍّ في ذلك المجال، لديها ثقة مطلقة به، يعلم جيلمان ذلك، ويستغل ذلك بلا ضمير. في العام السابق، بعد وفاة زوجها بقليل، تدرك إليزابيث أنه قد سحب خمسمئة ألف دولار، إلَّا أنها تتركه في منصبه مكتفية بندم "مخلص". يهوى جيلمان اليخوت، وتهوى إليزابيث السَّيَّارات الجديدة، تحبُّ السرعة، يكتب لها بريسبان بعد رحلة معها هي وجيلمان: أحببتُ كثيراً رحلتي معكما في السَّيَّارة، ولكنني الآن سأتجنَّب أن أعود إليها حتَّى أعيد مرَّةً أخرى نظامي العصبي إلى مكانه، إلَّا أنني قدَّرتُ كثيراً مجهودكِ الرقيق والمهذَّب والمثابر لقتلي يوم السبت الماضي.

يخت جيلمان راسٍ في مرسى شيبسهيد، ميناء سياحيٌّ يطلُّ على خليج، يفصل بروكلين عن الجانب الشَّرقيِّ من كوني أيلاند. خلف الميناء، استأجر جيلمان كوخاً أيضاً، تقضي فيه إليزابيث كثيراً إجازتها مع عائلتها. في أحد الأيَّام، وبينما ما زال اليخت راسياً، يُدرك أحد الصِّبْيَة المارِّين أن طريقة رُسُوِّ اليخت مائلة بطريقة خطيرة نحو الجذر المنخفض، يحاول بوب كير - كان هذا اسم الصَّبيّ - أن يحذِّر طاقم اليخت، ولكنْ، لا أحد يستمع إليه، كان جيلمان على متن اليخت، يطلُّ ويطلب تفسيراً. يجيبه بوب: يبدو أن رجالكَ كسالى جدّاً إلى حَدٍّ أنهم لا يرغبون حماية يختكِ من العطب، يحذِّرهم جيلمان بنفسه، ويجعل طاقم اليخت يتدخَّل ليحلَّ هذه المشكلة، ثمَّ يدعو بوب على مَتْنِه. فعل هذا لشعوره بالامتنان، ولكنْ، أيضاً لأنه أدرك أن ذلك الشَّابَّ اليقظ جدّاً، الذي يرتدي أسمالاً، ولا يمتلك دولاراً واحداً، يمكنه أن يفيده، واقترح عليه أن يصبح مساعده الشَّخصيَّ في مقابل خمسة وعشرين دولاراً أسبوعيّاً، يوافق بوب، وأوَّل مهمَّة كانت العثور على

ملابس مناسبة له. هكذا اصطحبه جيلمان لأحد أكثر الخيَّاطين أناقة في فيفث أفينو، وطلب له بناطيل من القماش الأبيض وسترة زرقاء بأزرار نُحاسيَّة. ومنذُ تلك اللحظة تبع بوب جيلمان ثلاثة أعوام إلى أعلى وأسفل الساحل الشَّرقيِّ على متن يخته، بعدها بعدَّة أعوام سيحكي بوب كير هذا الحَدَث لصديق كاتب، سيستوحي منه صورة بطل رواية يفكِّر فيها، يكتب المؤلِّف لكير "ممَّا حكيتَ لي سوف أذكر اليخت وصاحبه الغامض الذي كانت نيلِّي بلاي رفيقته. سيكون لبطلي دورك نفسه، وسوف يحصل عليه تماماً، كما حصلتَ عليه أنتَ، سأُسمِّيه روبرت ب. كير، بدلاً من روبرت س. كير لأُخفي شخصيَّتكَ. أمزح، أردتُ فقط أن أُفزعَكَ، سيكون اسمه غاتسبي، ويوقِّع المؤلِّف باسم فرانسيس سكوت فيتسجيرالد(*).

في تلك الأعوام تابعت إليزابيث بعناية النواحي التَّنظيميَّة والإنتاجية لأيرون كلاد، ولكنها أهملت تماماً تلك المالية، كان على شخص آخر، يتلقَّى أجراً كبيراً أن يفعل ذلك، وهو الميجور جيلمان. حتَّى عام 1909 لم يكن لدى إليزابيث أيُّ فكرة عمَّا يحدث في حسابات شركتها، سَحَبَ جيلمان وأعوانه، بخسَّة شديدة، عشراتِ الآلاف من الدولارات من خزائن الشركة، وهكذا، وعلى الرغم من أن المصنع ينتج ويبيع بكلِّ طاقته، لم تكن السيولة كافية، تسلَّل الشَّكُّ إلى إليزابيث، وتحدَّثت في الأمر مع جيلمان، ولكنه حاول أن يطمئنَها قائلاً: كلُّ شيء تحت السيطرة، يا عزيزتي، إنها فقط طاقة النساء، فأنتنَّ لا تحتملنَ الضغط. نظرت إليه شَزراً، لقد قضت عشرة أيَّام في مصحَّة للأمراض العقلية، وتظاهرت

(*) Francis Scott Fitzgerald كاتب روائي أمريكي (-1894 1940) مؤلِّف الرواية المشهورة «غاتسبي العظيم»

بأنها مجنونة، مخاطرة بأن يُكتشَف أمرها بين لحظة وأخرى، وهو يشكُّ في قدرتها على تحمُّل مواقف مثيرة للتَّوتُّر؟ قال لها، بينما يرتشف كأساً من البربون: إن زيادة الإنتاج زادت من التكاليف، ولهذا نحاول العثور على حلول مناسبة، والأسهل هو أن نطلق مزيداً من القروض، فحجم الأعمال ضخم.

ثمَّ توقَّف حتَّى انتهى من شرب الكأس: ولهذا لن يتسبَّب التَّدخُّل المصرفي في أيِّ مشكلة للشركة.

تشعر إليزابيث بالاضطراب، ولكنْ، كان تأثير جيلمان عليها قويّاً جدّاً، فلم تتوقَّف هذه المرَّة أيضاً لتحقُّق بعمق في الأمر، ولكن كلَيْهما لم يُقيِّما جيِّداً موقفاً خطيراً جدّاً، ولا حتَّى في ضوء أن قيمة الممتلكات الثابتة لأيرون كلاد (التي يستخدمها جيلمان كضمان للقروض) كانت قد انخفضت في الأعوام الأخيرة. في تلك الأعوام، في الواقع، كانت سوق العقارات تمرُّ بأزمة حادَّة جدّاً، بخسائر في القيمة تصل إلى أربعين في المئة، وبدأت المصارف تتوتَّر، كانت تخشى ألَّا تحصل مرَّةً أخرى على نقودها، بالإضافة إلى أنها لم تكن تثق بهما، كان بارونات القروض ينظرون بريبة دائماً لذلك الزوج العجيب: صَحَفِيَّة سابقة تجوَّلت حول العالم، غير قادرة على أن تفرمل لسانها، وضابط سابق دخيل على المالية.

فجأة حَدَثَ شيء ما، في شتاء عام 1910. يبدو أن جيلمان قد فَقَدَ تماسكه، يشعر بتعب شديد، ولا يظهر كثيراً في المكتب، تبحث عنه إليزابيث وتطلب منه تفسيرات، فهي متأكدة تماماً من مسؤولياته المالية، وفي الوقت نفسه تشعر بالقلق حيال غيابه الطويل. ومثل عادتها تواجه المشكلة بنفسها، في أحد الأيَّام تذهب دون أن تخبره

إلى منزله، تطرق بإصرار الباب حتي يفتح جيلمان لها، تجده في رداء المنزل، شاحباً، ووجنتاه غائرتان، لا تستطيع إليزابيث أن تقول أيَّ شيء، فقد اختفى الرجل الشجاع المغرور الذي كان يسيطر على العالم من فوق جسر يخته، ويقف أمامها شبحه، تُقنعه بأن يدع طبيباً يفحصه، ولكن التشخيص بلا أمل، فيجيلمان مُصاب بنوع عنيف جدّاً من سرطان المعدة، وسيطر المرض على كلِّ شيء. تسأل إليزابيث الطبيب عن الأسباب المحتملة لهذا، لا يعرف ماذا يقول لها سوى أن فترات التَّوتُّر العصبي الطويلة، أحياناً، يمكنها أن تُسرِع في انتشار الورم. تشعر إليزابيث بالفزع، وتفكِّر في أن ضغطها وتلميحاتها وشكوكها قد أثَّرت في عقل وجسد جيلمان المسكين، ويسيطر عليها شعور عميق بالذنب، أصبح الأمر ندماً لن تتحرَّر منه أبداً، على الرغم من أنه يتَّضح لها، بعد ذلك بفترة، حقيقة سرقات مديرها العامّ. "شعرتُ بأنني مسؤولة بطريقة ما، كأن القلق المستمرَّ على مسار الأعمال في الشركة هو ما أضعفه وجعله أكثر عرضة للمرض"، لهذا تُكرِّس إليزابيث له كل الوقت الذي لا تعمل فيه، استأجرت على نفقتها الخاصَّة منزلاً في خليج شيبسهيد، حيثُ كانوا يقضون، مستمتعين، أيَّام العطلات. يُحاط جيلمان بالممرِّضات والأطبَّاء والخَدَم، جميعهم على نفقة إليزابيث، ومُدرِكاً لما فعله تمام الإدراك، لا يقوى على أن ينظر إلى عينَي صديقته، التي ظلَّت أكثر من عام، تذهب إلى منزله لتواسيَه بمجرَّد أن تخرج من مكتبها، كانت الصلة بينهما أعمق ممَّا تخيَّلاه. تجد إليزابيث، من جهتها، كثيراً من الصعوبة في تخيُّل حياتها من دون جنرال وست بوينت بجوارها، وعلى الرغم من أنها مدركة تماماً أنها أمام الشخص الذي دمَّر إمبراطوريتها كلَّها، لا تستطيع أن تقبل فكرة انفصالها عنه، يبدو من الصعب تصديق

الذي حَدَثَ، ولكنها وهي تراه يحتضر هكذا بالتدريج، كانت ترجو أن يتحرَّر على الأقلِّ من هذا الثِّقَل، وبينما كان فريسة للحُمَّى حاولت أن تُطمئنه، فهمست له بأنها مستعدَّة أن تغفر له أيَّ شيء فعله، وأنه لا يجب أن يخشى شيئاً، يحدِّق هو في عينَيْها، ثمَّ دون أن يتفوَّه بكلمة، يلتفت إلى الناحية الأخرى، ويبكي بحرقة كأنه طفل.

يموت جيلمان في فبراير عام 1911، تتهاوى شركة أيرون كلاد كأنها قَصْر وَرَقِيٌّ، يحيط المصارف والمحامون والقضاة والرأي العامّ بإليزابيث، وبعد ذلك بقليل يتَّضح أن جيلمان ومعاونيه قد سرقوا من الشركة مليون دولار على الأقلِّ، رَقْم فلكي في تلك الأزمنة، ولأوَّل مرَّةً يرتبط اسم نيلِّي بلاي، البطلة الشجاعة للجولة حول العالم، بإخفاقٍ ما. ليس هذا فحسب، بل لا أثر لتلك الأموال، تبخَّرت، إلَّا أن الدَّيَّانة كلَّهم ما زالوا موجودين، ويطالبون باستعادة أموالهم، إليزابيث هي رئيسة الشركة، ومن ثمَّ فهي المسؤولة عن الحسابات. وهكذا تبدأ معركة قضائية، لا نهاية لها، مع البنوك والدائنين. في ذلك الوقت، وقبل أن ينفجر الموقف، نقلت إلى أُمِّها، راعيتها التي لم تنفصل عنها، مِلْكِيَّة القصر الواقع في 37 ويست ستريت، ومع مرور الأشهر اتَّضح أكثر أن جيلمان ومديريه استغلُّوا الشركة لمصلحتهم، وأنفقوا نقودها من خلال التلاعب في الميزانية، واستخدام بنودٍ وَهْمِيَّة، ليُحوِّلوا من خلالها نقود أيرون كلاد مباشرةً إلى جيوبهم، ولكنْ، استمرَّت إليزابيث تنظر إلى جيلمان بعين الاعتبار، لم تستطع ولم ترغب في أن تُصدِّق أن الرجل الذي كان بجوارها كلَّ تلك الأعوام هو المدبِّر الرئيس لهلاكها. كرَّرت لمَنْ تبقَّى بجانبها من الأصدقاء، وكرَّرت في التصريحات التي أدلت بها للصحف، التفسيرَ الوحيد الذي استطاعت أن تقبله: أعتقد أنه لم يكن متورِّطاً

مع أولئك الذين دبَّروا تلك المؤامرة لإفلاس الشركة، ولكنْ، دَفَعَ عدمُ أمانتهِ الآخرين لأن يفكِّروا في عمل ذلك، كان ذلك وَهْمها الخاصَّ، إذ إن جيلمان كان متورِّطاً في الأمر حتَّى عنقه، ومن خلال فكِّ شَفْرة البنود الموضوعة في الميزانية، اكتشفت إليزابيث، على سبيل المثال، أن خمسة وعشرين ألف دولار استُخدمت كمصروفاتٍ على متن اليخت الذي كانت هي نفسها تقضي فيه أيَّاماً سعيدة، تحتسي الشمبانيا معه ومع ضيوفه، مرَّةً أخرى لم يكن أمامها سوى أن تستنتج أن رجلاً ما هو السبب فيما آلت إليه من مصائب، فهي لعنة آل كوكران. تُعيد التفكير في الأيَّام البعيدة، التي لم تنسها قطُّ، والتي عاشتْها مع زوج أُمِّها، إلى الوعود الخادعة لجاكسون، وأيضاً إلى خيانة جيلمان، طالما اعتمدت على نفسها، وعلى موهبتها، كان كلُّ شيء يجري بأفضل طريقة ممكنة، الآن عليها، بمفردها، أن تتردَّد على صالات المحاكم، فسرعان ما تخلَّى المحامون الذين استعانت بهم عن القضية، لأنها ليست شخصية سهلة، لم تكن لديها أيُّ نِيَّة لأن تجلس جانباً، وأن تجعلهم يتصرَّفون بمفردهم. كان الرجال يطلبون منها هذا دائماً، ولكنها لم ترتحْ لذلك، وفي الوقت نفسه، تجد صعوبة في فهم مسؤوليتها الفادحة في الإدارة المالية لشركة أيرون كلاد. خضعت الشركة لسيطرة الإدارية للسماح بتصفيتها، ومن ثمَّ لدَفْع جزء من ديونها، وحاولت إليزابيث على الأقلِّ أن تُنقذ الشركة الأخرى، حاويات الأمريكان ستيل. لم يعد باستطاعتها الذهاب إلى مكاتب بروكلين، فلم يعد ذلك مصنعها، لأن المحكمة قرَّرت هذا، لم تستطع أن تصدِّق هذا، ظلَّت أيَّاماً تتوقَّف أمام مبنى بوشويك الذي يستضيف المصانع، وتتذكَّر العمل مع معاونيها والحفلات الاجتماعية، ومباريات تنس الطاولة لأبناء العاملين، تذكَّرت

اليوم الأوَّل الذي اصطحبها فيه زوجها روبرت، عندما أعدَّ لها فيه مكتباً، ورأت من جديد ابتسامة الميجور جيلمان الواثقة، واجتاحها الماضي كالموجة، واختلط الغضب بالحنين والمرارة في شيء واحد تحوَّل إلى بكاء، بكاء لم يتوقَّف. اقتربت منها إحدى المارَّات، وسألتها إذا كانت تحتاج إلى مساعدة، كان لا بدَّ أن تجيبها: أحتاج إليها كالحاجة إلى الهواء، إلَّا أنها لوَّحت بيدها رافضة، وابتعدت وهي تمسح دموعها بمنديل، انتهت ساعة الحِدَاد، لا بدَّ أن تنهض من جديد، مرَّةً أخرى أيضاً.

ظلَّ صديق وحيد بجانبها في تلك الأعوام، وهو الصَّحَفِيُّ آرثر بريسبان، يعرف كلٌّ منهما الآخر منذُ زمن. كان بريسبان هو مَن استدعى نيلِّي للعمل في الـ "وورلد"، عندما كان زواجها يبدو على وشك الغرق، كان ذلك منذُ عام 1895، ومنذُ تلك اللحظة لم يغبْ أيٌّ منهما عن الآخر. كان آرثر يزورها في منزلها في 37 ويست ستريت وفي كوخ شيبسهيد، كانت نيلِّي تستشيره دائماً في المسائل المهمَّة، ومنذُ عام 1897 انتقل إلى "جورنال" هيرست. كان الريس قد انتزعه من الـ "وورلد" بعد أن عرض عليه المرتَّب نفسه، ولكنه أضاف إليه نسبة من أرباح المبيعات، وافق بريسبان على المخاطرة، وفي العام التالي، ومع انفجار الحرب الهسيبانية-الأمريكية، كان قد أظهر بالفعل ما كان هيرست يقوله للجميع عنه: الرجل العظيم للحَدَث العظيم *The big man for the big occasion*. وارتفعت مبيعات الجريدة إلى السماء، وارتفعت معها أيضاً مكافأته، التي وَصَلَتْ إلى رَقْم خرافي، قيمته مئتان وخمسون ألفاً من الدولارات في العام الواحد. كان بريسبان رجلاً قادراً، وصَحَفِيّاً مرموقاً، ومديراً رائعاً، كانت سنُّه مثل سنِّ نيلِّي، ومثلها أيضاً ظلَّ فترة طويلة لا يفكِّر على الإطلاق في الزواج. ظنَّ بعض الناسِ بوجود علاقة

بينهما، ولكنه كان ينكر ذلك دائماً. يقول لأحد كُتَّاب سيرة نيلِّي الذَّاتيَّة: "لقد عرفتُ نيلِّي أعواماً كثيرة، وعملتُ معها في الصحافة، وأظنُّ أنها كانت الأفضل، بلا أيِّ تفرقة بين الرجال والنساء، والثانية فقط ربَّما بعد دوروثي ديكس(*). إذا سألتَني عن تفاصيل شخصية، فأنا لا أعرفها، لقد عرفتُها فقط محرِّرة، لون شَعْرها .. أتذكَّر أنه كان بُنِّيّاً، ثمَّ عندما رأيتُها قبل أن تموت بقليل كان قد أصبح رماديّاً". يجيد بريسبان إخفاء علاقته بنيلِّي، ولكنْ، تُكذِّبه المراسلات بينهما، بل تشهد على علاقة صداقة، تمتدُّ إلى ما هو أكثر من العلاقة المهنية. بالنسبة إلى نيلِّي كان هو المستشار العقاري الذي تستشيره، إذا كانت تبتاع أم لا منزلاً في فلاشينغ(**)، أو الصديق الذي تتشارك معه سباقاتها المجنونة بالسَّيَّارة. في إشهار إفلاسها، كان هو مَن اقترح عليها أسماء المحامين الذين يجب عليها الاستعانة بهم، وحذَّرها من الإشاعات السَّلبيَّة التي تدور حولها في قاعات المحاكمة. كان هو مَنْ كَتَبَ أو طَلَبَ أن تُكتَب مقالات تدعمها. لم تكن هذه الملحوظة العابرة بخصوص شَعْرها مصادفة، بل كانت تعني: أعلم جيِّداً ما مرَّت به، وما حَمَلَتْهُ على كتفَيْها، ولكنني لا أرغب في التَّحدُّث عنه»، كان بريسبان هو مَنْ أعاد مرَّةً أخرى اسم نيلِّي بلاي إلى جريدة يومية كبيرة عام 1912.

يكتب إليها وهو يشير إلى مهنة الصحافة: «ربَّما تكونين قد نسيتِ هذا، ولكنْ، توجد طريقة أسهل بالنسبة إليكِ لتكسبي أكثر بكثير ممَّا يمكن أن تحتاجين إليه أنتِ وأُمُّكِ». الخلاصة: هل يستحقُّ الأمر أن تستمرِّي في الصراع من أجل العودة لإنتاج حاويات معدنية بينما يمكنكِ

---

*) Dorothy Dix

**) Flushing

من خلال عملكِ، وموهبتكِ أن تحصلي على ما تعيشين منه؟ كان هذا هو سؤال بريسبان لإليزابيث، مدرِكاً الصعوبات الاقتصادية التي تعيشها، وانتهز الفرصة على الفور، وهكذا، وبعد سبعة عشر عاماً من تحقيقها الصَّحَفِيِّ الأخير، وفي سنِّ الأربعين، بدأت تكتب في صحيفة «الجورنال». كان عام 1912 هو عام الانتخابات الرِّئاسيَّة، وكان الرئيس الذي يوشك على تَرْك البيت الأبيض هو الجمهوري ويليام تافت[*]، عهد بريسبان لنيلِّي بتغطية أخبار المؤتمر الجمهوري الذي عُقد في شيكاغو في شهر يونيو. كان الجوُّ مشتعلاً، كثيرون من الحزب لا يرغبون في إعادة انتخاب تافت، الرئيس الذي يراه الجميع عاديَّ المستوى، ولا يمتُّ بأيِّ صلة لشخصية ولا لشعبية الرئيس السابق ومعلِّمه ثيودور روزفلت، الذي عندما زادت قناعته بأن تافت غير مناسب، وَصَلَ من شيكاغو بِنِيَّة أن يدفع الحراك السِّياسيَّ في الحزب، ويتقدَّم على أنه الرجل الذي يتوسَّط بين التَّقدُّميِّيْن والحَرَس القديم. قبل ذلك بعامَيْن ألقى تيدي - كما يُطلِق عليه الأصدقاء والأعداء - خطبته عن النزعة القومية الجديدة، بتقديم منصَّة سياسية، في رأيه، يمكنها أن تجمع جناحَي الحزب معاً. ومن بين النقاط الأساسية تنظيم المؤسَّسات التَّعاونيَّة، والضريبة النِّسبيَّة على الدَّخْل، وإصلاح النظام المصرفي، وسَنُّ تشريع حول العمل، وقانون ضدَّ الفساد الإداري. في الواقع كان برنامجه يؤيِّد الانقسام الحاسم بين القسمَيْن الأساسيِّيْن للحزب. تافت، الذي يميل أكثر إلى مواقف المتحفِّظين، يعلن أنه لا ينوي أن يدعم أيَّ مُرشَّح قريب من روزفلت. ويسود التَّرقُّب والتَّوتُّر بين النُّوَّاب، وعندما يدرك روزفلت أنه لا يمكن لأيِّ مرشَّح من معسكره أن يحصل على حقِّ

---

*) William Taft

التَّرشُّح، يلعب بكلِّ ما لديه من أوراق، ويُرشِّح نفسه للرئاسة، تدور الإشاعات في الكواليس بأنه إذا لم يحصل عليها سيكون في انتظاره حزبٌ جديدٌ، ليؤيِّد مسيرته إلى البيت الأبيض. وبفضل إحدى حِيَلها تتقابل معه نيلِّي في الفندق، تماماً في اللحظة التي يعرف فيها أن تافت نجح من خلال مناوراته في الحصول على العدد الأكبر من المندوبين. بالنسبة إلى تيدي لا طريق آخر سوى أن يترك الجمهوريِّيْن لمصيرهم، وأن يؤسِّس حزباً تقدُّميّاً مستقلاً، ويخوض به سباق الرئاسة.

> هاهو تيدي، تيدي العظيم الوحيد، الممجَّد المستقلُّ الفريد! بنظرة واحدة لوجهه شعرتُ بأن قلبي كاد يتمزَّق، كان شاحباً، متعَباً، يبدو قلقاً وتعيساً من الطريقة التي عبر بها الرَّدْهَة، يُحيط به رجال الشرطة، وتتبعه مجموعة من الحُرَّاس الشَّخصيِّيْن وأصدقائه في الحزب، كان يبدو كأنه مقبوض عليه، ويُؤخَذ بعيداً بسرعة، كأنه مسجون.

لم يكن أيُّ داعٍ لأن يكون المرء خبيراً في السياسة ليُدرك ما يحدث، أخذت نيلِّي القارئ إلى هناك، حيثُ يحدث كلُّ شيء، يرى القارئ روزفلت بعينَي نيلِّي، ويدرك إحباطه، وإدراكه المرير بأنه هُزِم وطُرِد من قِبَل حزبه. تنجح أخبار إليزابيث، وهكذا يقترح عليها بريسبان أن تتابع، أيضاً، مؤتمر الدِّيمقراطيِّيْن في بالتيمور. يتنافس على التَّرشُّح شامب كلارك، رئيس مجلس الشعب والقائد الحربي الجنوبي السابق، وويليم رادولف هيرست (رئيس تحرير الـ «جورنال») والتَّقدُّمي وودرو ويلسون. تتابع نيلِّي بعناية شديدة المناقشات وعمليات التصويت، وتتابع أمزجة النُّوَّاب. كانت تحشو مقالاتها بمختلف الحكايات التي تخصُّها، وهكذا

كانت تنقل تبادل المزاح مع حاكم ولاية نيويورك عن أزماتها مع الأيرون كلاد، أو تعبِّر عن قلقها حيال التكريم المخصَّص لقائدَي الصناعة مثل روكفيللر أو مورغان، تتسلَّى بأن تستفزَّ زعيم الحزب، براينت، المهزوم في سباق البيت الأبيض قبلها بستَّة عشر عاماً، وهي تمزح حول رغبته الخفية في أن يُعيدَ المحاولة. الخلاصة أنه على الرغم من مرور الأعوام، ما زالت نيلِّي تمتلك الكثير، وليس لديها ما يدعوها إلى أن تحسد زملاءها الرجال. يتوَّج المؤتمر الدِّيمقراطيُّ بتتويج ويلسون في النهاية، الفارس الرائع للنزعة التَّقدُّميَّة، الذي بفضل الانقسامات في الجبهة الجمهورية سيفوز بانتخابات الرئاسة، وسيعهد بريسبان لنيلِّي بتغطية خبر فوزه هذا في الخامس من مارس عام 1913. على الرغم من عديدٍ من المشكلات القضائية التي لم تُحَلّ، تشعر نيلِّي بالحماس الشديد لهذه المهمَّة، بالإضافة إلى ذلك طلبوا منها أن تشارك مع طلائع في المسيرة الكبرى للسافرجيت التي ستُقام في واشطن في الثالث من مارس ليُشعروا ويلسون بمسؤوليته، قبل تولِّيه الرئاسة بيومَيْن، عن قضية تصويت المرأة. اشتركت نيلِّي، مع مئتَيْن وخمسين امرأة أخرى سفيرات للسافرجيت النِّسائيِّ، بركوب الخيل، وهي ترتدي زِيَّ المرأة الأمازونية، معطفاً طويلاً من الصوف الخشن الرَّماديِّ الفاتح، بنطلوناً رمادياً بنقاط خضراء زُمُرُّدِيَّة، وقُبَّعة خضراء طرفها إلى أعلى، عكست اللآلئ الخضراء التي تكمل الزِّيَّ، لون عينَيْها، وأمامها، تتقدَّم إينيز ميلولاند(*)، الراكبة على ظَهْر فَرَس أبيض. إينيز الشَّابَّة الصغيرة والقائدة الساحرة للحركة، وهي ترتدي ثوباً أبيض أيضاً، وخلفهما شابَّات السافرجيت يشكِّلنَ لوحات حَيَّة رائعة، يمثِّلنَ العدالة والسلام، الأمل والحُرِّيَّة، وخلفهنَّ تسير في موكب ملوَّن آلاف النساء. كانت نيلِّي في غاية السعادة، وتشعر

(*) Inez Milholland

بأنها مستريحة، إلى حَدٍّ أنها توافق، على غير عادتها، على أن تُلتَقَط لها الصور، وستكتب متحمِّسة على صفحات الـ «جورنال»:

> هل تستطيعون تخيُّل شيء كهذا؟ عشرة آلاف امرأة في موكب! كثيرات يقلنَ إنهنَّ أحصينَ العدد، ولكنْ، أنا أعتقد أنهنَّ كنَّ أكثر من هذا بكثير. حاولوا أن تتخيَّلوا مسيرة لا نهائية من الفراشات، مقسَّمات في مجموعات حسب اللون، تخيَّلوا عشرة آلاف من تلك الألوان يطرنَ بسِحْر معاً، وسيكون لديكم فكرة، ولو بسيطة، عن ذلك الموكب الرائع، الذي يصنع التاريخ اليوم في واشنطن، أضيفوا إلى هذا التأكيد أن بين النساء موهوبات ومشهورات من كلِّ حقول الفن والأدب والطِّبِّ والتعليم. أتساءل: لماذا عليَّ أن أُضيِّع المساحة في تعداد كلِّ القطاعات التي تعمل فيها النساء اليوم؟ كان هناك ممثِّلات. وأضيفوا أيضاً أن النساء المشاركات في ذلك الموكب حضرنَ من كلِّ أنحاء أمريكا، وبعضهنَّ، أيضاً، أتينَ من الخارج، وسيكون لديكم، فقط، فكرة بسيطة عن منظر ونوعية مَنْ كُنَّ في الموكب [...] لم أشعر قطُّ بهذا القَدْر من الفخر بالنساء، لم أكن قطُّ مندهشة هكذا من موهبتهنَّ، ولم أعِ قطُّ، مثل اليوم، قَدْر إصرارهنَّ وإخلاصهنَّ، فأنا سعيدة؛ لأنني واحدة منهنَّ.

بعدها بيومَيْن نجد نيلِّي قد نجحت في خداع أحد الحُرَّاس، واستطاعت، دون أن يراها أحد، أن تصعد إلى المنصَّة، حيثُ سيؤدِّي ويلسون قَسَمَهُ بعد قليل. تنظر إلى الجمهور الغفير المجتمع في الميدان

المقابل وهي تفكِّر في أن تكتب مقالاً تُجرِّب فيه أن تنظر إلى العالم من زاوية رؤية خاصَّة جدّاً، تلك:

وجدتُ نفسي بمفردي على المنصَّة، حيثُ سيؤدِّي رئيس الولايات المتَّحدة الأمريكية قَسَمَهُ. أمامي كنتُ أرى الجنرال قائد القوَّات، ليونارد وود، وضبَّاطه، مصطفِّين على ظهور أحصنتهم الحربية الرائعة والعدائية نوعاً ما، وعلى يساري ضبَّاط أنابوليس في صفوف متلاحمة، يرتدون معاطفهم السوداء، وربَّما كانت زرقاء قاتمة، والبناطيل البيضاء، يقفون في سكون كتماثيل ورائعين كآلهة، وعلى اليسار أبعد بقليل ضبَّاط الويست بوينت، وهم أيضاً في أزيائهم الرائعة، في سكون وفي غاية الأناقة بأزيائهم الجميلة، وكنتُ أنا، امرأة تقف في المكان المخصَّص للرجال، أنظر إلى هذا الحشد الهائل حولي، ومكثتُ حبيسة الأنفاس، هل سنرى يوماً ما امرأةً تقف هناك على قَدَمَيْها لتؤدِّيَ القَسَمَ الجمهوري؟!

1914
نيلِّي تذهب إلى الحرب

كنتِ تفكِّرين في أن ما تخوضينه الآن هي الحرب، هجوم الدائنين وفخاخ المصارف، حصار القضاة وتعليقات المحامين، وخيانة حليفكِ الأكثر إخلاصاً، كنتِ تعتقدين أنكِ محاربة في معارك، فلقد خضتِ كثيراً منها، كنتِ دائماً بمفردكِ في مواجهة كلِّ شيء، وفي مواجهة الجميع، ولكنْ، الآن ترغبين في هدنةٍ، ولهذا السبب قرَّرتِ الذهاب إلى أوروبا، وبالتحديد إلى فيينا. السبب الرَّسميّ: العثور على مصادر أخرى لتسديد جزء من ديونكِ المالية. وفي الواقع، كان ذلك الذي تريدينه هو بعض السلام، ولكنْ، يعرف القَدَر كيف يحوك مكائدَ مدهشة. في أوروبا وجدتِ الحرب، الحرب الكبرى، ودفعتكِ غريزتكِ الصَّحَفِيَّة القوية إلى الذهاب إلى الجبهة، لا تهمُّكِ التكلفة، وليذهب الدائنون إلى الجحيم! كلُّ ما يهمُّكِ هو أن تري بعينَيْكِ وتحْكين. تبتسمين وأنتِ تفكِّرين من جديد في الكلمات التي وجَّهتِها، قبل أن تصعدي على متن الأوشانيك، لمارجريت كولينز، مساعدتكِ المخلصة: إلى اللقاء، يا مارجريت، سأعود خلال ثلاثة أسابيع، ولكنكِ عدتِ بعد خمسة أعوام، لقد رأيتِ البشاعة في كلِّ أشكالها الوضيعة الممكنة: الموت، التَّشوُّهات، الدمار والبؤس، وحكيتِ كلَّ هذا، لمَنْ على الجانب الآخر من المحيط، لم تكن لديه سوى ذكرى بعيدة للصراع الرهيب الذي حَدَثَ في أثناء الحرب الأهلية، وفي صمت مستشفى سان مارك تسمعين أنين مريض يتألَّم،

وتعودين بذهنكِ إلى أولئكِ الصِّبْيَة (النِّمساويِّيْن والألمان أو الروس، لا فرق) الذين فارقوا الحياة أو سُحقَت أجسادهم وأرواحهم بسبب غضبٍ لا يفهمونه، تحاولين أن ترتاحي، ولكنْ، لا تستطيعين نسيان ما رأيتِهِ، تشعرين بالتَّوتُّر الشديد، ويشعر الأطبَّاء بالقلق على حالة رِئَتَيْكِ السَّيِّئة بالفعل، لا بدَّ أن تستريحي، الآن أنتِ في ساحة متَّسعة الأرجاء، مهجورة، تخترقها ممرَّات طويلة جدّاً محفورة في الأرض، تبدو كمقابر في الهواء الطلق، تنظرين حولكِ، ولكنكِ لا ترين شيئاً آخر، تسيرين لتعثري على المدقِّ الذي قادكِ حتَّى هناك، ترغبين في العودة إلى حيثُ جئتِ، ولكنْ، كأن ذلك المكان معلَّق في موقع، لا زمان له ولا مكان. على الأرض معطف ممزَّق، وأحذية متفرِّقة، وعلبة سجائر مشوَّهة، آثار ممزَّقة لحيوات توقَّفتْ بسبب القدرة القتالية لقنَّاص خبير. تجرين وتتعثَّرين بشيء ما، تفقدين التوازن وتسقطين، تشعرين بالخوف، تسمعين من بعيد دويَّ القنابل، تحاولين النهوض، بالقرب منكِ حقيبة ظَهْر من النسيج، ملقاة، وبالقرب جثَّة رجل، ربَّما صاحب الحقيبة، تُرعبكِ فكرة النظر إلى وجهه، ولكنكِ ترغبين في معرفة مَنْ يكون، بيَدَيْكِ المتَّسخَتَيْن بالوحل تفتحين الحقيبة، وتفتِّشين بين أشيائه، لا تُدركين أن هذا الجسد قد استعاد الحياة، وها هو يقف خلفكِ، يضع يده على ذراعكِ، تلتفتين وتُصابين بالفزع، لا ترغبين أن تصدِّقي ما ترينه، وجهٌ استهلكه الألم، وعينان غائرتان، يتحدَّث بصعوبة، إلَّا أنه يرغب في أن يقول لكِ شيئاً، تقتربين منه، تُذيب الدموعُ الوحلَ المحفور على وجنَتَيْه، وتشكِّل مجاريَ غير متساوية، الآن لا تشعرين بأيِّ خوف، فقد عرفتِهِ، بأصابعكِ الرقيقة تمسحين دمعه، دون أن تتفوَّهي بكلمة، إنه جيلمان الذي يطلب منكِ مرَّةً أخرى أن تغفري له.

في الأوَّل من أغسطس 1914، ترحل إليزابيث على متن عابرة المحيطات "أوشانيك"، خطَّطت لرحلة إلى أوروبا، بالتحديد إلى فيينا، حيثُ تنوي مقابلة أوسكار بوندي(*)، أحد الصُّنَّاع المَهرَة النِّمساويِّينْ، لتناقش معه استثماره المحتَمَل في شركة حاويات الصلب الأمريكية. بوندي رجل أعمال رفيع المستوى، يمتلك أحد أهمِّ مصانع السُّكَّر في البلدة، ولكن نوربرت ريا(**)، ابن أخيه المخلص، يدير المشروع. يفضِّل بوندي أن يركِّز على الفنِّ، فهو يمتلك مجموعة فنِّيَّة من نحو مئتَي ألف قطعة فنِّيَّة، ومنها تبرز بعض أهمِّ أعمال بريوغل الفيكيو(***)،كما يركِّز على الموسيقى الكلاسيكية والحفلات، يتردَّد على طبقة المثقَّفين في فيينا، ولديه علاقات رائعة مع الطبقة الأرستقراطية الهابسبرغية، تربطه عاطفة عميقة بنيلِّي، وليساعدَها سيقتني جزءاً كبيراً من أسهم شركة حاويات الصلب بِنِيَّةِ أن يحميَ الشركة من غزو دائني أيرون كلاد، تثق به نيلِّي، بينما هو شديد الإعجاب بتلك الصَّحَفِيَّة الأمريكية الجسورة، الخارجة عن كلِّ الأعراف، التي تعشق النمسا والمجر. بالنسبة إلى إليزابيث، كان استعداد بوندي فرصة رائعة، لتجمع الأموال لشركتها، ولكنها، أيضاً، كانت طريقة يمكنها بها التقاط أنفاسها، وأن تُهديَ نفسها هُدنة، وتهرب من حصار المحامين والقضاة والبنوك، ولم يكن يهمُّها كثيراً أن رياح الحرب تعصف بقوَّة بأوروبا، كانت إليزابيث ترغب في الهروب من حروبها الشَّخصيَّة. قبل إبحارها بأربعة أيَّام، في 28 يوليو، أعلنت النمسا الحرب على صربيا، التي كانت في الواقع مسؤولة عن

Oscar Bondy (*

Norbert Rie (**

Bruegel il Vecchio (***

مقتل الأمير فرانشسكو فرديناندو(*) وزوجته صوفيا في سارايف. وفي غضون بضعة أيَّام، تُحوِّل الآليات المميتة للتحالفات المتقاطعة أوروبا إلى ساحة معركة متَّسعة الأرجاء، تأمر روسيا، دفاعاً عن حليفتها صربيا، التعبئة العامَّة، وتنزل ألمانيا إلى الساحة بجوار النمسا، وتعلن الحرب على القيصر، وتقرِّر فرنسا، حليفة روسيا، وبالتحديد في اليوم الذي تُبحر فيه الأوشيانيك من نيويورك، تعبئة قوَّاتها. تعلن ألمانيا، بعدها بيومَيْن الحرب على فرنسا، وتقريباً، على الفور، تعلن المملكة المتَّحدة الحرب على ألمانيا. وعندما تصل إليزابيث إلى السفارة الأمريكية في باريس في الحادي عشر من أغسطس عام 1914، تكون أوروبا بالفعل في الحرب، حربٍ ستؤدِّي إلى تعبئة خمسة وستِّين مليون جندي، وستؤدِّي إلى سقوط ثلاث إمبراطوريات، متسبِّبة في سقوط عشرين مليون قتيل بين جنود ومَدَنيِّيْن، وواحدٍ وعشرين مليوناً من الجرحى، ولكنْ، لا يمكن بعدُ أن يتخيَّل هذا أحدٌ، ولا حتَّى إليزابيث، التي لا حقائب لها، حيثُ فَقَدَتْها بين تنقُّل وآخر، تطلب من أحد موظَّفي السفارة جوازَ سَفَرٍ مؤقَّتاً، لتذهب إلى سويسرا. بمجرَّد حصولها على الجواز تصل إلى سويسرا، ومن هناك تصل إلى فيينا في الثاني والعشرين من أغسطس، وفي العاصمة، التي تتوسَّط أوروبا، تُدرك أنها قُذِفَت في وسط التاريخ، ومثل أيِّ صَحَفِيٍّ يحترم نفسه، ترغب في أن تقصَّ كلَّ التفاصيل لقُرَّائها. لم يعد الموقف الذي تركتْهُ في نيويورك له أيُّ أهمِّيَّة الآن، بل العثور على أسرع الطُّرُق لتحصل على إذنٍ بالوصول إلى الجبهة الشَّرقيَّة، أي إنها بعد أعوام من الابتعاد، تستيقظ فيها غريزة الصَّحَفِيِّ، أخيراً تعود نيلِّي بلاي، بقوَّة وجسارة أكثر بكثير ممَّا سَبَقَ. أسَّست مقرَّها العامَّ

(* Francesco Ferdinando

في رَدْهَة فندق إمبريال، أحد الفنادق الفخمة ذات الأرضية المزيَّنة بموزاييك رفيع المستوى، والأعمدة على نمط العمارة الكورنثي، ودرجات من الرخام، هناك كانت تمرُّ الشَّخصيَّات المهمَّة في فيينا، وفي تلك الرَّدْهَة، وبين لقاء وآخر، تتعرَّف نيلِّي على موظَّف، جورج دي بوتير(*)، الذي بدوره يقدِّمها لوزير الخارجية الكونت ليوبولد برختولد(**)، الذي تترك لديه نيلِّي انطباعاً عظيماً، ولا يمكنها أن تفعل شيئاً مختلفاً، لأن برختولد يعرف جيِّداً أهمِّيَّة أن تكون البروباجندا النِّمساويَّة-الألمانية على علاقة جيِّدة مع صَحَفِيَّة أمريكية معروفة في العالم بأجمعه مثل نيلِّي بلاي. صحفية تُضمِر، بلا شكَّ، منذُ فترة، عداوة قوية جدّاً من جهة الإنجليز، يعرف السفير الأمريكي في فيينا، فريدريك سي. بينفيلد(***)، نيلِّي منذُ عدَّة أعوام، ولهذا لم يتردَّد في كتابة خطاب، ليقدِّمها إلى رئيس القسم الخاصِّ بالعلاقات مع الصحافة في وزارة الخارجية ريتر أوسكار فون مونتلونغ(****). بينفيلد، الذي يدرك الضغوط التي تقع على الصحافة بصفة عامَّة في زمن الحرب، وتخمينه أهداف النِّمساويِّيْن يستدعي نيلِّي إلى مكتبه، وقبل أن يسلِّمها الخطاب يطلب منها أن تَعِدَهُ: نيلِّي، احلفي لي إنكِ ستظلِّين كعادتكِ، محاربةً من أجل الحقِّ والعدالة. وأخيراً تذكَّري دائماً بأنكِ أمريكية. لم تنسَ إليزابيث ذلك، ولن تنساه على الإطلاق، إلَّا أن خطاب بينفيلد لن يفيد في شيء: في الثاني والعشرين من أكتوبر كانت نيلِّي واحدة من المراسلين الأربعة

---

*) George de Pottere

**) Leopold Berchtold

***) Frederic C. Penfield

****) Ritter Oskar von Montlong

المنوط إليهم تغطية مناطق الحروب من الجبهة الشَّرقيَّة، معها صحفيان إيطاليان، هما ألدو بوريللي(*)، وشيزاري سانتوري(**)، والزميل ويليام ج. شيبرد(***) من وكالة الأنباء الأمريكية يونايتد بريس.

تكتب في التلغراف الذي ترسله على الفور إلى الزملاء في ال "جورنال": "على وشك أن أرحل إلى الجبهة الشَّرقيَّة". كان وجود نيلِّي في منطقة الحرب تلك في صالح جريدة هيرسيت لسببَيْن، من جهة، لأنها تغطِّي المنطقة التي ليس بها كثيرٌ من الصحافة الأمريكية والعالمية، والمتأثِّرة بشدَّة بالدعاية الإنجليزية، ومن جهة أخرى، لأنها تُرضي احتياج رئيس التحرير هيرست بأن تمنح الصوت لوجهة النظر النِّمساويَّة-الألمانية من الصراع.

لم يستطع بريسبان أن يتوقَّف عن التفكير أن في هذه المرَّة صديقته نيلِّي هي "المرأة العظيمة للحَدَث العظيم". The big woman for the big occasion

> الأمس، الخميس 29 أكتوبر، رحلتُ إلى الجبهة، استدعوني في الخامسة صباحاً، الاستيقاظ في الظلام ليس من أفضل الأشياء، كان مصباحي الكهربائي فارغاً، وضوء الصباح لم يكن قد أشرق بعدُ.

هكذا تبدأ أخبار الرحلة نحو برزيميسل(****)، وهي حصن في غاليسيا

(*) Aldo Borelli

(**) Cesare Santoro

(***) William G. Shepherd

(****) Przemyśl

مكتبة
t.me/soramnqraa

(بولندا حالياً) على الحدود الشَّرقيَّة من الإمبراطورية، منطقة الصراعات هذه هي جزء من الأرض المتنازَع عليها بين الروس والنِّمساويِّيْن. حَصَلَ الروس عليها، ثمَّ استعادها النِّمساويُّون، والآن لا يمكن لأيٍّ منهما أن يحدِّد خطوط العداء، وسيظلَّان في هذا الموقف المتجمِّد لجزء كبير من الصراع، إنه ذلك الذي ستُطلق عليه كُتُبُ التاريخ حرب الاستنزاف. سرعان ما تصبح الخسائر الإنسانية كبيرة جدّاً، وتدرك نيلِّي ذلك على الفور في أثناء رحلتها طَوَالَ الطُّرُق الضَّيِّقة والموحِلة في الطريق إلى برزيمسيل.

> تقدَّمْنا ببطء، عربةً تلو الأخرى، كنَّا ستَّ عربات، تزحف داخل وخارج طريق العربات البطيئة التي تتحرَّك على طول رحلتنا والصفوف اللَّا نهائيَّة من العربات التي تسير في الاتِّجاه المعاكس، والتي تحمل الجنود الجرحى، وإن كنَّا نلمح، من حين إلى آخر، واحدة مليئة بالبنادق والحقائب، تحكي القصَّة الصامتة للمقابر الرَّطبة، والمتشبِّعة بالمياه، والمحفورة بعجالة.

جوُّ الموت والألم يكتسح كلَّ مكان بالتدريج، كلَّما اقتربوا من الجبهة، ويعيد الحرب إلى حقيقتها البشعة. تكتب نيلِّي: "في مثل هذه الأوقات لا نفقد الرحمة، ولكنْ، ندرك عجزنا، ربمَّا يكون هذا هو الوجه الأكثر بشاعةً للحرب"، يتصارع الجنود مع العدوِّ، والوحلُ مع الجوع والكوليرا.

> تدير ظَهْركَ لمشهد بشع، لتجد نظركَ قد توجَّه لرؤية منظر أكثر بشاعة، بين خندق وحظيرة توجد مساحة مربَّعة مفتوحة

بعرض مترَيْن، أُغلِقَت من جهة بألواح خشبية، وأصبح الخندق والحظيرة يشكِّلانِ الجانبَيْن الآخرَيْن، الجانب الرابع مفتوح، الأرضية مغطَّاة بالقشِّ، على القشِّ تكوَّم مجموعة من الآدميِّيْن بلا أرواح، حقائب ظَهْر، قنِّينات، ضمادات ملطَّخة بالدماء، حذاء، بندقية، وأشياء لا يمكن وصفها، مخلوق ساكن يرتدي بيريه على رأسه، كانت لحيته قصيرة كستنائية، محجرا العينَيْن أسودان غائران حول العينَيْن المقعَّرَتَيْن، وكان حول الأنف ثقوب قاتمة اللون، والأذنان سوداوان، كان حَيّاً، أظنُّ أنه يحتضر، بجانبه هيكلٌ إنسانيٌّ، مغطًى بأكمله بمعطف، من حين إلى آخر يهتزُّ هذا الهيكل مرتعشاً، ولا شيء آخر. وبالقرب منهما أيضاً كان رجل آخر بوجه موجَّه إلى الأرض، لا يتحرَّك، ربَّما هذا ميت، بجانبه يجلس جندي، ذقنه مستندة إلى صدره، هزَّه أحدهم، وصاح بشيءٍ ما، سمعه، حاول أن يرفع رأسه، ولكنه لم يستطع، وسقطت ذقنه على صدره، "كوليرا"، كانت الكلمة المكتوبة على اللَّافتات، يا أصدقائي الأعزاء، كانوا آدميِّيْن يرقدون هناك، في ظروف لا يمكن أن تسمح بها سلطاتنا الصِّحِّيَّة حتَّى للخنازير والحيوانات الأكثر بؤساً. هُرعتُ إلى الطريق الموحِل، كنتُ أفضِّل أن أنظر إلى المدافع، وأن أستمع إلى الطلقات التي تقطع الهواء، وتتسبَّب في موت أكثر تعفُّناً.

على نيلِّي أن تُسوِّي حساباتها مع البشاعة، وكانت هذه معمودية النار الحقيقية. يترك الحماس المبدئي، والناتج عن كونها أوَّل صَحَفِيَّة

امرأة تصل إلى الجبهة، يترك مكانه إلى الإدراك المرير كيف أن الحرب ليست سوى خدعة كبرى، فهي لا تمجِّد الفرد، بل تُهينه، وهي لا تحتفي بالقوَّة، ولكنها تفخر بالهشاشة، ليس العدوُّ سوى كيان مجرَّد، فيه تختلط الكيانات الفردية، قَتْل العدوِّ أسهل بكثير من قَتْل رجل، في هذا فكَّرتْ نيلِّي عندما رأت المعدَّات الحربية المسلَّحة بالمدافع:

> كلُّ مدفع بدوره يضرب طلقة بعد أخرى، ولكنْ، إذا راقبناها بتركيز كبير، استطعنا أن نرى فقط جزءاً بُنِّيّاً، شبيهاً بالورقة، يسقط من جديد على الأرض. مَنْ يَقتلون لا يعرفون ماذا يَقتلون، يصلهم الأمر بإطلاق النار في اتِّجاه معيَّن، وعلى بُعد محدَّد، سمعتُهم يقولون: "ثلاثمئة وأربعون متراً، مرَّةً أخرى: مئتان وخمسون". وهكذا يَقتل الرجال بلا أيِّ انفعال، لا يشهدون النتائج، ومن ثمَّ يصبح القَتْل أقلَّ صعوبة.

تختار الحرب ضحاياها عشوائيّاً، تكفي بضعة أمتار، شظيَّة من القنبلة، ويتحدَّد مصير رجل ما إلى الأبد، تتفجَّر الحرب فجأة في حياة شخص ما، وتُغيِّر طريقه بلا رجوع:

> في الصَّفِّ المتَّجه إلى الغرب، رأيتُ امرأة، كانت ترتدي حذاء طويل الرقبة، تنُّورة قصيرة واسعة، لونها أحمر قاتم، وعلى رأسها منديل أبيض، أطرافه مزيَّنة بالأزهار، كانت ذراعها اليسرى مربوطة إلى صدرها بشال ممزَّق، يبدو أنها ستلد خلال أسبوعَيْن،أوقفتْنا، سألتْنا إن كنَّا نستطيع أن ندلَّها أين يمكنها العثور على طبيب؟ هل هي مريضة؟ لا، كَسرتْ شظية من قذيفة ذراعها منذُ يومَيْن، وتبحث عن طبيب ليُعالجها،

نصحْناها بأن تدخل أوَّل مستشفى للصليب الأحمر تراه، وبعد أن شكرتْنا، توجَّهت بصعوبة غرباً.

تلاحظ نيلِّي بتأثُّرٍ الجنودَ الشُّبَّان الذين يصلون إلى الجبهة.

القوافل التي نقابلها محمَّلةٌ بالجنود المَرِحين الواثقين بأنفسهم في أزيائهم الموحَّدة الجديدة، على العربات المزيَّنة بالأعلام النِّمساويَّة والمجرية وأغصان الصَّنَوْبَر، كانت تخنقني. صِبْيَةٌ شديدو الوسامة، أصحَّاء، نظراتهم ثاقبة، جميعهم على أعتاب سنِّ الرشد، يرتدون البيريه العسكري المزيَّن بالزهور والأُغنيَّات على شفاههم، واثقون بقضيتهم العادلة، يملؤهم حبُّ الإنسانية، ولكنهم، مثل المسيحيِّيْن الأوائل، مقتنعون أنهم على حقٍّ، فيذهبون بسعادة نحو جحيم المعركة.

يتلألأ ضوء الشباب في أعينهم، ضوءٌ يشبه حماس نيلِّي بمعمودية النار التي نالتْها، هم أيضاً، مثلها، في البداية، لا يعرفون ما ينتظرهم، سمعوا مَنْ يقول إن الحرب أنبلُ من الفنون، وإن الدفاع عن الوطن من الأعداء هو أسمى القِيَم، عندما يصبحون بمفردهم في خندقهم، مجروحين أو جائعين، يستجدون بلا فائدة مساعدةَ رفاقهم، وعلى بُعد أمتار قليلة يكونون هدفاً للقنَّاصين ولضربات المدفع، ولن يستطيعوا فعل شيء سوى الاستماع لتلك الصرخة تتحوَّل أنيناً يضعف مع الوقت، وعندئذٍ، فقط عندئذٍ، يدركون الكذبة، وسيكون الوقت متأخراً جدّاً، في تلك اللحظة لا يتبقَّى سوى سكون الموت، تتجسَّد حقيقة الحرب

كلُّها هناك، في وحدة تلك الخنادق التي تحسبها نيلّي، لوَهْلَة في البداية، مقابر:

في الأسفل، في الوادي عند نهاية المنحنى كانت صفوف من الصلبان الرَّماديَّة، مصنوعة بأغصان الأشجار، كانت تشير إلى المقابر المَرئيَّة بوضوح، وفي بعض تلك المقابر المفتوحة قشٌّ، وفي بعضها الآخر خراطيشُ فارغة، في أخرى أيضاً ذخائرُ لم تُخرَج من صناديق من الورق المقوَّى. كانت هناك ضمادات تُغرِقُها الدماء، حذاء، قطعة من رداء، آنية طهي متروكة، وأخرى ثقبتْها طلقة رصاص، وإبزيم. وأخيراً فهمتُ أين أنا، كنتُ في ساحة المعركة، لم تكن قبوراً محفوراً نصفها أو غير عميقة، كانت الخنادق التي مكث فيها الجنود لمدَّة ثلاثة أسابيع يحاربون باستمرار، كلُّ واحدة من تلك المئات من الخنادق، الشبيهة بالقبور، هي الخيمة والمنزل والملجأ للجندي، هنا يأكلون عندما يمكن توصيل الطعام، وهنا يعانون الجوع عندما لا تصل الإعاشة، هنا يَقتلون ويُقتلون. [...] في الأمطار والبرد والرياح، جوعى وغرقى ومجهَدين، تحت القصف المستمرِّ لأسابيع، هل تصبح مفاجأة إذاً أن يُصابوا بالكوليرا والدوسنتاريا وبكلِّ الأمراض الأخرى، بما فيها الجنون؟!

إلَّا أنه، حتَّى في تلك الظروف القصوى، تستطيع نيلِّي أن تلتقط لقطة غروب بفن:

كان الهواء بارداً، لوَّنت أشعَّةُ الشمس الأخيرة السُّحُبَ

السوداء بأُطُر ذهبية، تقابَلَ ضابطان، يمتطي كلٌّ منهما حصانه على قمَّة إحدى الهضاب، وتراءى خيالهما أمام السماء كأنهما تمثالان، مئات من الأحصنة ورؤوس الحيوانات في الوادي تجمَّعت في مجموعات كبيرة لترعى، كانت العربات متباعدة، ولا إطلاق نيران، يأكل الرجال في مجموعات أو يقف بعضهم حول حلقات صغيرة من النيران، تجاه الجنوب الغربي منطاد هواء ساخن، على شكل سيجار، يقف ساكناً في السماء، كانت صورة غروب مسالم.

للحظات بدت الحرب أمراً بعيداً، منحت ألوانُ الغروب والأصوات الهامسة بين الرجال حول النيران فكرةَ هُدنة ما، وقفة للزمن، كأن الحياة "الطَّبيعيَّة" قد عادت لتستحوذ على مساحاتها، ولكنْ، لم يبقَ ذلك السِّحْر سوى طرفة عين.

ثمَّ فجأة سمعْنا وراء ظهورنا أكثر انفجارات اليوم بشاعةً، رأينا سُحُب الدخان الأسود وهي تصعد إلى الهواء، من الواضح أنها كانت في النقطة التي تركناها للتَّوِّ، تلك الخنادق التي لجأ إليها الروس منذُ ثلاثة أسابيع تحت نيران النِّمساويِّيْن.

كان يسافر مع نيلِّي ألكسندر إكساكس(*)، البالغ من العُمُر ثمانية عشر عاماً، أصغر مصوِّر حرب عيَّنه المكتب الصَّحَفِيُّ للقيادة

*) Alexander Exax

النِّمساويَّة، والرَّسَّام المسنُّ لازلو ميدنياسكي(*) والفنَّان الغريب كارل ليوبولد هوليتزر(**)، المشهور برسوماته التي لا يمكن تقليدها.

سألها أليكس: نيلِّي، هل يمكن إعادة تجسيد الرعب؟

- لا أعلم، ولكنني أعلم فقط أننا هنا لنحكيه، لنشارك مع القُرَّاء ما نراه، ولكنْ، دون أن نفقد تعاطفنا.

قال أليكس متأمِّلاً: الواقع أننا بعد فترة نعتاد كلَّ شيء، نعتاد الجرحى والوحل، ونعتاد القنابل.

- أنتَ على حقٍّ، هنا الموت في كلِّ مكان، أصبحت رؤية الرجال يحتضرون أو موتى بالفعل معتادة كرؤية عصافير الدوري في نيويورك، نشعر بالدهشة، ولكننا لا نصل إلى اللاَّ مبالاة.

قد يكون هذا هو تماماً مفتاح الكتابة الصَّحَفِيَّة بالنسبة إلى نيلِّي بلاي، مثلما الحال في زمن مصحَّة بلاكويل. بالنسبة إليها، هي تخدم الصحافة فقط إذا حطَّمت جدران اللاَّ مبالاة، إذا عرفْنا ما لا نرغب في النظر إليه. تسير نيلِّي، تُلاحِظ وتدوِّن، يحدث أنها عندما تتوقَّف عند تفصيلة مفيدة في مقال ما، تضل عن رفقتها، عندما تجدها، بعد جهد، تصل إلى الآخرين متقطِّعة الأنفاس، لأن حذاءها يُغرَس في الوحل أو لأن العباءة التي أعارها إيَّاها هير هوليتزر لتحتميَ من البرد، ثقيلة جدّاً، وتُبطِّئ خطاها، إلَّا أنها في إحدى المرَّات مكثت فترة طويلة متأخِّرة، وحيدة تماماً، حَدَثَ هذا في Sàtoraljaúhely بلدة في

(* László Mednyánszky

(** Carl Leopold Hollitzer

الطريق إلى بودابست، كانت منهمِكَة في أفكارها وهي تسير في رَدْهَة إحدى الكنائس، وفجأة اقترب منها بعض الجنود، وطلبوا منها وثائقها الرَّسميَّة، لم تكن معها، وفي مراسلاتها تكتب:

> كانت الوثائق في الحقيبة الموجودة في المحطَّة. عدم وجود جيوب هو أسوأ أنواع الحرمان التي يمكن أن تتعرَّض لها امرأة. كانوا يتحدَّثون المجرية، وكنتُ أنا أتحدَّث الأمريكية، لم نستطع أن نطوِّر الحوار كثيراً، لم أكن أشعر بالخوف، على الإطلاق، من المجموعة الصغيرة المتجمِّعة حولي، كانت موائد البيع في السوق مهجورة، توقَّفت حركة الشراء والبيع، كنتُ أنا موضع الاهتمام الوحيد، عندما كنتُ أتقابل مع عينَي امرأة كنت أبتسم، وفي المقابل كنتُ أتلقَّى ابتسامة مُرحِّبة، كان الرجال يبتسمون أقلّ بالسليقة، وبطريقة مرتبكة ومحرجة، كانوا يشعرون بنوع من التَّردُّد بيني وبين إخلاصهم للبلد.

ردَّدت كأنها تردِّد تعويذة ما: "أنا صَحَفِيَّة أمريكية ومعتَمَدة من القيادة العامَّة"، ولكنهم لا يميِّزون الإنجليزية الأمريكية والإنجليزية لغة الأعداء، وعندئذٍ يصبح الاستنتاج واضحاً: نيلِّي يمكن أن تكون جاسوسة، احتجزوها في كوخ في انتظار أن يقرِّر الرؤساء ما يفعلونه بها، مرَّ الوقت، واقتربت ساعة رحيل قطارها، دخلت إلى حجرة أخرى، حيثُ مجموعة من الضُّبَّاط والمَدَنِيِّيْن الذين نظروا إليها بريبة، بدأت نيلِّي تشعر أكثر بالتَّوتُّر، وتخشى بالفعل أن تفقد قطارها، ليس هذا فقط، بل إنه عندما ستسجِّل القيادة اختفاءها ستُلغي أيضاً مهمَّة الآخرين، تشعر بالذنب،

لأنها ابتعدت عن المجموعة بلا وثائق، تريد امرأة مجرية مساعدتها، فلقد عاشت أعواماً طويلة في كليفلاند في الولايات المتَّحدة، وتعرفت على الفور على لُكنَتِها الأمريكية، ولكنْ، لم يكن لدى الجنودِ الاستعداد للاستماع إليها، وطردوها بعيداً، لكنها لم تبتعد، مكثت هناك في الخارج. تقتنع نيلِّي الآن بأنها لن تلحق بالقطار. ماذا سيحدث يا ترى؟ هل سيقبضون عليها؟ أو سيعيدونها ببساطة إلى فيينا، ويُضيِّعون عليها كلَّ مشاريعها؟ وبينما تدور تلك الأفكار في ذهنها، ويثرثر الضبَّاط فيما بينهم، يدخل شخص شكله مميَّز إلى الغرفة، ويقترب منها ويقدِّم نفسه:

- أنا الدكتور فريدمان، يقولون إن حضرتك إنجليزية.

- أنا نيلِّي بلاي من نيويورك.

- يا إلهي! نيلِّي بلاي! نيلِّي بلاي!

أدرك الدكتور فريدمان على الفور أنه أمام شخصية مشهورة وأطلع الضُّبَّاط على الوضع على الفور، ثمَّ توجَّه إلى نيلِّي: "لقد شرحتُ لهم أن الطفل ذا السنوات السبع في أمريكا يعرف مَن هي نيلِّي بلاي". اعتذر إليها الرجال، وعاد أحدهم إلى الخارج، وعاد ومعه سيِّدة كليفلاند التي احتضنت إليزابيث كأنها أخت لها، وليعتذروا إليها، دعاها الضُّبَّاط لتناول الإفطار معهم برفقة الدكتور فريدمان، وافقت نيلِّي، ولكنها، في نهاية الوجبة، حيَّت الجميع بسرعة، لتُهرعَ نحو المحطَّة.

سألها أليكس: أين كنتِ؟

- لقد ظنُّوا أنني جاسوسة إنجليزية، اركب القطار، وسأشرح لكَ كلَّ شيء.

بمجرَّد أن وَصَلَتْ إلى بودابست، زارت نيلِّي مستشفيات المدينة، كانت معاناة العساكر العائدين من الجبهة موضوعاً يهمُّها كثيراً، لم يكن لديها رؤية إجمالية عن الحرب، لم تكن تأمُّلاتها تمسُّ على الإطلاق مسائل السياسة الدُّوليَّة، كانت وجهة نظرها شخصية جدّاً، عن الخير والشَّرِّ، كانت ترى الصراع من خلال عدسة الدعاية النِّمساويَّة، وهذا كان، بلا شكَّ، يمثِّل قصوراً كبيراً، إذ كانت مقالاتها تعبِّر عن أيِّ اعتبارات خاصَّة بالسياسة الخارجية لذلك البلد، وعن أسباب الصراع أو السيناريوهات المستقبلية المحتَمَلَة، ولكن نيلِّي روحٌ حُرَّة، سواء من الناحية الشَّخصيَّة أو من ناحية التكوين، لذلك تتوقَّف أمام القصص الصغيرة اليومية، وعلاقتها مع الواقع المحيط بها. يمكنها أن تكتب صفحة كاملة حول الحالة السَّيِّئة للنظافة والصِّحَّة في المستشفيات (وستشكو السلطاتُ النِّمساويَّةُ كثيراً من هذا) دون أن تسجِّل، على سبيل المثال، حدوث انقلاب في المواقف على الصعيد الدُّوليِّ، ولكنْ، كانت تهمُّها تلك القصص التي تَعرف كيف تصل إلى قلب القارئ، أحياناً كانت تبدو قصصاً تافهة، وأحياناً كانت تعرف أن تكون مضيئة بوصف تفصيلة واحدة، الشيء الذي لا يغيب أبداً عن نظرها هو أن الحرب يخوضها أشخاص، لهم وجود فردي، يحبُّون ويتألَّمون ويموتون، وتبتلعهم أحداث، لا يمكنهم التَّحكُّم فيها، فهي شاهدة على ذلك العجز الإنساني في مواجهة الحرب، وشهادتها تُترجم إلى مقالات صَحَفِيَّة، تكاد تكون شِعْرِيَّة، مثل ذلك المقال الذي وصفت فيه زيارتها لجندي روسي متألِّم، بيان مسالم فعلي وحقيقي.

اتبعني، أيُّها القارئ، وانظر إليه معي! النظر إليه قبض قلبي،

أخذني الدكتور من يدي، وأبعد نظري عن الوجه الذي لم أجرؤ على النظر إليه.

قال الدكتور: "انظري إلى الجسد"، نظرتُ وارتعدتُ، الشحوب المميت والنحافة المتناهية، عظام، مجرَّد عظام، لا أثر للشَّحْم، التفت الرأس، عينان كبيرتان محفورتان تفحصانني، مصدومة، ظللتُ منكسرة ومتألِّمة، هاتان العينان الكبيرتان المحفورتان كانتا تبحثان عن عينَيّ، تحاولان استجوابي، تتحدَّثان لغة النَّفْس، من الشَّفَتَيْن المفتوحَتَيْن صَدَرَ أنينٌ متألِّم، ليس جسدياً فقط. تحدَّثَ، ولكنني لم أستطع أن أفهم، كانت كلماته أصواتاً لن تنساها أذناي أبداً، النداء، المعاناة، والإدراك!

سألتُ: "ماذا يقول؟" لأنني لم أستطع أن أتحمَّل الموقف، "هل يفهم أحد؟ ألا يمكن العثور على أحد ليتحدَّث معه؟"، ربَّتت إحدى الممرِّضات على جبهته، وأمسك ممرِّض بيَدَيْه شَديدَتيَ الشحوب.

"هو يفهم"، قالت الممرِّضة وهي توجِّه الحديث إلى زميلها: "ماذا قال؟"

أجابها هو بصوت منخفض: "يسأل عن أطفاله".

التفتت العينان السوداوان المحفورتان مرَّةً أخرى نحوي، لم أستطع أن أحتمل تلك النظرة المتوسِّلة، ولم أستطع أن أجيب عن أسئلته.

"دعني أذهب"، قلتُ للطبيب، بدا الأنين الخافت كأنه

يدعوني من جديد، توجَّهتُ نحو الباب، ثمَّ نزلت إلى الرَّدْهَة.

سألتُ الطبيب: كيف يمكن للإمبراطورات والقياصرة أن يشهدوا هذه المذبحة، ويخلدوا إلى النوم؟

أجاب بهدوء: لا يرون شيئاً، فقط مَنْ يرى مثل هذه البشاعات هو مَنْ يمكنه أن يفهم.

الشيء المثير للدهشة هو السهولة التي استطاعت نيلِّي بها أن تعبر من بؤس الفراش المصنوع من القشِّ إلى حياة العاصمة العابثة، كانت تتردَّد على فندق أستوريا في بودابست، والذي يملكه ميهالي جيلر(*) أحد معارفها القدامى.

إن كلَّ مَنْ يعرف مطعم هان وفندق سان ريجيس سيتذكَّره، إنه حفيد السَّيِّد هان، اخترع بيضة "على طريقة نيلِّي بلاي"، ما زالت تظهر في قائمة الطعام، يملك فندقاً يضاهي في وسائل الراحة والتصميم أيَّ فندق نيويوركي. الحياة هنا كالحياة في نيويورك، النادلون جميعًا والموظَّفون يتحدَّثون اللغة الإنجليزية، يقدِّم البار كوكتيلات أمريكية حقيقية، وهي ميزة غير معروفة في أوروبا.

لم تشعر نيلِّي بالحرج في التصريح بأن إقامتها قدَّمها لها الصديق جيلر، ولا أن تفخر عَلَناً بالراحة في فندق أستوريا في مقالاتها، وهو الأمر الذي لا يمكن التفكير فيه في يومنا هذا، بعد «حمَّام ساخن في أحد أكثر الحمَّامات بهاءً، وعشاء رائع، في أُمسيَّة سنحضر فيها أوَّلاً السينما،

(*) Mihaly Geller

ثمَّ سنمرُّ على مسرح فولك، لنرى فتيات عرض «ملكة كينو»، ثمَّ عشاء آخر، وعرض آخر حتَّى الرابعة صباحاً. تبدو الحرب الليلة بعيدة، أبعدها تماماً ذلك اللهوُ اللَّيليُّ»، من الأفضل عدم العودة إلى الفندق، لأنه في الليل بمفردها، في الظلام، وبينما هي مستريحة على الفراش المريح والواسع في غرفة في فندق أستوريا، لا تستطيع أن تمنع نفسها من الرؤية الاستحواذية للأشباح أمامها، وجوه رجال في زِيِّ الحرب مجروحين ومُهانين، ونساء مزَّقهنَّ التعب، دون أيِّ رفيق بجوارهنَّ، تحدِّق عيونهنَّ في نقطة بعيدة، بينما يسرنَ بيأس بين أكوام الحطام والوحل والثلج، بلا مستقبل، تسحقهنَّ مشاعرهنَّ بأن الزمن السعيد، زمنهنَّ السعيد، قد مضى بلا عودة. ثمَّ الأموات، الأموات في كلِّ مكان، على العربات وفي الخنادق، وعلى حوافِّ الطُّرُقات، تتحرَّك كلُّ تلك الصور في حجرتها كالأشباح بينما هي وحيدة في الظلام. لا، هذه المرَّة لا تستطيع نيلِّي أن تصمد، من الأفضل أن تستمرَّ في التَّسكُّع مع الآخرين جميعاً، حتَّى تعود مُنهَكَة إلى الفندق قبل الفجر بقليل، وهكذا تسقط على الفراش منتهية، وعندما يصل الأشباح، يجدونها غارقة في النوم.

حانت اللحظة لترحل مرَّةً أخرى من بودابست باتِّجاه بالجبهة الصّربيَّة، وعلى متن السفينة *Zsófia Hercegnő* ينزلون بطول الدانوب متَّجهين إلى فيفيديك(*)، ثمَّ يقطعون نحو الجنوب تجاه ميتروفيكا(**) على الحدود مع صربيا، وعلى سطح السفينة، يقترب رجل من نيلِّي: «ميس بلاي؟ أنا القبطان بينيو، أريد أن أعرِّفكِ على حجراتكِ».

كان المكتب الصَّحَفِيُّ للقيادة العسكرية الذي يتمسَّك كثيراً

---

*) Vyvidek

**) Mitrovica

بالصَّحَفِيَّة الأمريكية، عهد إليها بالجناح الذي كان يخصَّص إلى لويس الثاني ملك بافاريا، الملك الغريب وصديق وحامي واغنر، الذي أنفق نقود العائلة المالكة، ليبني القلعة التي ستكون فيما بعد الموحية لعلامة ديزني.

> كان جناحاً رائعاً؛ المدخل من الماهوغني المعشَّق باللؤلؤ، به زينة بُنِّيَّة مُذهَّبة. كانت غرفة النوم مَكسوَّة بحوائط مَطليَّة بالأبيض، وسجَّاد باللون نفسه، فراش نحاسي وخزانة. كان الحمَّام أبيض اللون بأجهزة حديثة، بما فيها الدّشّ، وكان في الحمَّام عطر، وعلى مائدتي الصغيرة في الصالة، زهور وحلوى.

كان السماح الأخير بالرفاهية قبل أن تعود إلى بؤس مناطق الحرب، في فيفيديك كادت حادثة أن تتسبَّب في الإطاحة برحلتها، أَطلَعُوها على قذيفة مغموسة في السُّمِّ، في الحرب تكون وسائل التَّخلُّص من الخصم أكثر شيطانية دائماً، حذَّرها الدكتور ماكدونالد العامل لدى الصليب الأحمر الأمريكي: «لا، لا تلمسيها!»، ولكنها لا تستمع إليه، وتلمس القذيفة المسمومة، إنه الفضول القاتل، ويبدأ السُّمُّ دورته:

> العذاب الذي عانيتُهُ ثلاث ليالٍ ويومَيْن، أفهمني أنني لم أكن حذرة كما ينبغي، كنتُ أشعر بالألم الأكثر بشاعة من سطح قَدَمَيَّ حتَّى خصري. الحُمَّى ومجموعة من البقع الحمراء بين كاحلي وركبتي لم تكن بالتأكيد مُطمئِنَة، ولكنني لن أقول أيَّ شيء، لا أريد أن يُصرِّحوا بمرضي ويتركوني هنا.

متألِّمة في صمت، استأنفتْ إذاً رحلتها نحو الجبهة الصّربيَّة، وعلى عربة، مستلقية على فراش من القشِّ، ورأسها يتأرجح مع إيقاع الحفر والهضاب، رأت مجموعة من النساء يعملنَ في الحقول، تأثَّرتْ بقوَّتهنَّ وجسارتهنَّ: في غياب الرجال، أخذوا مكانهم، جميعهنَّ، دون أيِّ تمييز للطبقة الاجتماعية:

> تؤدِّي السَّيِّدات النبيلات للنمسا المجرية، بداية من ذوات الدم المَلَكيِّ حتَّى الفلاَّحات، دورهنَّ بشجاعة في هذا الكابوس البشع من الألم اللاَّ نهائيِّ، تمسح الدوقات الكبيرات البلاط، ويقمنَ بأعمال أكثر وضاعةً من أجل الجنود الجرحى، والفلاَّحات، بطريقة تلقائية، يُحضرنَ ما لديهنَّ من وسادات، كما يُحضرنَ آخر ما لديهنَّ. كلُّ الرجال يدركون ذلك، ويشعرون بالامتنان، فالنساء كتفاً إلى كتف بجوارهم، بعيون خالية من الدموع وبشجاعة، لا يمكن أن يكون في هذا البلد مزيدٌ من الشكوك حول مسألة مساواة المرأة بالرجل.

عندما ستنتهي الحرب لا بدَّ من أن يُدركوا هذا. يموت الأغلبية من الرجال، وتظلُّ النساء، ليعشنَ مأساة الحرب، في منزل مضياف، في تلك التي كانت منطقة صربية، والآن يحتلُّها النِّمساويُّون، تستمع نيلِّي لشهادة امرأة فَقَدَتْ في غضون بضعة أشهر كلَّ ما كانت تملكه:

> كانت الحرب بشعة، لم تكن تعرف أين انتهى أمر زوجها، أخذوه بعيداً كأنه «جاسوس»، ولم تسمع أيَّ خبر بعد ذلك، كلُّ ما كانت تملكه نُزِعَ منها، صادر الضُّبَّاط الأسِرَّة وأغطيتها، الملاءات والطعام، لم يعد لديها أيُّ شيء، ولا حتَّى سرير

تنام عليه، ولا حطب، في وقتٍ ما كانت لديها كومة كبيرة منه، حتَّى هذا أخذوه منها، لم تكن تبكي، ولكنْ، كانت تنهُّداتها أكثر عمقاً من النحيب.

جلست نيلِّي، بعد أن أصبحت بمفردها، على فراش حجرتها، إطار من الخشب فوقه بعض القشِّ، لا شيء حولها سوى الصمت، فقط بعض أصوات بعيدة، جنود من الجيش الإمبراطوري يتدفَّؤون حول نيران في رَدْهَةٍ محترقة، فالبؤس لا جنسية له، وضحايا الحرب ليسوا فقط الموتى، ولكنْ، أيضاً مَنْ يظلُّون على قيد الحياة: الأرامل والأبناء، هناك نقص في الطعام والملابس والأدوية، تحصد الكوليرا الجنود والمَدَنيِّيْن دون أن تُميِّز بين الروس والنِّمساويِّيْن أو الألمان. تفيد الصحافة فقط إذا غيَّرت حياة الأشخاص، تبدأ نيلِّي، منطلقة من هذه القناعة، بالعمل على مشروع جديد: تجمع نقوداً من أجل يتامى وأرامل الحرب، يمكن إطلاق الدعوات على صفحات الجرائد الأمريكية لجَمْع النقود، أو ما يمكن أن يفيد القضية، تُهدِّئها هذه الفكرة. الآن الوقت متأخِّر، وهي قد ضبطت المنبِّه باكراً جدّاً، تنزع ملابسها، وتضعها على مقعد، وتدخل في حقيبة النوم التي فرشتْها فوق القشِّ، أعطوها ريفولفر (مسدَّس)، فلا أحد يعلم أبداً ماذا سيحدث، ولكنْ، من الأفضل أن تضعه على الأرض بالقرب من الفراش، ليس لديها أيُّ نِيَّة لأن تُطلق، دون أن تدري، رصاصةً في أثناء نومها.

وبينما الوقت ما زال ظلاماً، تطرق صاحبة البيت على باب الغرفة، لا بدَّ إذاً أن تستيقظ. الجوُّ بارد، ونيلِّي تستمتع إذا مكثت مزيداً من الوقت في دفء حقيبة النوم، ولكنها لا تريد أن تغذِّي الصورة النَّمطيَّة

عن ضعف النساء. تستيقظ سريعاً، تغتسل وترتدي ملابسها، ثمَّ، وفي الفرن الذي يعمل بالسبرتو، تُسخِّن مياه الشاي، إنها المرَّة الثانية التي تعدُّه في حياتها، المرَّة الأولى كانت في طفولتها في الأزمنة الرائعة لشيري ران، في تلك المرَّة أفرغت كيلوَيْن من الشاي في الغلَّاية، وملأته بالمياه، ووضعتْهُ فوق النار، عندما بدأت المياه تسخن، بدأ الشاي ينتفخ حتَّى خرج وانسكب على النار في البداية، ثمَّ على الأرض، فاجأتْها أُمُّها ومعها أختها بينما تحاول أن تُغلق بالغطاء ذلك الخليط الشَّيطانيَّ الذي لا يريد أن يتوقَّف، في ذلك اليوم قرَّرت أنها لا تريد أبداً أن تعدَّ الشاي مرَّةً أخرى، وها هي بعد أربعين عاماً، دفعها البرد والرغبة في أن تجد أيَّ شكل من أشكال المواساة إلى تغيير رأيها، إنها طريقة لتُصارعَ بها الشعور باليأس الذي بدأ ينمو في قلبها. في ذلك الوقت بدأ الفجر يشقُّ طريقه، ومن النافذة رأت النُّدَف البيضاء الأولى تنزل، خلال فترة وجيزة كان الثلج الصامت قد فرش رداءه على كلِّ المنظر المحيط بالمكان، مبعِداً أيَّ فروق، وفي هذا البياض غير المميَّز، قابلت نيلِّي في الرَّدْهَة الضابط المعيَّن لاصطحابها إلى العربة التي ستقودها إلى المحطَّة، كانت تتوقَّع أن تحضر المعارك مع الصرب، ولكن هذا لم يحدث، ستعود إلى بودابست مع الآخرين، وفي أثناء انتظار القطار تجد نيلِّي انفراجةً في مقهى، عندما، فجأة، يشير إليها زميل صَحَفِيٌّ على مجموعة من السجناء الصرب المجتمعين في ميدان قريب، تسرع نيلِّي إلى الخارج ومعها صَحَفِيُّون آخرون ومصوِّرون متوجِّهون إلى بودابست. في الميدان خبر، ولا أحد يرغب أن يفقد فرصة نقله:

وعلى مسافة قريبة كان أربعمئة رجل، يقفون مصطفِّين،

كانوا يقفون تحت حراسة دستة من الجنود المجريِّيْن وضابط على حصان، وكان ضبَّاط آخرون متنوِّعون ينظرون إلى المساجين. مكثت منقطعة الأنفاس من المفاجأة، لم يكن في المجموعة أيُّ رجلٍ يبدو جنديّاً، أو يرتدي زِيَّ الجندي، كانوا يبدون فلَّاحين فقراء، لم يبدُ أنهم يرتدون زيّاً معتاداً باستثناء عدد قليل جدّاً منهم، يرتدون معاطف بُنِّيَّة منقَّطة بأحمر هادئ. لم يكن في قَدَم أيٍّ منهم حذاء برقبة، بعضهم ينتعلون الصنادل الصّربيَّة المعتادة، وهي أحذيةٌ غريبة سواء لرجلٍ أو لجندي، كان معظمهم حافي القَدَمَيْن، برأس مكشوف، وتقريباً بلا بنطال، لأن سراويلهم مصنوعة من شوالات القهوة، بدوا جميعاً مجمَّدين وجوعى، ولكنْ، لم يبدُ عليهم أيُّ شرٍّ أو وحشية، كانوا صغاراً ونحافاً، كان المصوِّرون يتلهَّفون لأن أقف، ليلتقطوا لي صورة بجوار المساجين بينما يخلِّدونهم. عندما اقتربتُ منهم نظروا إليَّ بفضول، ثمَّ ابتسموا بضعف، وأدّوا التَّحيَّة العسكرية، بمجرَّد أن تلقّوا الأوامر بالتَّقدُّم، كان المشهد مؤلماً بالفعل. عديدٌ منهم لم يستطيعوا سوى العرج، مستندين من الجانبَيْن، رجل عاري القَدَمَيْن لم يكن في استطاعته المشي، حاول، ولكنه لم يستطع أن يحرِّك قَدَمَيه، تقدَّم نحوه أحد الصَّحَفِيِّيْن من النمسا، أمسكه من ذراعه كأنه طفل، ووَضَعَهُ على عربة كانت في الجوار، أشار الضابط بالموافقة، وأمر السائق أن ينضمَّ إلى الصَّفِّ. لم أكن أتحدَّث لغة الصَّحَفِيِّ نفسَها، ولكنْ، لم يكن هناك حاجة إلى الكلمات، ذَهَبْتُ نحوه، وشَدَدْتُ على يده.

بمجرَّد أن عادت إلى فيينا، كرَّست نيلِّي وقتها لذلك المشروع الذي تخيَّلتْهُ في أثناء رحلتها إلى الجبهة: أن تجمع النقود لدَعْم أرامل ويتامى الحرب، لهذا الغرض انشغلت بتقوية العلاقات مع مسؤول الدعاية لدى وزارة الخارجية أوسكار فون منتلونغ(*)، لكن الأمر كان يتعلَّق بمسألة حسَّاسة، فهي صَحَفِيَّة صديقة للجبهة النِّمساويَّة-المجرية، ولكنْ، بشكل مستقلٍّ، تحرِّكها فقط الوقائع. نُشِرَ مقالها في إحدى صُحُف فيينا «Die Zeit» ولكنْ، نُشر متأخِّراً جدّاً، وحُذفت منه أجزاء لا تتعلَّق كثيراً بالرقابة العسكرية. عبَّرت عن استيائها لفون مونتلونغ وهي تجتهد بأن تحتفظ بأكثر نبرة مهذَّبة ممكنة. شرح لها أن الحذف لم يكن بسبب الرقابة، ولكنْ، بسبب إدارة الجريدة التي لم تبدُ أنها تتَّفق معها في بعض فقراتها. نيلِّي، من جهتها، تجيبه بأن ذلك لم يحدث لها قطُّ في الولايات المتَّحدة، حتَّى عندما كانت مواقفها مختلفة مع مواقف الإدارة أو رئيس التحرير.

وكلَّما نُشرت تقاريرها على صفحات الـ "جورنال"، من ديسمبر عام 1914 إلى فبراير 1915، زاد التَّوتُّر في بعض قطاعات الحكومة الإمبريالية، فقد أرسل السفير النِّمساويُّ -المجري في الولايات المتَّحدة، كوستانتين دومبا(**)، إلى الوطن تلغرافات، يعبرِّ فيها عن قلقه تجاه نبرة النَّقْد في مقالات بلاي، حول الظروف الصِّحِّيَّة للجيش في غاليسيا، ولكنْ، كانت تلك هي الوقائع، ونقلتْها نيلِّي بلاي ببساطة. وفي محاولة عقد علاقات طيِّبة مع المؤسَّسة الإمبريالية، كان هناك دَوْر مركزي لأوسكار بوندي، الدافع الأساسي لرحلة نيلِّي إلى النمسا، وبالفعل كان للأيَّام

---

*) Oskar von Montlong

**) Konstantin Dumba

التي أمضتْها في مقابلة شخصيات بارزة في صالون فندق إمبريال، وكان للعلاقات التي عقدتْها بفضل صداقتها ببوندي، ثمارُها. وفي مارس عام 1915 اشتركت نيلّي في أنشطة المؤسَّسة الخيرية لدعم أرامل وأيتام جنود الجيش الإمبريالي. وُلدت المؤسَّسة بناء على رغبة الأرشيدوق ليوبولدو سالفاتوري(*) وزوجته بيانكا دي بوربوني(**)، في اللجنة الإدارية وزراء سابقون وكَهَنَة، رجال صناعة ومصرفيُّون. في أثناء أحد اجتماعات التأسيس عرضت نيلّي خطَّتها: هي ترغب في أن تستغلَّ شهرتها لحَثِّ الرأي العامِّ الأمريكي على جَمْع التَّبرُّعات الموجَّهة إلى أرامل وأيتام الحرب النِّمساويَّة. أعدَّت تلغرافات، أرسلتْها إلى مديري الجرائد اليومية فيما وراء المحيط حتَّى ينشروا دعوة تحمل هذا المعنى، لكن لدى فون مونتلوغ شكوك عديدة في هذه العملية، أوَّلها أن طلب المساعدات هذا يمكن أن ينقل صورةَ ضعف الإمبراطورية، إضافة إلى أنه عندما يرسل الأمريكيون مساعداتهم، قد تُوقِفها القوَّات الإنجليزية، وتُصادرها. لم تيأس نيلّي، وقاومت هذا: في كلِّ الدُّول جُمِعَت التَّبرُّعات لأرامل وأيتام الحرب، دون أن يشير ذلك إلى أيِّ حُكْم بالضعف من قِبَل الرأي العامِّ، ثمَّ إذا صادر الإنجليز التَّبرُّعات المرسَلَة للضعفاء والمحتاجين، فسوف يُدان ذلك عَلَناً، وسيُسيء ذلك لصورتهم. لم يقتنع فون مونتلونغ، ولكنه لم يرغب في أن يعارض نيلّي على الملأ، كان يعرف كم هو مفيد أن تكون الصَّحَفِيَّة الأمريكية مؤيِّدة له، إلَّا أنه، على غير علْمها، يأمر أن تُوقَف تلغرافات نيلّي، وإذا أدركت هي أن تلغرافاتها لم تصل إلى الجهة المرسَلة إليها، يمكن دائماً القول إن الإنجليز منعوا هذا، إلَّا أنه في مايو

(* Leopoldo Salvatore

(** Bianca di Borbone

عام 1915، أغرقت غوَّاصة ألمانية سفينة اللوزيتانيا، الأمر الذي أدَّى إلى موت ألف ومئَتَي شخص تقريباً بينهم نحو مئة مواطن أمريكي، وعلى الرغم من أن أغلب الرأي العامِّ الأمريكي كان يتمسَّك بموقف محايد من الحرب، إلَّا أنه بعد هذا الحَدَث المأساوي، أصبح ينظر بارتياب أكثر إلى الإمبراطوريات المركزية. لم تدرك نيلِّي، المعزولة عن باقي العالم، ذلك التَّحوُّل في التحالفات واستمرَّت في طريقها، أرسلت بعض التلغرافات والخطابات إلى أصدقائها الأمريكيِّيْن، ووَصَلَتْ مراسلتها هذه المرَّة إلى وجهتها. ينشر بريسبان على صفحات "الجورنال" نداء نيلِّي بلاي: نُقود لتتحوَّل إلى طعام لسدِّ جوع الأيتام والأرامل النِّمساويِّيْن ضحايا الحرب. وفي المقال يمكن قراءة مشروع نيلِّي بالتفاصيل: في مقابل مساهمة قَدْرها خمسة وعشرون سنتاً، سيكون للمتبرِّعين الشرف بأن يُسجِّلوا في القائمة الذَّهبيَّة للإمبراطورية. شغل التنظيم العملي لهذه المبادرة نيلِّي العامَ كلَّه، شعرت بنفسها مفيدة، ليس للحكومة النِّمساويَّة، ولكنْ، للأشخاص الذين ترى معاناتهم بسبب الحرب، وآتت الطاقة التي بذلتْها في ذلك النشاط، في النهاية، ثمارها. وفي حضور الأرشيدوق ليوبولدو سالفاتورى وزوجته بيانكا، عرضت نيلِّي النتائج الإيجابية لحملة المساعدات، وقدَّمت قائمة بأسماء المتبرِّعين الأمريكيِّيْن. خفَّفت هذه النتيجة من ذلك الشعور باليأس والعجز اللَّذَيْن تسبَّبت بهما الحرب في قلبها، على الرغم من كلِّ شيء يمكن عمل شيء ما للآخرين، حتَّى في الوَضْع الصعب لصراع عنيف ومأساوي إلى هذا الحَدِّ.

وفي الوقت نفسه، في الولايات المتَّحدة، أُعيد انتخاب ويسلون إلى البيت الأبيض، وكان هذا عام 1916، قاد كلَّ حملته الانتخابية تحت شعار "فلنُخْرِج الدولةَ من الحرب"، وهو موقف أصبح، مع مرور

الأشهر، أقلَّ تماسكاً، ففي يناير عام 1917 أعلن الألمان الحرب الشاملة بالغوَّاصات، وأمام هذه المبادرة، وجد نيلسون نفسَه مُجبراً على أن يُقدِم على خطوة كبيرة. في الواقع، على الرغم من الحياد المعلَن، كان الاقتصاد الأمريكي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمثيلَيْه الإنجليزي والفرنسي، وفي أثناء الحرب تعقَّدت عمليات الاستيراد من هذَيْن البَلَدَيْن بشكل كبير، بالإضافة إلى أن البنوك الأمريكية سَمَحَتْ لهما بقروض كبيرة جدّاً، فهناك إذاً أسباب مؤكَّدة وجيِّدة جدّاً لتغيير المسار. كانت الحرب الشاملة بالغوَّاصات- بالنسبة إلى ويلسون "تغييراً للإنسانية"- هي ذريعة أكثر من كافية، وهكذا في إبريل عام 1917، دخلت الولايات المتَّحدة، حسب كلمات ويلسون، "الحرب، لتضع حدّاً لكلِّ هذه الحروب". أيضاً كان الوَضْع في روسيا في تطوُّر مستمرٍّ، في فبراير اندلعت الثورة، نُحِّيَ القيصرُ، وأصبحت السلطة في يد الحكومة المؤقَّتة. بعد مَنفى طويل، عاد إلى الوطن فلاديمير أليتش أوليانوف(*)، المَدعوّ لينين، قائد الجناح الأكثر تعصُّباً للاشتراكيِّيْن الروس والبولشفيِّيْن، الذي يهدف بكلمات سِحْرِيَّة: "سلام"، "الأرض للفلَّاحين"، إلى إقامة الجمهورية الأولى للاتِّحاد السُّوفيتيّ في روسيا.

وتطوَّر الوَضْع أيضاً بالنسبة إلى نيلِّي في محيطها الصغير. الآن أصبحت من مواطني دولةٍ عدوَّة. ولكنْ، بفضل علاقاتها الممتازة مع الحكومة النِّمساويَّة، أثَّر ذلك في حياتها أدنى تأثير، ولتتحرَّك في البلد كان لا بدَّ أن تطلب الإذن من السلطات المَعنيَّة، وكانوا يسمحون لها بذلك، ولكنْ، تغيَّرت الأمور بالنسبة إلى صديقها أوسكار بوندي، مواطن دولةٍ في حالة حرب مع الولايات المتَّحدة، وفي الوقت نفسه صاحب

(* Vladimir Il'ič Ul'janov

حصَّة كبيرة في الشركة الأمريكية للصلب، صادرت الحكومة الأمريكية حصَّته من الأسهم، التي يمكن أن تعمل على تصفيتها في أيِّ لحظة. وبغرض إيقاف علمية التصفية، فإن والدة نيلِّي، الثَّمانينيَّة، ماري جين، ومعها ابنها ألبرت، أبلغا عن أن عملية نَقْل الأسهم لبوندي كانت عملية نَصْب، حَدَثَتْ عام 1915، وذلك تبعاً لخطَّة نيلِّي لانتزاع تلك الحصص من الدائنين لحديد كلاد، ولإعادة نقودٍ إلى بوندي كان قد أعطاها إيَّاها في أثناء رحلتها في النمسا، وطلب الاثنان، أن يُوقَف ذلك الإجراء على تلك الحصص، إلى أن تتَّضح قانونية هذه الخطوة. في الواقع كان الأمر الموضوع على المحكِّ، هذه المرَّة أيضاً، هو السيطرة على الشركة، وكان ألبرت، الذي أدار شركة أمريكان ستيل باريل، في أثناء غياب نيلِّي عن أمريكا، يعلم أن هذه هي فرصته الوحيدة، ليضع يَدَيْه على الشركة، أي إنه كان يرغب في الاستيلاء على كلِّ شيء، وأقنع ماري جين أن تؤيِّده في ذلك المشروع. لا بدَّ أن تعود نيلِّي إلى نيويورك، لتخوضَ حرباً قانونية أخرى، وهذه المرَّة على الجانب الآخر من الحاجز، لا يقف المصرفيون الذين لا رحمة لديهم، ولا المستفيدون الطماعون، ولكنْ، يقف أخوها ومعه أُمُّها.

الخاتمة

في 28 فبراير عام 1919 عندما رَسَتْ نيلِّي بلاي في نيويورك على ظَهْر عابرة المحيطات لوران Lorraine، لم يعد لعالمها القديم أيُّ وجود، التَّطوُّر والروعة والثقة في عقدَيْن وقعا بين قرنَيْن من الزمن، تحطَّمت جميعها أمام بشاعة الحرب، تغيَّرت حياتها هي بلا رجعة، فقدت بيتها الواقع في 37 شارع ويست ستريت، ولم يعد في بوشويك أثر لمشاريعها، والأهمُّ، لم تعد أُمُّها تتحدَّث معها. لم تعد هناك سوى بضعة خيوط ما زالت تربطها بحياتها ما قبل الحرب: علاقتها بأخيها هاري وابنة أختها بياتريس، صداقتها مع إيرازموس ويلسون وآرثر بريسبان، والعمل والآثار الأخيرة القانونية المتعلِّقة بإخفاق حديد كلاد. تسبَّب النزاع القضائي، مع أخيها ألبرت وأُمِّها على إدارة حاويات الصلب الأمريكية، في جرح عميق لها، لن يُشفَى أبداً. في خطاب أرسلتْهُ إلى إيرازموس ويلسون تتكشَّف كلُّ المرارة لما تُعرِّفه هي بالخيانة الحقيقية:

> يا لها من نهاية تعيسة لليتيمة الصغيرة الوحيدة! خانها الجميع، حتَّى أُمّها! قضيتُ كلَّ أيَّامي أعتني بها، والآن لا تريد أن تراني مرَّةً أخرى. أريد أن أضع نهاية لكلِّ شيء، ولكنْ، يمنعني فقط حُبِّي لأخي هاري.

وهذا حقيقي، فطَوَلَ حياتها اعتنت إليزابيث بأُمِّها، منذُ أن كانت مراهقة، تحمَّلت عواقب اختيارات أُمِّها الخاطئة، يكفي التفكير في زواجها من جاكسون فورد، وعندما أصبحت امرأة ناضجة، كانت تهتمُّ دائماً بكلِّ احتياجاتها، إلَّا أنها عندما تعلَّق الأمر بأن تختار بينها وبين ألبرت، اختارت ماري جين ألبرت، والأدهى من ذلك أنها اختارت رجلاً، وقطعت العهد الذي وحَّدهما كلَّ حياتها، منذُ أن قرَّرت نيلِّي أن تأخذها معها إلى المكسيك راعيةً لها، أفضت إلى ابنة أختها بياتريس قائلة: "مَنْ يدري فيمَ أخطأتُ؟! إذا كان كلُّ مَنْ أحببتُهُم يخونونني، إن آجلاً أم عاجلاً!". على الرغم من التَّقلُّبات المستمرَّة لحظِّها، فإن نيلِّي لا تستسلم أبداً، كانت تتأقلم مع الظروف بلا ندم لا طائل منه. عندما وضعت قَدَمَهَا من جديد في نيويورك، بثلاثة دولارات في جيبها وحقيبة مملوءة بالملابس الفرنسية، وافقت على عرض بريسبان بأن تعمل في الـ "جورنال" مقابل مئة دولار في الأسبوع، ما يكفيها لتعيش وتدفع مصروفات غرفة في فندق ماك ألبين، مقرّها في العام الجديد، ذلك المقرُّ المتواضع بعد حياتها الفخمة في فندق إمبريال في النمسا، وهذه المرَّة، أيضاً، تُنقذها الصحافة، كما سَبَقَ وأنقذتْها من شباب بلا مستقبل، أو عندما فكَّرت في تَرْك زوجها، أو عندما وجدت نفسها مرَّةً أخرى في أوروبا وسط الحرب الكبرى. ومثلما أنقذتْها الصحافة، ففي رأي نيلِّي إن العمل بصفة عامَّة هو ما يمكن أن يُنقذ النساء، بأن يسمح لهنَّ بالاعتماد على مجهودهنَّ الخاصَّ. ليس الجحيم هو الفقر، ولكنْ، أن تضطرَّ المرأة للاعتماد على رجل. من المؤكَّد أنها قطعت جزءاً من الطريق منذُ زمن الخطاب الذي أرسلتْهُ لجريدة "النبأ"، وصولاً إلى التعديل التاسع عشر: أصبح للنساء، عام 1920، الحقُّ في الانتخاب.

كم من الزمن مرَّ منذُ تلك اللحظة البعيدة عام 1896، إلى أن صُدمت، في أثناء تغطيتها لأحداث المؤتمر الخاصّ بالجمهوريِّيْن، بوقاحة وإساءة أسلوب عضوات الحزب من السَّفَرجيت، ولكنها عندما تابعت مؤتمر الجمهوريِّيْن في شيكاغو، في يونيو عام 1920، والذي شاركت فيه النساء للمرَّة الأولى كناخباتٍ، سجَّلت نيلِّي مرحلة أخرى مهمَّة في مسيرة تحرير المرأة: لم تعد عليهنَّ التضحية بأُنوثتهنَّ باسم الحصول على حقوق متساوية مع الرجال، "وَصَلَتِ النساء المشتركات في المؤتمر مرتدياتٍ ملابسَ على أحدث صيحة، لم يكن تافهات على الإطلاق، بل برز ذكاؤهنَّ وفطنتهنَّ، وهذا لأنهنَّ توقَّفنَ عن أن يخجلنَ من مظهرنَّ الخارجي". الخلاصة، بالنسبة إليها كان هذا مؤشِّراً لواقع أن دَوْر وثِقَل المرأة في المجتمع الأمريكي على وشك التَّغيُّر.

بالنسبة إلى نيلِّي لا بدَّ أن تتغيَّر الصحافةُ أيضاً، يمكن أن يكون للصحافة معنى إذا ساهمت في تحسُّن حياة الأفراد، لهذا لم تتراجع قطُّ عندما يتعلَّق الأمر بإدانة الظلم أو الدفاع عن قضايا الضعفاء، كما في حالة التحقيق الذي أجرتْهُ في مصحَّة بلاكويل أو في إضراب بولمان. يمكن محاربة اليأس بالمعلومات، ما يهمُّ حقّاً هو النظرة التي نرى بها الأشياء والحكايات، إذا فعل الصَّحَفِيُّ ذلك بطريقة واعية، واضعاً نفسه مكان مَنْ يقرأ، فهو على الطريق الصحيح، القارئ سيدرك ذلك، وسيمنحه ثقته. رَجَت نيلِّي دائماً أن يكون لها عمودها الخاصُّ، ولكن كلَّ محاولاتها باءت بالإخفاق، هذا لأن صحافة التحليلات الكبيرة ليست من إمكانياتها، ولا التَّأمُّلات العامَّة انطلاقاً من الموضوعات المتفرِّدة الصَّحَفِيَّة. كانت موهبتها تكمن في قدرتها على سَرْد الوقائع والأشخاص بطريقة حيوية، ليس مصادفة أنها تقدِّم أفضل ما لديها

في الحوارات، التي تتميَّز دائماً بأسئلة مفاجِئة، حادَّة ومباشرة، أسئلة لم يكن لدى عديدٍ من زملائها الرجال في زمنها الشجاعة لطَرْحها، تعوقهم المداهنة أو ما هو أسوأ أيضاً، تبجيلُ المُحاور، لكن نيلِّي عندما تكتب لا تفكِّر سوى في القارئ، وهذا ما يصنع الفارق. كان عمودها الجديد في الـ "جورنال" هو النتيجة الطَّبيعيَّة لهذا التَّوجُّه، فالقُرَّاء هم أبطال قصصها، مع جانب جديد: لا تقتصر نيلِّي على تقديم نصائح أو تأمُّلات عامَّة انطلاقاً من المشكلات التي تُطرَح أمامها، ولكنها تعرض استعدادها الشَّخصيَّ والصدى القوي لعمودٍ في جريدة يومية واسعة الانتشار لتقدِّم مساعدة ملموسة لمَنْ يحتاج إليها، وهكذا تخلق نوعاً من الصلة المباشرة بينها وبين مَنْ يطلب المساعدة ومَنْ لديه القدرة على تقديمها. كانت نيلِّي قد أمسكت بالفعل، في أثناء الحرب، بالقدرة الإنسانية لعملها، والآن خَطَتْ خطوة أخرى، أصبح عمودها بانتشاره الشاسع شبكة فعَّالة، تعمل على التلاقي بين العرض والطلب، وكانت هذه ضربة المعلِّم الأخيرة بالنسبة إليها. تصل الخطابات بالمئات، هناك مَنْ يبحث عن عمل، ومَنْ يحتاج إلى مساعدة، ومَنْ يرغب في أن يترك أطفاله، لأنه لا يعرف كيف يسدُّ جوعهم. آخرون يتقدَّمون مباشرة إلى ماكلبين دون أن يكتبوا لها أوَّلاً، عندما كان أصدقاؤها يلومونها على أنها تُصغي وتقدِّم المساعدة أيضاً لعديدٍ من الاستغلاليِّيْن، كانت تجيب: قدِّموا المساعدة أوَّلاً، ثمَّ حقِّقوا. كانت تدور أنحاءَ المدينة كلَّها دون أن تستريح، تكره الهاتف، وتستخدمه فقط لتتَّصل بإدارة التحرير، وتشكو من كيفية وضع مقال لها في الصفحة. مثلما حَدَثَ في فيينا، ركَّزت بالأخصِّ على الأطفال المُعوزِين، ففي الواقع الحَضَرِيِّ الضخم تهمشَّت تماماً الروابط التَّواصليَّة النَّموذجيَّة للثقافات الرِّيفيَّة القديمة، وفي هذا الإطار

تصبح الأُمَّهات الفقيرات وأطفالهنَّ من أضعف الكائنات. ربَّما ذكرى طفولتها وتلك السعادة المفقودة فجأة هي ما جَعَلَهَا شديدةَ الحساسية تجاه احتياجات الآخرين، تلك الطفلة السعيدة التي كانت تتلصَّص من بعيد على والدها المستند إلى البَلُّوطَة الضخمة في شيري ران، أو التي كانت تحاول أن تمنع الشاي من أن يخرج منتفخاً من الغلَّاية، وجدت نفسها مُجبَرَةً على أن تكبر فجأة، وأن تتعامل مع الحداد، والإهمال، وزوج الأُمِّ العنيف، والأُمُّ ضعيفة الشَّخصيَّة. تلك الطفلة الآن سنُّها تزيد على خمسين عاماً، ولكنها لم تنسَ، لهذا لا تستطيع ألَّا تبالي أمام كلِّ هذه المعاناة. من جهة أخرى، كيف يمكنها أن تنزع نفسها من النظرات الحائرة للأطفال المغتربين الذين علَّقوا على ملابسهم بطاقة مكتوباً عليها: خذني إلى نيلِّي بلاي؟

في أحد الأيَّام تُقابل نيلِّي بالصدفة دوروثي كولتر، طفلةً مريضةً، ابنةَ إحدى مدمنات الهيروين التي لم تكن بأيِّ حال قادرةً على الاعتناء بها، يتفجَّر شيء ما، وتتعلَّق نيلِّي بدوروثي، هذه المرَّة، ربَّما يحدث العكس، فالطفلة هي مَنْ يمنح المواساة للصَّحَفِيَّة الجسورة. نحن في فترة أعياد الميلاد عام 1921 تقرِّر نيلِّي أن تقضيَها بصبحة دوروثي بضعة أيَّام في فندق مكالبين، وتفكِّر، ربَّما تستطيع، أيضاً، أن تتبنَّاها، ستكون نهاية سعيدة لكلَيْهما، ولكنْ، في الثامن من يناير عام 1922 تُنقَل نيلِّي إلى مستشفى سان مارك، تحوَّل السُّعال الذي كان يلازمها منذُ عدَّة أشهر إلى التهاب رئوي، ويمرُّ أقلُّ من ثلاثة أسابيع حتَّى يتوقَّف قلبها الحزين المنهَك عن النبض في 27 يناير 1922.

عندما أخبروا آرثر بريسبان، صعُب عليه أن يصدِّق أن كلَّ تلك الطاقة

وكلَّ هذا الشَّغَف وحُبَّ الحياة قد انتهى فجأة. هذه الريح القوية التي كانتْها حياة نيلّي، التي قَضَتْها في مهمَّة الفَهْم، والذهاب إلى أصل ما يتحوَّل فيما بعد إلى "خبر" أو أن يخاطر بأن يُسكَتَ عنه، قد توقَّفت عن الهبوب، لا يمكن لأحدٍ أن يعرف أين وُلِدَت الريح، وإلى أين ستذهب، من الجبن محاولة إيقافها، ولا منطق في محاولة اتِّباعها، لا يبقى سوى تركها تجول لنكتشف، بمجرَّد أن تتوقَّف، كم هو حزين الاستمرار دون أنفاسها المنعشة! بهذه الأفكار يصل بريسبان إلى إدارة تحرير الـ "جورنال"، يدخل إلى مكتبه، ويطلب من سكرتيرته ألَّا يُزعجه أحد، وبعينَيْن دامعَتَيْن يجلس أمام مكتبه، ليرسم بورتريهاً لصديقته القديمة العزيزة، يحاول أن ينظِّم قلبه وعقله، لم يكن الأمر سهلاً، ولكنه سيفعله، لا يعرف من أين يبدأ، وفي النهاية، مثل كلِّ صَحَفِيٍّ يحترم قلمه، يبدأ من الخبر:

ماتت نيلّي بلاي أمس، ملايين يعرفون مَنْ هي، ويعرفون عملها، ستتحدَّث الصُّحُف عن جولتها حول العالم، وكيف أنجزتْها في وقت أسرع من بطل رواية فيرن، وسيتحدَّثون عن تحقيقاتها الصَّحَفِيَّة الاستثنائية، والأهمُّ لنيلّي ولمَنْ عرفها هو أن ما لا يعرفه العالم كلُّه، أنها ماتت، وقد تركت قليلاً من المال، فلقد كانت تُنفق كلَّ ما كانت تملكه لتعتنيَ بالأطفال الأقلِّ حظّاً. استعادت عملها، وكانت تعيش في غرفة متواضعة بأحد الفنادق، ولكنها كان معها دائماً طفل، لا يجد مكاناً يؤويه، الأطفال الذين من أجلهم كانت على الرغم من ظروف صحَّتها الضعيفة تُنفق كلَّ ما كانت تربحه بجهد، كانوا أبناء أشخاصٍ غرباء، ولم يكن لديهم صفة أخرى سوى

أنهم كانوا "فقراء متروكين"، أي إن قلبها دائماً كان بجانب الأضعف. كانت نيلّي بلاي من أعظم صَحَفِيِّي أمريكا، ولم يكن هذا شيئاً بسيطاً، لأنه يتطلَّب ذكاءً ودقَّةً، يتطلَّب صِدْقاً وشجاعةً وحِدَّةً. قدَّمت دليلاً على شجاعتها منذُ شبابها المبكِّر بالفعل عندما قرَّرت بكامل رغبتها الدخول إلى مصحَّةٍ، لتُدين عَلَناً الظروف القاسية التي كانت تتعرَّض لها المريضات الخاضعات هناك للعلاج، تظاهرت بالجنون، وعاشت مع نساء أخريات، وهي تُدوِّن كلَّ شيء، وبمجرَّد أن خَرَجَتْ، كَتَبَتْ تحقيقاً، ساهم في تحسين طُرُق علاج المرضى العقليِّيْن في كلِّ أنحاء البلد. [...] كان طريقها طريقاً جيِّداً، لذلك يمكنها أن تأخذ معها ما يستحقُّ أن يُزرَع في هذه الأرض: اسماً مُكرَّماً، احترام ومحبَّة زملائها، ذكرى المعارك الحقيقية التي خاضتْها وأعمالها الطَّيِّبة، أعمالاً لن تُنسَى أبداً لمَنْ لم يكن لهم أصدقاء سواها.

توقَّف بريسبان للحظة، يبدأ البكاء بقوَّة، وبطريقة لا يمكن التَّحكُّم فيها فجأة يتذكَّر عبارة كانت نيلِّي قد كَتَبَتْها فيما يتعلَّق بعملها، وفي هذه اللحظة يبدو له بأنها تكشف له عن سرِّ شَغَفها الذي لا يكلُّ: "لم أكتب قطُّ كلمةً لم تنبع من قلبي، ولن أفعل ذلك أبداً"، وكيف يمكن أن يكون ما حَدَثَ غير هذا؟ في ثانيةٍ يستعيد بريسبان في ذهنه كلَّ حياة نيلِّي، في الواقع كَتَبَتْ بقلبها خطابها الأوَّل لجريدة "النبأ"، لتدافع عن حقوق الفتيات، وتعيش حيواتهنَّ، وطالما بحثت بقلبها عن كيفية تحرير السجينات من سجن بلاكويل، وقرَّرت أن تجري أسرع من فيلياس فوغ، وقامرت بزواجٍ لم يُؤمِن به أحد، ومرَّة أخرى كان قلبها هو مَن أدار

شركة زوجها محوِّلاً إيَّاها إلى مكان فريد، يمكن العمل فيه، وكان هو مَنْ قصَّ على الأمريكيِّيْن معاناة الحرب الكبرى، وفريسةً للتَّأثُّر أضاف بريسبان في آخر المقال: "طوبى لأيِّ رجل أو امرأة يستطيع أن يترك عن نفسه ذكرى طيِّبة كهذه!"، ثمَّ استدعى سكرتيرته، وأخذ الورقة، طواها طيَّتَين، وكالمعتاد، طلَبَ أن تُراجَع وتُجمَع للنَّشْر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شُكْر

هـذا الكتـاب مستوحًى من حياة ومقالات نيلِّي بلاي، ربمَّا لم يكـن ليخرج إلى النور أبداً لو لم أعدّ عن نيلِّي مادةً للبرنامج الإذاعي "حيوات تختلف عن حياتكَ"، الـذي يُقدَّم على القناة الثالثة لهيئة الإذاعة والتلفزيون الإيطالية Rai. أنتهز، إذاً، هـذه الفرصة لأشكر القناة الثالثة للراديو ومديرها على الثقة التي منحوني إيَّاها، أشكر أيضاً جوفاني من أجل نصائحه القيِّمة، وجوليا لعنايتها المعتادة، ولا بدَّ أيضاً أن أشكر كلَّ الأصدقاء الذين ساندوني كلَّ تلك الأشهر، ومن بينهم ماركو، الذي على الرغم من انشغاله في معركة قاسية جدّاً، لم يترك أيَّ فرصة ليستعلم عن وَضْع الكتاب، وعن تشجيعي دائماً، وأذكر أيضاً بصفة خاصَّة كنزي فرانشسكا وبيترو، وأرجو لهما، مثل نيلِّي، ألَّا يفقدا أبداً الوداعة والحماس وحُبَّ الحياة التي لم يتوقَّفا عن مَنْحي إياها حتَّى اليوم. وأخيراً أشكر ماريا، قارئتي الأولى، الغالية التي لا تكلُّ.

ملحوظة للمؤلِّف

النصوص الإيطالية للقاءات إيما غولدمان وعن المراسلات في أثناء الجولة حول العالم مقتبَسَة من كتاب:

Nellie Bly, Il giro del mondo in 72 giorni, a cura di Luisa Cetti (Mursia, Milano 2007)

الترجمة الإيطالية لمراسلتها من الجبهة الشَّرقيَّة في الحرب العالمية الأولى مأخوذة من :

Edith Wharton, Nellie Bly, Da fronti opposti. Diari di guerra, 19141915-, a cura di Luisa Cetti (Viella, Roma 2010).

الجزء المُترجم إلى الإيطالية من قصَّة حياة في مصانع الحديد مأخوذ من:

Rebecca Harding Davis, Polvere di ferro, Tre racconti alle origini del realismo americano, a cura di Livia Terracina (Donzelli, Roma 2011).

ملحوظات وانطباعات شارلز ديكينز عن مصحَّة الأمراض النَّفْسيَّة النِّسائيَّة في نيويورك توجد في الترجمة الإيطالية لكتاب:

Charles Dickens, America, traduzione italiana a cura di M. Buitoni, G. Corsini, G. Miniati (Feltrinelli, Milano 2008)

ولمَنْ يرغب في التَّعمُّق في الدراسة عن نيلِّي بلاي أنصحه بقراءة العمل الكلاسيكي لبروك كروجر:

Brooke Kroeger, Nellie Bly: Daredevil, Reporter, Feminist (Crown, New York 1994)

وكتاب كاترينا سكتاماميا:

Caterina Scatamacchia, Nellie Bly. Un'avventurosa giornalista e viaggiatrice americana dell'Ottocento (Morlacchi, Perugia 2014).

الموادُّ الموجودة على شبكة الإنترنت حول نيلِّي بلاي لا حصرَ لها، ولكنْ، هناك موقع جيِّد للانطلاق والتَّعرُّف على أعمالها، وهو:

www.nellieblyonline.com

مراسلات المكسيك، والتحقيق في جزيرة بلاكويل والعديد من مقالاتها مُجمَّعَة في مختلف الدَّوريَّات الأمريكية في صيغة epub يمكن اقتناؤها بسهولة عبر الإنترنت.

وللتَّعمُّق أكثر عن الفترة الزَّمنيَّة التي عاشتْها نيلِّي أقترح:

Asa Briggs, Peter Burke,

Storia sociale dei media: da Gutenberg a internet (il Mulino, Bologna 2010, terza edizione aggiornata);

John L. Thomas, La nascita di unapotenza mondiale: gli Stati Uniti dal 1877 al 1920 (il Mulino, Bologna 1997);

Fabrizio Tonello, Il giornalismo americano (Carocci, Roma 2005);

James McGrath Morris, Pulitzer: A Life in Politics, Print and Power (HarperCollins eBooks, New York 2010); David Randall, Tredici giornalisti quasi perfetti (Laterza, Roma-Bari 2007).

وفيما يلي المصادر التي اقتبستُ منها الاستشهادات في هذا العمل بالتفصيل:

Bly Nellie, Around the World in Seventy-Two Days and Other Writings, ed. by Jean Marie Lutes, Penguin, New York 2014 (qui alle pp. 3436-).*

Id., Il giro del mondo in 72 giorni, a cura di Luisa Cetti, Mursia, Milano 2007 (qui al cap. 7 e a p. 132).

Id., The Complete Works of Nellie Bly, Createspace Indipendent Pub, 2015 (qui alle pp. 48, 52, 74, 75, 81).*

Dickens Charles, America, trad. it. di M. Buitoni, G. Corsini, G. Miniati, Feltrinelli, Milano 2008 (qui a p. 69).

Harding Davis Rebecca, Polvere di ferro, Tre racconti alle origini del realismo americano, a cura di Livia Terracina, Donzelli, Roma 2011 (qui alle pp. 2628-).

Kroeger Brooke, Nellie Bly: Daredevil, Reporter, Feminist, Crown, New York 1994 (qui alle pp. 86, 150-162 ,160 ,152-197-196 ,191 ,163).*

Ostrogorski Moisei, "La democrazia e i partiti politici", in John L. Thomas, La nascita di una potenza mondiale: gli Stati

Uniti dal 1877 al 1920, il Mulino, Bologna 1997 (qui a p. 92).

Randall David, Tredici giornalisti quasi perfetti, Laterza, Roma-Bari 2007 (qui alle pp. 43, 80, 137).

Scatamacchia Caterina, Nellie Bly. Un'avventurosa giornalista e viaggiatrice americana dell'Ottocento, Morlacchi, Perugia 2014 (qui a p. 57).

Wharton Edith, Bly Nellie, Da fronti opposti. Diari di guerra, 19141915-, a cura di Luisa Cetti, Viella, Roma 2010 (qui al cap. 10).

* قام المؤلِّف بالترجمة عن الإنكليزية

المؤلف نيكولا أتاديو

يهتم أتاديو منذ أعوام بنقل المعلومات والاتصالات، وخاصة في مجال الكتب والثقافة. تولى منذ عام 2000 رئاسة المكتب الصحفي لدار نشر لاترزا Laterza. هو معد ومقدم برنامج "حيوات مختلفة عن حياتك" على القناة الثالثة في الراديو الإيطالي. وروايته هذه "حيث تولد الريح (الصادرة عن دار بومبياني 2018) هو أول كتبه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«الحياةُ العبثيَّة والانعزاليَّة والمُثيرة والمليئة بالكفاح لأوَّل مراسلةٍ صحفيَّةٍ أمريكيَّة، كتابٌ مُذهل».

الروائي الشهير روبرتو ساڤيانو

«سيرة ذاتية مذهلة».

كورادو أوجياس في الـ Quante storie

سبتمبر 1887، قرعت فتاةٌ باب السيد جون كوكريل، مدير صحيفة «The New York World» التي يملكها جوزيف بوليتزر، وطلبتْ أن تكون مراسلة صحفية. لم تصل امرأةٌ إلى هذه الجرأة من قبل، اسمُها إليزابيث كوكران، تبلغ من العمر 23 عاماً وتكتب لصحيفة «أنباء بيتسبرغ» تحت الاسم المستعار (نيلّي بلاي - مراسلة صحفية). لم يكُ أحد قد سمع من قبل بمراسلةٍ صحفية امرأة ولكن عملها السابق في الكتابة تحت ذاك الاسم المستعار، عن ملجأ شهير للنساء في مدينة نيويورك، أقنعَ السيِّدَيْن كوكريل وبوليتزر. تحصل إليزابيث على العمل لتنجز تقريراً استقصائيّاً سيغيّر عالم الصحافة إلى الأبد. ولتغدو نيلّي بلاي كابوساً حقيقياً للسياسيين والمتطرفين، وتسافر حول العالم، وتعيش الحب والفشل، وتؤكد على أن الصحافة ينبغي أن تجعل حياة القرّاء أفضل.

كتابٌ عن حياة امرأةٍ شجاعة وذكيَّة فهمت قبل عصر شبكات التواصل الاجتماعي أنَّ الكتابة يمكنُ أن تبقينا مُتّحدين وتُغيّر عالمنا.

الناشر

ISBN 978-88-32201-67-3
9 788832 201673

المتوسط

مكتبة
t.me/soramnqraa